www.kotobarabia.com

مركز الدراسات الاشتراكية



www.kotobarabia.com

الماركسية و الحزب

جون ميلنو

المــــاركسيــة والحــــزب

جــون ميلنـــو

فهرس

مُقدّمة

كُتِب هذا الكتاب فى منتصف السبعينات، وشأنه شأن أي عمل آخر، فهويحمل ملامح عصره. كانت بداية السبعينات في بريطانيا سنوات صراع قوي وناجح للطبقة العاملة: بلغ قمته فـى تـدمير "قـانون العلاقـات الصناعية" التابع لحكومة المحافظين بواسطة عمال الميناء والهندسة، وفك تجميد الأجور الذي قام به عمـال المناجم فى ١٩٧٢، وأخيراً إسقاط حكومة المحافظين التابعة لإدوارد هيث بواسطة إضراب عمال المناجم فى ١٩٧٤. كانت هناك بالطبع بعض الهزائم، ولكن بشكل عام، كانت الصورة تظهر حركة عمالية متصاعدة.

وعلى الصعيد العالمي، كانت هناك أسباب أيضاً تدعوللتفاؤل. حيث كانت ذكرى عام ١٩٦٨ الرائعـة لا تزال في الأذهان، بهجوم التت* في فيتنام، وأحداث مايوالدرامية في فرنسا، والانتفاضات الطلابية المنتشـرة فى جميع أنحاء العالم، وتمرد السود في مختلف المدن بالولايات المتحدة الأمريكية. بالإضافة إلى كل ذلـك، فإن عام ١٩٦٨ قد أعقبه "الصيف الساخن"** للعمال الإيطاليين فى ١٩٦٩، والهزيمة المنكرة للأمريكان فـى فيتنام، والثورة البرتغالية فى ١٩٧٤ بكل عواقبها فى إفريقيا. ومرة أخرى كانت هناك هزائم، خاصة مأسـاة انقلاب شيلي في ١٩٧٣. ولكن عموماً، بدا وكأن العملية الثورية العالمية قد بدأت تشق طريقها.

وبدا على الأخص أن القوى الثورية الحقيقية للماركسية بدأت أخيراً فى سـحب نفسـها مـن الهـوامش الخارجية للحياة السياسية، حيث حوصرت منذ صعود الستالينية في العشـرينات. وفـى بريطانيـا، تحـول الاشتراكيون الأمميون (الآن حزب العمال الاشتراكي) من مجموعة صغيرة للدعاية مكونة من مائتي فرد إلى حزب صغير حيوى يضم بضعة الآف، ذى قاعدة صغيرة ولكن جادة في صفوف الطبقة العاملة. وأصبح في أوروبا عدد من المجموعات المبشرة ذات حجم مساوى أوأكبر، أتسمت سياساتها (بالرغم من الارتباك بسبب التأثير القوى للماوية) بالثورية وأنها ذات توجه واضح نحوالطبقة العاملة. تماماً كما صورها كتاب الماركسية والحزب فقد كان هناك "بزوغ لمنظمات كبيرة فى عدة دول (ليست أحزاب جماهيرية، وإنما من الكبر بحيث تمثل بدايات جادة) تهدف جميعها إلى بناء الحزب الثوري".

كان المنظور الضمني لكتاب الماركسية والحزب هوأن تلك الاتجاهات سوف تستمر، وأن أحزاباً ثوريـة حقيقية سوف تنمووتتطور، ليس فى بريطانيا وحدها، بل في عدد من البلدان الأخرى. ولكن للأسف، يجب أن نعترف أن هذه الرؤية لم تتحقق. فعموماً قد أصبحت اليوم الحركات العمالية في الدول الرأسمالية المتقدمـة، ومعها قوى الاشتراكية الثورية، بشكل أوبآخر أضعف حالاً من عقد مضى.

---

* "التت" هي رأس السنة الفيتنامية. والمقصود هنا الهجوم المفاجئ في يناير ١٩٦٨ الذي قام به مقاتلوجبهة التحريـر القوميـة (فيتنام الشمالية) ضد القوات الأمريكية وعملائها من قوات حكومة فيتنام الجنوبية، مستهدفين حوالي ١٦٠ مدينة وبلدة فـي الجنوب، وتضمنت الاستيلاء على مقر السفارة الأمريكية في العاصمة سايجون نفسها لفترة قصيرة. وقد كان ذلك الهجـوم نقطة تحول في موازين الحرب وفي كسب تأييد جماهيري عالمي للقضية الفيتنامية. (المترجم).

** أطلق مصطلح "الصيف الساخن" على الفترة التي أعقبت ١٩٦٨ إلى منتصف السبعينيات في إيطاليا، تلك التي شهدت نضال عمالي وطلابي متفجر، واستقطاب عنيف في المجتمع الإيطالي بين اليسار والقوى اليمينية/الفاشية. (المترجم).

وفي بريطانيا تتمثل النقلة في ميزان القوى الطبقية فى المصير المتناقض للإضراب الذين قام بهما عمال المناجم فى ١٩٧٤ و٤-١٩٨٥. حيث كانت الهزيمة فى ١٩٨٥ هي الذروة ونتيجـة سلسـلة طويلـة مـن التراجعات التى أضعفت تلاحم وكفاحية الحركة العمالية.

وتكمن خاف عملية تغير ميزان القوى الحقيقة المتعلقة ببزوغ الأزمة الاقتصادية العالمية، والتـى طـال انتظارها، فى ١٩٧٤، واستمرارها إلى يومنا هذا (مقطوعة بفترات انتعاش قصيرة)، والتي لم ينـتج عنهـا تثوير جموع العمال كما توقع الاشتراكيون الثوريون. فعلى العكس تولد إحساس بالإحباط. فقد فضح الكسـاد الطويل مدى إفلاس الوعي النقابي الإصلاحي الذي تسيد الحركة العمالية، ولكن لم يتزامن ذلك الإفلاس مـع حركة قوية بالشكل الكافى للثوريين، تمكنهم من تمثيل مصدر جذب بديل. ذلك أن العمال الذين كـانوا علـى استعداد للهجوم وتحقيق انتصار بعد انتصار عند اعتقادهم بأن الأحوال المادية ميسورة، (وبعضـهم توصـل لاستنتاجات ثورية خلال تلك العملية)، هؤلاء أصبحوا أكثر حذرا، وتمهلا فى خوض المعارك عندما بـدءوا يستشعرون أن صاحب العمل قد يضار حقاً أوأن "حال البلد لن يتحمل المزيد من الضغوط".

تلك على كل حال تعميمات واسعة، يقابلها بالطبع إستثناءات عديدة واتجاهات مخالفـة. فعلـى الصـعيد العالمى حدثت نضالات عظيمة وانتصارات بارزة مثل حركة التضامن في بولندا، وثورة الساندينيسـتا فـى نيكاراجوا، والإطاحة بالشاه في إيران، وغيرهم. ولكن لسبب أولآخر لم تقدم أي من هذه الأحداث للاشتراكية الثورية نفس الإلهام العالمي الذي قدمته أحداث مايو١٩٦٨، أوالهزيمة الأمريكية فى فيتنام. بل كانت النتيجة، فترة هزيلة لليسار الثوري، استطاعت خلالها المنظمة التي أنتمي إليها (حزب العمال الاشـتراكي) أن تبقـي على نفسها وتحقق القليل من النموفى وقت انكمشت فيه أحزاب ثورية أخرى، أوانهـارت، أوانتقلـت إلـى اليمين.

ولكن على الرغم من هذه النتيجة المعتمة، إلا أنني أعتقد أن الأفكار الأساسية لكتاب الماركسية والحـزب مازالت ذات دلالة فى أوضاعنا الحالية. فالهزائم والتراجعات التي حدثت في العقد الماضي لم تكـن نتيجـة وجود، بل بالأحرى غياب ذلك النوع من الأحزاب الماركسية التي أدعوإليها فى هذا الكتاب. وقد جعلت تلك الهزائم من الأصعب بناء مثل هذه الأحزاب، ولكنها في الوقت نفسه أكدت ضـرورة مواصـلة المحاولـة. بالإضافة إلى ذلك، تظل المحاولة ممكنة، بالنظر لكون الهزائم - رغم أهميتها - تعتبر جزئية أكثـر منهـا شاملة. فالحركة العمالية، أي نعم ضعفت، ولكنها لم تتفكك أوتنسحق كما حدث فى تلك الدول الأوربية التـي خضعت للفاشية بين الحربين العالميتين أوفي الاتحاد السوفيتي تحت حكم ستالين.

وهكذا يستمر وجود صراعات عمالية يمكن للثوريين أن يرتبطوا بها، ويستمر وجود أقلية -متنامية- من العمال لا يرغبون فقط فى القتال وإنما أيضاً يريدون تفسـيرات لاخفاقـات الماضـي ويتطلعـون لأفكـار وإستراتيجيات يمكن أن تقود للنصر فى المستقبل.

إن الحاجة للحزب الثوري مطروحة بوضوح فى بريطانيا بعد التحولات الأخيـرة فـى حـزب العمـال البريطاني. فتدهور اليسار الذي تشكل حول توني بن[Φ] منذ ١٩٨٢ والتحول نحواليمين تحت قيادة نيل كينـوك يمثلان قضايا تواجه كل اشتراكي مخاص في حزب العمال بضرورة القطع مع الإصلاحية. فقد أصـبح الآن واضحاً أن حكومة المستقبل العمالية تحت زعامة كينوك (أوحكومة ائتلافية بين العمال والحزب الاشـتراكي الديمقراطي) ستكون كارثة للطبقة العاملة. بل من الممكن أن تكون أسوأ من إدارة ويلسون - كالاهـان فـي نهاية السبعينات، ما لم تواجه بمقاومة جماعية مكثفة من أسفل. وفى وسط هذه المقاومـة يجـب أن يتواجـد الحزب الماركسي الثوري معطياً إياها التماسك والرؤية.

وكنتيجة لذلك فأنه لوأتيح لي الوقت لإعادة كتابة ومراجعة الماركسية والحزب اليوم (وهوالشيء الـذى لا أفعله)، ستبقى الخطوط الأساسية للأطروحة واستنتاجاتها الرئيسية كما هي. فالحالة تبقى -كما كتبت وقتهـا- أن بناء الأحزاب الثورية وتوحيدها عالمياً هوالآن الواجب الرئيسي والعاجل والإسـتراتيجي الـذي يواجـه الاشتراكيين الثوريين فى جميع أنحاء العالم. وما لم يتحقق هذا، ستبقى الطبقة العاملة غير قادرة علـى حـل أزمة الرأسمالية -التي تزداد حدتها كل يوم- لصالحها.

على كل حال سيكون هناك بالطبع تغييرات معينة فى التفصيلات، أهمها تقييم جرامشي. ما زلت أعتبـر جرامشي ماركسي ثوري عظيم له العديد من الإضاءات الهامة، لكن بالتعرض له اليوم سأقدم مساهمة أقـل حجماً بخصوص تعرضه لنظرية الحزب، وسأفرد مساحة أكبر للدفاع بشدة عن جرامشـي ضـد تفسـيرات "الشيوعية الأوروبية"[Φ] والتفسيرات المشوهة للماركسية الأكاديمية التي تعتبره إصلاحياً ونبي الجبهة الشـعبية و"التحالف الديمقراطي الواسع". هذه النقاط مترابطة، فمن الواضح لي أنه على الرغم من أن جرامشي كـان ثورياً مؤمناً بضرورة الانتفاضة المسلحة، والسوفيتات، وتدمير الدولة الرأسمالية، فأن أغلب صياغاته -عـن "حرب المواقع" التي تحل محل "حرب المناورة"، والعلاقة بين الدولة والمجتمع المدني، والفروق بين روسـيا وأوربا الغربية- كانت غير دقيقة ومشوهة، ومن ثم فتحت الباب للتفسير الإصلاحي، الذي ما كان جرامشـي نفسه إلا ليرفضه. وكما أعتقد، فإن الفصل المكتوب عن جرامشي يجب أن يقرأ جنباً إلى جنب مـع ورقـة كريس هارمان عن جرامشي ضد الإصلاحية (لندن ١٩٨٣) التي تمدنا بالتصحيح اللازم.

[Φ] في مواجهة الهزائم المتوالية أمام مارجريت تاتشر وتحول قادة حزب العمال البريطاني إلى اليمين، نشأ تكتل بـداخل حـزب العمال بقيادة توني بن في بداية الثمانينيات داعياً إلى تدعيم العمل الإصلاحي البرلماني (الركن الأساسي لأيديولوجية حزب العمال) بتأييد الإضرابات العمالية والنضال القاعدي الذي كان يحدث ببريطانيا. (المترجم).

[Φ] استراتيجية تم اتباعها من قِبل الأحزاب الشيوعية الأوروبية، تضمنت التخلي النظري والعملي عن مبـدأ التغييـر الثـوري واعتماد النهج البرلماني بدلاً منه، ومحاولة البعد بقدر الإمكان عن الخط السياسي السوفيتي. واستهدفت تلك الإسـتراتيجية طمأنة الطبقات الحاكمة الأوروبية بـ"عدم خطورة" الشيوعيين للحصول على نصيب من كعكة السلطة. وقد تـم اسـتخدام وتحريف فكر المناضل جرامشي لدعم "الشيوعية الأوروبية" نظرياً. (المترجم).

بالإضافة إلى ذلك، كان على أن أخصص أيضاً مساحة أوسع لمفهوم الحزب والطبقة المتضمن في كتابات تروتسكي الإستراتيجية في الفترة ١٩٢٨ - ١٩٣٧، أوفي قول آخر، انتقاده "للفترة الثالثة" اليسارية المتطرفة الستالينية -التي شقت صفوف الطبقة العاملة في مواجهة هتلر، وما أستتبعها من انتهازية في فتـرة الجبهـة الشعبية.

أثبتت تلك الكتابات مدى ارتباطها ونفعها فى السنوات القريبة الماضية وحتى اليوم. فمن ناحية، شكلت تلك الكتابات الخلفية النظرية الأساسية للنضال ضد صحوة النازية -التي كشفت عن نفسها فـي بريطانيـا فـي النصف الثاني من السبعينيات، والتي لا تزال مستمرة اليوم بفرنسا. ومن ناحية أخرى، تعد تلـك الكتابـات نقطة انطلاق النقد الماركسي للإستراتيجية الحالية لـ "شيوعية الأوروبية"، وللعديد من اليساريين الآخـرين، وإصلاحيين على هامش اليسار. وعلى القارئ الذي يريد الإلمام بهذه المسألة، الرجوع إلى كتـاب دانكـان هالاس ماركسية تروتسكي (لندن ١٩٨٥).

رغم ما سبق، إلا أن هناك شيئاً واحدا لم يتغير خلال العقـد الماضـي، وهوالحاجـة الملحـة لإسـقاط الرأسمالية، إذا كان للإنسانية أن تتقدم، بقيادة الطبقة العاملة، من تحت عتمة السحابة النووية الكثيفـة. فـإذا استطاع هذا الكتاب أن يساهم فى هذه العملية بأي شكل، فهوقد حقق هدفه.

وأقدم شكري الخاص لتوني كليف على انتقاداته واقتراحاته القيمة وعلى عمله كمحرر. ولأنيتـا برومـاي على كتابة أجزاء كبيرة من مخطوط هذا الكتاب على الآلة الكاتبة. ولجيل وسارة وجاك لأنهم صبروا علـى كثير من العطلات الضائعة.

جون مولينو

الفصل الأول

كارل ماركس الطبقة والحزب

١- الأساس الطبقي:

إن أساس جميع الاتجاهات الماركسية فى تحليل الأحزاب السياسية هونظرية ماركس فى الصراع الطبقي. وتفسير الماركسيين لوجود أحزاب سياسية مختلفة ومتنافسة يكمن أساساً في البنيـة الاقتصـادية للمجتمـع، فتظهر الأحزاب السياسية إلى حيز الوجود وتجتذب الدعم وتواصل وظيفتها المبدئية كممثلة لمصالح طبقية.

ومن الطبيعي أن تصبح هذه الفكرة -شأنها شأن أي مبدأ ماركسي- بلا معنى لوتم فهمها بطريقـة فجـة أوعقيمة. إن الأطروحة القائلة بأن الأحزاب السياسية تمثل مصالح طبقية لا تعنى أنها تفعل ذلـك ضـرورياً بطريقة مباشرة. إنها لا تعنى أنه فى جميع الحالات يمثل الحزب الواحد مصالح طبقة واحدة، أوأن مصـالح طبقة ما -بالمعنى التاريخي- يمكن قصرها على الكسب الاقتصادي المباشر، أوأن كل ممارسات كل حـزب يمكن تفسيرها بالرجوع إلى الطبقة التي يقوم عليها الحزب فقط. في الواقع لقد قدم التاريخ عدداً كبيـراً مـن الأمثلة لكل نوع من الارتباط الطبقي-الحزبي منها أحزاب بدأت بتمثيل مصالح طبقة معينة ولكن ينتهي بهـا الأمر بتمثيل مصالح طبقة أخرى، ومنها أحزاب تحاول خدمة مصالح طبقتين أوحتى ثلاث طبقات فى نفـس الوقت، ومنها أحزاب تخدم قطاع من طبقة فى مواجهة مصالح الطبقة ككل. ومنها أمثلـة لحـزبين أوثلاثـة صغار يتنافسون على أن يصبحوا الممثل الأوحد لنفس الطبقة. وهكذا...

فعلي سبيل المثال، لدينا اليوم ببريطانيا ٣ أحزاب رئيسية:

حزب المحافظين، وهوأساساً حزب كبار الرأسماليين، ولكن يصوت له العديد من العمال، ويلقـى تأييـد قطاعات كبيرة من البرجوازية الصغيرة... حزب العمال ذوالقاعدة الممتدة في منظمات الطبقة العاملة ويعتمد بالأساس على أصوات العمال الانتخابية، ولكن قيادته تنتمي للطبقة الوسطى ومتقبلـة لاسـتمرارية النظـام الرأسمالي، وهكذا تضطر في أحيان كثيرة إلى التحرك ضد مصالح قاعدتها العمالية... الحـزب الليبرالـي، وهوبالأساس حزب برجوازي صغير يؤيده قلة من كبار الرأسماليين، ويكسب بعض الأصوات الانتخابية من صفوف الطبقة العاملة.

وليس هنالك من هذه الأمثلة ما يفند الأطروحة الماركسية، ولكنها تؤكدها. كل ما يجب التأكيد عليه هوأن نقطة البدء الرئيسية فى تحليل الأحزاب السياسية -والسياسة بشكل عام- يجب أن تكون التركيـب الطبقـي للمجتمع المعني. إن تلك التشكيلات والتوليفات التي أشرنا إليها تنبع من حقيقة أن الطبقات لا تقف إلى جانب بعضها البعض ولكن الواحدة فوق الأخرى فى حالة من الصراع الحركي الدائم، والأحزاب السياسية تلعـب دوراً رئيسياً فى ذلك الصراع. إن تركيبة معينة من الأحزاب السياسية تعكس مرحلة التطور النسـبي الـذي وصلت إليه مختلف الطبقات ومدى الهيمنة التي وصلت إليها طبقة ما على الطبقات الأخرى. من هنـا فإنـه عند التعامل مع النظريات الماركسية للحزب -وهذا محل اهتمام ماركس قبل كل شـئ- لا يكـون الاهتمـام بنظرية محدودة ومنفصلة للتنظيم ولكن يكون دائماً بالعلاقة ما بين الحزب والطبقة. إن الأحزاب هي لحظات في تطور الطبقات.

أراد ماركس أن يظهر القوى المحركة للتاريخ لكي يسهل صنع التاريخ. وهكذا لم تكن الطبقات ببساطة عبارة عن أشكال ساكنة بالنسبة لماركس، ولكنها جماعات اجتماعية تظهر إلى حيز الوجود عبر عمليات تاريخية وتمر بمراحل مختلفة من النمووالنضج. وقبل كل شئ تُعرف الطبقات نفسها عبر الصراع. فـ"يشكل الأفراد طبقة فقط للدرجة التي يكونون فيها منخرطين في صراع مشترك ضد طبقة أخرى".١ وفى سياق الصراع تكتسب الطبقات (أوتفقد) التماسك والتنظيم والثقة والوعي، فالأحزاب السياسية إذن هي أسلحة في الصراع بين الطبقات.

في تحليل ماركس للرأسمالية "ينقسم المجتمع ككل بشكل مطرد إلى معسكرين كبيرين متنازعين، إلى طبقتين كبيرتين تواجهان بعضهما بشكل مباشر: البرجوازية والبروليتاريا".٢ لم يكن ذلك إيماناً من ماركس بأن فئتي البرجوازية والبروليتاريا تشمل جميع من فى المجتمع الرأسمالي -وكان هذا سيكون غريباً إن أكد مثل هذه الحقيقة فى عام ١٨٤٧. ما كان يطرحه هوأن الصراع بين البرجوازية والبروليتاريا متأصل وأساسي في النظام الرأسمالي. ففي الرأسمالية يتم الإنتاج على أساس استغلال الأجر والعمل. لهذا يكمن فى صميم الاقتصاد الرأسمالي تعارض دائم للمصالح، وهذا التعارض الأساسي يشكل كل مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية، فكما يصفها ماركس في رأس المال:

أنها دائماً العلاقة المباشرة بين ملاك أدوات الإنتاج والمنتجين المباشرين... تلك التي نجد فيها السر النهائي، والأساس الخفي للبناء الكامل للمجتمع، وهذا يشمل الأنماط السياسية للسيادة والتبعية، وباختصار الشكل المعطى المحدد للحكومات. ٣

في التحليل الأخير تكون فاعلية الطبقات أوالشرائح الاجتماعية الأخرى محصورة في إطار البدائل التي تحددها الطبقتان الرئيسيتان. في النهاية لا يكون بوسعهم إلا أن يقفوا في صف إحدى هاتين الطبقتين. وكنتيجة لذلك، ومن وجهة النظر الماركسية، لا يكون المعيار الأساسي في تقييم الأحزاب السياسية ببساطة على أي طبقة تقوم، ولكن على موقعها من الصراع الطبقي بين البرجوازية والطبقة العاملة.

ولكن عندما يتحدث المرء عن نظرية ماركس فى الحزب لا يكون الموضوع عن الأحزاب السياسية بشكل عام، ولكن عن الحزب الثوري الذي يهدف للإطاحة بالرأسمالية وبالتحديد يتحدث المرء عن مفهوم ماركس للحزب السياسي البروليتاري، ففي رأيه "أن البروليتاريا وحدها هي الطبقة الثورية الحقيقية... الطبقات الأخرى تتآكل وتختفي في النهاية أمام الصناعة الحديثة؛ في حين أن البروليتاريا هي النتاج الخاص والجوهري لهذه الصناعة".٤ فالتوسع الرأسمالي يقوض التاجر الصغير والحرفي والمزارع الصغير والفلاح، ولكنه يزيد من حجم البروليتاريا. و"بنفس المقدار الذي تتطور به البرجوازية –أي رأس المال- تتطور البروليتاريا أوالطبقة العاملة الحديثة".٥ فكلما توسع الإنتاج كلما تجمع العمال في وحدات أكبر وأكبر. "مع تطور الصناعة لا تزيد البروليتاريا في العدد فقط ولكن تصبح مركزة في تجمعات أكبر وتزداد قوتها ويزداد شعور البروليتاريين بهذه القوة". تقف البروليتاريا إذاً في قلب البنية الاقتصادية، وهي من ناحية الإمكانية أقوى طبقة مستغَلة في التاريخ. وهذه القوة تعطى العمال القدرة على تحرير أنفسهم، وهذه القدرة تمثل عنصرا حيوياً فى نظرية ماركس للثورة. ٦

والعنصر الثاني المساوي في الأهمية للعنصر الأول فى تقييم ماركس للطبقة العاملة هوأنها أول طبقـة لا يكون نتيجة انتصارها شكلاً جديداً من المجتمعات الطبقية ولكن إلغاء كل الطبقات. وهذا الرأي يقـوم علـى الطبيعة الجماعية بالضرورة للنضال العمالي. فلا يستطيع العامل الفرد سؤال مستخدمه زيـادة أجـره بـأي فرصة للنجاح فى تحقيق هدفه، ولهذا يكون مرغما على الاتحاد مع زملائه. فالعامل لا يملك أياً من وسـائل الإنتاج ولا يستطيع ذلك كفرد لأن الصناعة الحديثة لا يمكن تقسيمها وتجزئتها إلى ملايين الأجـزاء. ولكـي تستولي الطبقة العاملة على وسائل الإنتاج يجب أن تفعل ذلك بصورة جماعية وذلـك مـن خـلال الملكيـة الاجتماعية. إن تصميم ماركس على الطبقة العاملة كالطبقة الثورية الوحيدة (وأسبابه فى ذلك) يمكن تلخيصه من خلال موقفه من المرشح الآخر الأكثر وضوحاً لهذا اللقب وهم الفلاحون. فى الوقت الـذى عـاش فيـه ماركس شكل الفلاحون أغلبية ضخمة حتى فى معظم دول أوروبا وكانوا على الأقل فى نفس الفقر والبـؤس كالبروليتاريا. بالإضافة إلى ذلك كان هناك تراث طويل من هبات فلاحية عنيفة ولكن مـاركس لـم يضـع اعتبارا لكل هذا بسبب الطبيعة الفردية والتجزيئية للطريقة الفلاحية فى الحياة:

يشكل الفلاحون من صغار الملاك جمهورا ضخماً يعيش أعضاؤه فى ظروف متشابهة ولكن دون الدخول فى علاقات متشعبة مع بعضهم البعض. أن نمط إنتاجهم يعزلهم عن بعض بدلاً مـن إدخـالهم فـي تفاعـل متبادل.

...وبهذه الطريقة يتشكل الجزء الأعظم من جماهير الأمة الفرنسية من خلال الإضافة البسـيطة لكميـات متشابهة، كما تتشكل البطاطس في كيس؛ كيساً من البطاطس. تتشكل الملايين من العـائلات طبقـة بحسـب الدرجة التي يعيشون فيها تحت ظروف اقتصادية تميز نمط حياتهم ومصـالحهم وثقـافتهم عـن الطبقـات الأخرى، وتضعهم في مواجهة عدائية مع هذه الطبقات.

ولا يشكل هؤلاء الفلاحين الصغار طبقة طالما علاقاتهم المتبادلة تتواجد فقط علـى المسـتوى المحلـي، وطالما لا تخلق طبيعةُ مصالحهم مجتمعاً أورابطةً قوميةً أوتنظيماً سياسياً. إنهم عديموالقـدرة علـى فـرض مصالحهم الطبقية بأنفسهم، سواء عن طريق البرلمان أومؤتمر. لا يستطيعون تمثيل أنفسهم، ويجب أن يقـوم أحد آخر بتمثيلهم. ٧

إن قدرة الطبقة العاملة –على عكس الفلاحين- على تمثيل نفسها وبالتالي تحرير نفسها هوأمر جوهري بالنسبة لوضعها كطبقة ثورية ولقدرتها على خلق الحزب الثوري. وعلى أية حال لا يجب أن يخلط المرء إمكانية أن تقوم الطبقة العاملة بخلق حزبها الثوري بالواقع الملموس. فقد كان ماركس على دراية بالفجوة التي بين البروليتاريـا كطبقة "في ذاتها" وبين البروليتاريا كطبقة "لذاتها"٨، والطريق الطويل من النضال الذى يفصل بينهما. ولم يفـت على ماركس أن يرى التأثير السلبي لمجتمع البرجوازية التنافسي على تنظيم ووحدة الطبقة العاملة:

تفصل المنافسة الأفراد عن بعضهم البعض، ليس فقط البرجوازيون ولكن العمال أيضاً على الرغم من أنها تجمعهم سوياً. من هنا فأنه سوف يمر وقت طويل قبل أن يتحدد هؤلاء الأفراد... لذا فأن التغلب على جميـع القوى المنظمة الواقفة فى مواجهة هؤلاء الأفراد المعزولين الذين يعيشون فى ظـروف تجعلهـم يعيشـون علاقات تعيد إنتاج عزلتهم يومياً يحتاج إلى صراع طويل. ٩

وكان مدركاً أيضاً لقوة الأيديولوجية البرجوازية :

أن الطبقة التي تتحكم في وسائل الإنتاج المادية تسيطر فى نفس الوقت على وسائل الإنتاج الذهنية. ومن هذا المنطلق، وبشكل عام، نجد أن أفكار هؤلاء الذين يفتقرون إلى وسائل الإنتاج الذهنية تخضع لهذه الطبقة.١٠

لهذا كان تشكيل الحزب السياسي العمالي ضرورياً لمحاربة النزعة القوية نحوالتفتت ولتحقيق استقلال البروليتاريا كطبقة. وفى الواقع كثيراً ما أكد ماركس أن العمال لا يمكن أن يعدوا طبقة بالمعنى الحقيقي للكلمة حتى يخلقوا حزبهم الخاص المتميز. من ذلك نجد فى البيان الشيوعي أن "تنظيم العمال في طبقة وبالتالي في حزب سياسي يتم تعطيله بشكل دائم وذلك بسبب المنافسة بين العمال أنفسهم"١١، وكذلك في قرار مؤتمر لندن للأممية الأولى عام ١٨٧١ أن "البروليتاريا تستطيع أن تتصرف كطبقة فقط عن طريق تشكيلها لحزبها السياسي المستقل".١٢

وهذه الفكرة ظلت مركزية للنظرية والممارسة عند ماركس وإنجلز منذ منتصف أربعينات القرن الماضي وحتى نهاية حياتهما.

٢- الشيوعيون والبروليتاريون:

وهذا ينقلنا إلى المشكلة الأساسية فى النظرية الماركسية للحزب، حيث يؤمن الماركسيون بأن الصراع الطبقي هومحرك التاريخ وأن "تحرير الطبقة العاملة يجب أن ينتزع بواسطة الطبقة العاملة نفسها"١٣، وفى نفس الوقت فأنهم يرغبون فى خلق حزب سياسي يمثل المصالح التاريخية للطبقة ككل. إذاً ماذا ستكون العلاقة بين هذا الحزب وجماهير الطبقة العاملة. تطرق ماركس بنفسه إلى هذه المشكلة فى جزء من البيان الشيوعي عنوانه "البروليتاريون والشيوعيون":

ما هي علاقة الشيوعيين بالبروليتاريا ككل؟ الشيوعيون لا يشكلون حزباً منفصلاً في مواجهة الأحزاب العمالية الأخرى. وليس لديهم مصالح منفصلة ومستقلة عن البروليتاريا ككل. وهم لا يطرحون مبادئ حلقية خاصة بهم يشكلوا ويقولبوا من خلالها الحركة البروليتارية. يتميز الشيوعيون عن الأحزاب العمالية الأخرى فقط بالآتي:

١- في النضالات المحلية للبروليتاريا في مختلف الدول يوضح الشيوعيون المصالح المشتركة للبروليتاريا ككل بشكل مستقل عن كل القوميات.

٢- في المراحل المختلفة التي يمر بها بالضرورة نضال الطبقة العاملة ضد البرجوازية يمثل الشيوعيون دائماً وفي كل مكان مصالح الحركة ككل.

يشكل الشيوعيون بالتالي ومن الناحية العملية القطاع الأكثر تقدماً وتصميماً من أحزاب الطبقة العاملة في كل بلد. ذلك القطاع الذي يدفع إلى الأمام كل القطاعات الأخرى.

أما من الناحية النظرية فلديهم ميزة عن الجمهور العريض للبروليتاريا وهي الفهم الواضح لخـط السـير والظروف والنتائج العامة المنتظرة للحركة البروليتارية. ١٤

تلك الفقرات المكثفة والفذة تحوى بذرة حل مشكلة علاقة الحزب بالطبقة، كما تحوي سلسلة من الخطـوط العريضة التي شكلت ممارسات الحركة الماركسية إلى يومنا هذا. بدايةً، استبعدت الفقرات النظرة التآمريـة لدور الحزب كفرقة صغيرة من المغامرين تتصرف بالنيابة -وبشكل منفصل- عن الطبقة. كمـا اسـتبعدت أيضاً الاتجاه السلطوي الذي يطرح أن الحزب يصدر الأوامر من أعلى وعلى الجمـاهير السـلبية الطاعـة، وكذلك الاتجاه الدعائي الصِرف؛ للعصبة التي تبشر بتعاليمها حتى تكسب بقية العالم.

ترسخ الفقرات السابقة أيضاً مبدأ القيادة التي تُكتَسب على أساس الأداء فى الصراع الطبقي فـي خدمـة الطبقة العاملة، وكذلك مبدأ رفع الأهداف الكلية للحركة العمالية داخل النضالات الاقتصادية والسياسية اليومية للعمال. ويفهم من طيات هذه السطور بذور الإستراتيجية الماركسية في الجبهة المتحدة١٥ وسياسة العمل من خلال النقابات العمالية مع إدراك حدود النقابوية. وكذلك الدفاع عن الحقوق الديمقراطية أثناء النضال من أجل تجاوز الديمقراطية البرجوازية.

ومع ذلك فإن صيغة ماركس تتضمن حدوداً وثغرات، فهي مكتوبة على مستوى عال من التعمـيم ولـيس فيها ما يتعامل بشكل خاص مع الشكل التنظيمي الذي يجب أن يتبناه الشيوعيون. وهى فى الواقع لا تحـوى إشارة صريحة لمعنى الحزب.

عدم الدقة هذه أدت إلى الافتراض الوحيد في الفقرة الذي أثبتت الأحـداث اللاحقـة بطلانـه بوضـوح، وهوبالتحديد أن "الشيوعيين لا يشكلون حزباً منفصلاً معارضاً لباقي أحزاب الطبقة العاملة". وهذا له معنـى كمبدأ عام فقط إذا أخذ على أنه مطابق فى المعنى للمقولة بـ"أنهم ليس لديهم مصالح منفصلة ومختلفة عـن مصالح الطبقة العاملة ككل".

وعدم الدقة هذه في استخدام كلمة "الحزب" ليست مقتصرة على البيان الشيوعي. ففـي أعمالـه يسـتخدم ماركس مصطلح الحزب بمعان متعددة (يعرف مونتى جونستون على الأقل خمـس "نمـاذج" أساسـية١٦) للإشارة إلى ظواهر مختلفة عديدة مثل حركة الشارتيين العريضة والفضفاضة، وللإشارة أيضاً إلى مجموعته الصغيرة من الرفاق والأتباع، وكذلك إلى القضية الثورية العامة. وهكذا يكتب ماركس لجريدة "فريلجـراث" شارحاً أن "العصبة (الشيوعية)، مثلها مثل جمعية المواسم في باريس، ومثل مئات الجمعيات الأخرى، كانت فقط حلقة في تاريخ الحزب الذي ينموتلقائياً في كل مكان من تربة المجتمـع الحـديث..... تحـت مفهـوم ‘الحزب’، أفهم الحزب بالمعنى التاريخي العظيم للكلمة"١٧، وكما كتب لـكوجلمان: "إن كوميونـة بـاريس كانت أعظم عمل قام به حزبنا منذ انتفاضة يونيوفي باريس (١٨٤٨)" ١٨.

بسبب غموض ماركس فى هذه النقطة فإنه من الصعب بناء أوإعادة بناء أي نظرية واحدة للحـزب مـن الاقتباسات المأخوذة خارج سياقها. والإجراء الوحيد الممكن هوفحص التطـور الحقيقـي لنشـاط مـاركس السياسي وتفسير تعليقاته على مسألة الحزب فى سياقها التاريخي. ١٩ في هذا السياق هناك حقيقـة أساسـية يجب الانتباه إليها وهي أن عدم وجود تعريف محدد وواضح للحزب السياسي لم يكن محض صدفة ولا نتاج كسل فكري، ولكن ذلك يعكس حقيقة أنه خلال فترة طويلة من حياة ماركس لم تكن الأحزاب السياسة بمعناها الحديث قد وجِدت بعد سواء للبرجوازية أوللبروليتاريا. إن الحزب الجماهيري الحـديث بتعريفـه الواضـح للعضوية وتنظيمه ودستوره هوظاهرة حديث، ظهرت إلى حيز الوجود أساساً لكي تواجه تحدي الاقتراع العام والديمقراطية البرجوازية كاملة التطور، وافترضت مسبقاً وجود شبكة اتصالات فعالـة وإعـلام جمـاهيري وانتشار التعليم. أما قبل ذلك فالحزب السياسي الحديث لم يكن مطلوباً من قِبل النظام السياسي البدائي نسـبياً. فكل ما كان ضرورياً هوإما جمعيات فضفاضة وغير رسمية قائمة على شبكة من الوجهاء المحليين (عادةً من ملاك الأراضي)، أوتجمعات صغيرة فى نوادي وصالونات المثقفين ذوي النفوذ. من غيـر المعقـول إذاً أن ننتظر من ماركس مفاهيماً تسبق تجربة زمانه. وهذا كلام صحيح خصوصاً لأنه من الأصعب علينا أن نرى المستقبل فى مجال الأشكال الملموسة للتنظيم من أن نراه فى مجال التطور الاقتصادي والاجتماعي العام.

ولرسم الخطوط العريضة لتطور مفهوم ماركس للحزب يمكن تقسيم حياته السياسية إلى أربعـة فتـرات أساسية: ١) من ١٨٤٧ - ١٨٥٠ وهي فترة العصبة الشيوعية؛ ٢) من ١٨٥٠ – ١٨٦٤ وهي فترة الهـدوء الطويلة في الصراع الطبقي؛ ٣) من ١٨٦٤ – ١٨٧٢ الاتحاد الأممي للعمال؛ ٤) من ١٨٧٣ وصاعداً وهي فترة بدايات الاشتراكية الديمقراطية الجماهيرية.

٣- العصبة الشيوعية:

بحلول عام ١٨٤٦ أسس ماركس وإنجلز لجان المراسلة الشيوعية، وكان مركزها بروكسل، وبعلاقات في بريطانيا وفرنسا وألمانيا. ومن خلال هذه اللجان تم الاتصال بـعصبة العدالة وهي جمعيـة أمميـة سـرية تكونت أساساً من الحرفيين الألمان. ومع حلول ١٨٤٧ تم كسب قيادات العصبة ودعِـي مـاركس وإنجلـز للانضمام فوافقا على شرط أن يتم التخلي عن الأشكال التآمرية القديمة للتنظيم. وقد غيرت بعد ذلك عصـبة العدالة اسمها إلى العصبة الشيوعية، وأقامت مؤتمر إعادة تنظيم بمشاركة ماركس وإنجلز. كانت أهم النقـاط التي نوقشت بالمؤتمر هي تحقيق بنية تنظيمية "ديمقراطية شاملة... بهيئات منتخبة وقابلة للتغيير" والنضـال ضد "كل التواقين إلى التآمرية".٢٠

وقد حارب ماركس وانجلز من أجل التحول نحوالدعاية المفتوحة للأفكار الشيوعية داخل الطبقة العاملـة. لذلك نرى أنه بحلول عام ١٨٤٧ تجمع عدد من الأفكار الأساسية للنظرية الماركسية للحـزب. أولا حاجـة البروليتاريا فى أي مكان إلى تنظيم أممي، وثانياً الربط بين الصراع الطبقي والتحرر الذاتي للطبقة العاملـة، والحاجة إلى تنظيم ديمقراطي يعرض أهدافه بشكل واضح.

أطلقت العصبة على نفسها تسمية منظمة دولية وأحياناً أخرى "الحزب الشيوعي الألماني"، ولكنها في الواقع كانت أضعف من أن تكون نواة للأممية الأولى أوحزباً قومياً قوياً. ولكنها كانت بأعضائها الـ ٢٠٠ أوالـ ٢١٣٠٠ المنتشرين في بلاد عدة لا تعدوأن تكون نواة لحزب. في البداية كانت الإستراتيجية المتبعة من قِبل الشيوعيين هي العمل بقدر الإمكان داخل الحركات الموجودة في البلدان المختلفة. فهكذا في بريطانيا عمل أرنست جونز من خلال الشارتيين[Φ]، وفى فرنسا انضم أعضاء العصبة إلى الاشتراكيين الديموقراطيين التابعين لليدرورولين ولويس بلانك. وسرعان ما ظهر ضعف العصبة حينما غمرت في أحداث أوربا عام ١٨٤٨. وكما كتب إنجلز "إن البضعة مئات الذين شكلوا أعضاء العصبة اختفوا في الخضم الجماهيري الذي اشترك في الحركة".٢٢ وليس معنى هذا أن أعضاء العصبة لم يكن بيدهم شئ يقدمونه. بل على العكس فقد لعبوا كأفراد دوراً هاماً فى تطوير الثورة. وكما وضعها ستيفن بورن لـماركس "إن العصبة لم تعد موجودة ولكن على الرغم من ذلك فهي موجودة في كل مكان".٢٣

إن عدم وجود تنظيم فعال كقاعدة وصغر حجم الطبقة العاملة وعدم نضجها السياسي مع وجود حالة شديدة الثورية... دفع كل هذا أدى ماركس إلى الابتعاد من مخططاته المرسومة فى البيان الشيوعي. فبدلا من ظهوره كمؤيد ومحرض للثورة العمالية، وكممثل لحزب طبقة عاملة مستقل اضطر ماركس إلى العمل بأقصى يسار الديمقراطية الراديكالية من خلال جريدة نيورالينيش زيتونج، والعمل على دفع الثورة البرجوازية إلى النقطة التي تتفجر فيها التناقضات تحت أقدامها.

كان ماركس واعياً للمشاكل المتضمنة فى موقفه، وفى عام ١٨٤٩ عندما أعربت البرجوازية الراديكالية الألمانية عن عدم مقدرتها على القيام بثورة، استقال هووزملاؤه وولف وشابر وبيكر من لجنة منطقة راينلاند التابعة للاتحاد الديمقراطي. وقد كتبوا "فى رأينا أن شكل التنظيم الحالي للاتحادات الديمقراطية يحوى الكثير من العاصر غير المتجانسة إلى الدرجة التي يستحيل معها عمل نشاط يعيد تطوير أهدافها. وفى رأينا أن تشكيلات أضيق مكونة من منظمات عمالية ستكون أكثر فائدة لأن تلك المنظمات تتكون من عناصر أكثر تجانساً".٢٤ وبدءاً من هذه النقطة، أصبح النضال من أجل تكوين المنظمة السياسية المستقلة للطبقة العاملة أساسياً للنظرية والممارسة الماركسية.

وقد منع الانهيار السريع للثورة الألمانية تحقيق هذا التوجه بصورة عملية وفورية. ولكن في خريف ١٨٤٩ أعاد ماركس -من منفاه في لندن- تشكيل اللجنة المركزية للعصبة الشيوعية. وبدأ إعادة تنظيمها بألمانيا مضطراً في هذه المرة كحزب سري مركزي. في مارس ١٨٥٠ وفى بيان اللجنة المركزية للعصبة الشيوعية (المعروف باسم بيان مارس) جمع ماركس خبرة هذه الفترة والدروس التنظيمية المستقاة منها :

[Φ] الحركة الشارتية (أوالميثاقية) ببريطانيا تعد من أولى الحركات العمالية الجماهيرية في العالم، ذات مطالب نقابية ومطالب أخرى تتعلق بالتمثيل السياسي. (المترجم).

وفي نفس الوقت كان التنظيم الصارم للعصبة متراخيا بشكل ملحوظ، وقد ظن جزء كبير مـن الأعضـاء الذين شاركوا فى الحركة الثورية أن وقت الجمعيات السرية قد مات وأن النشاطات العامة العلنيـة وحـدها فعالة. وقد سمحت الحلقات الفردية والجمعيات لاتصالاتها باللجنة المركزية بالتراخي وتدريجياً انقطعت نتيجة لذلك. وبينما كان الحزب الديمقراطي -حزب البرجوازية الصغيرة- ينظم نفسه أكثر فأكثر فى ألمانيـا؛ فَقَـد حزب العمال موطئ قدمه الوحيد وبقى منظماً في الأغاب في بلديات متفرقة بأهداف محلية، ولهذا في الحركة العامة وقع تحت سيطرة وقيادة الديمقراطيين البرجوازيين الصغار بالكامل. يجب أن توضـع نهايـة لهـذا الوضع المتردي، ويجب إعادة استقلالية العمال...

إن إعادة التنظيم ممكنة فقط عن طريق مبعوث، وتؤكد اللجنة المركزية على أهمية أن يرحل هذا المبعوث فى الحال، فى وقت تكون فيه ثورة جديدة على الأبواب، فى وقت يجب أن يعمل فيه الحزب العمالي بـأكثر الوسائل تنظيماً، وأكثر الطرق الممكنة استقلالية، لوأراد ألا يستَغَل من قِبل البرجوازية مرة ثانية كما حـدث فى ١٨٤٨. ٢٥

في بيان مارس يسجل ماركس أقصى نقطة اقتراب من مفهوم لينين للحزب الطليعي (علـى الـرغم مـن وجود اختلافات كبيرة بالطبع). ومفتاح هذه الأطروحات التنظيمية هوأنها نتاج أكبر انخراط مباشر لمـاركس في العمل السياسي الثوري وأنها صممت كدليل للعمل في موقف يفترض فيه أن "ثورة جديدة على الأبواب". إن الخطة الموضوعة لتشديد تنظيم العصبة وتقوية استقلالها لا تشكل بنفسها جهازاً تنظيمياً منعزلاً، ولكنهـا جزء مكمل في منظور العمل الثوري الحيوي الذي تقوم بمقتضاه الطبقة العاملة بتقلـد القيـادة فـي الثـورة الديمقراطية لدفعها في اتجاه اشتراكي.

جنباً إلى جنب مع الحكومات الرسمية الجديدة التي عليهم أن يؤسسوا بالتوازي حكوماتهم العمالية، سـواء كان ذلك على هيئة لجان محلية أومجالس محلية أوعلى هيئة نوادي عماليـة أولجـان عماليـة... الأسـلحة والذخيرة لا يجب تسليمها مهما كانت الظروف، وأي محاولة نزع سلاح يجب أن تجابه ولوبـالقوة إن لـزم الأمر. تدمير تأثير البرجوازيين الديمقراطيين على العمال، منظمة عمالية مستقلة مسلحة فوراً، فرض أصعب شروط ممكنة على حكم الديمقراطية البرجوازية المؤقت بطبيعته- هذه هي النقاط التـي يجـب أن تضـعها البروليتاريا ومن ثم العصبة نصب أعينها خلال وبعد الانتفاضة الوشيكة. ٢٦

لذا فإن وجه التشابه بين مفهوم ماركس للحزب فى هذه النقطة ومفهوم لينين بعد خمسين عاماً أوأكثر ينبع من تشابه ظروفهم. وليس من قبيل الصدفة أن يشتق تروتسكي نظريته في "الثورة الدائمة" من بيان مـارس. وليس من قبيل الصدفة أيضاً أن كثيراً ما كان لينين يستشهد بكتابات ماركس وإنجلز في هذه الفترة من أجـل تقديم الدعم النظري لتكتيكات البلاشفة في الثورتين الروسيتين.

لكن ماركس لم يؤله أبداً أي شكل تنظيمي على وجه التحديد أوأي حزب بعينه. وكما تغيـرت الظـروف تغير مسلكه. في صيف ١٨٥٠ عندما أصبح واضحاً أن المنظور الذى ترتكز عليه الخطط التنظيميـة فـى البيان كان خاطئاً وأنه لن يكون هناك اندلاع مبكر للثورة تخلى ماركس عن هذه المقترحات بسـرعة. وأدى هذا بشكل حتمي إلى انشقاق فى اللجنة المركزية بين الذين اعترفوا بانحسار الموجة الثوريـة وبـين الـذين رفضوا مواجهة الحقيقة. وأراد الفريق الثاني بقيادة ويليس وشابر أن يعجل من الثورة فمارس مختلف أشكال الخطط المغامرة: مثل وضع خطة غزومسلح لألمانيا.

وقد وضع هذا الانشقاق نهاية العصبة الشيوعية كمنظمة فاعلة. وعلى الرغم من قيام محاولـة لإنقاذهـا، وذلك بنقل اللجنة المركزية إلى كولون، سرعان ما استقال ماركس وبعد ذلك بفترة قصيرة تم حـل العصـبة نفسها.

٤- سنين التراجع:

عند هذه النقطة بدأ ماركس فترة من حياته مكرسة بأكملها تقريباً لأبحاثه الاقتصادية علاوة علـى سـعيه لكسب عيشه. وقد لخص نظرته للأعوام القادمة فى آخر عدد من نيورلاينيش ريفيوفى نوفمبر ١٨٥٠:

بالنظر إلى الازدهار العام المنتشر حالياً، والذي يسمح لقوى إنتاج المجتمع البرجوازي بالتطور بقدر مـا يمكن أن يسمح لها إطار المجتمع البرجوازي، فإنه لا يمكن الحديث عن ثورة حقيقية. إن ثورة جديدة ستصبح فى طور الإمكان فقط كنتيجة لأزمة جديدة. لكن قدومها حتمي كحتمية قدوم الأزمات نفسها. ٢٧

كانت أوساط المهاجرين دائماً ذات سمعة سيئة بالشجارات التافهة والفضائح والصراعات المدمرة. لـذلك كان من الضروري لصحة ماركس النفسية ونجاح أعماله النظرية أن ينسحب مـن هـذا الوسـط المـؤذى. واستقبل ماركس وإنجلز هذه الراحة من تلك المعارك الحزبية بارتياح شديد. وكتب ماركس إلى إنجلز "إننـي مسرور جداً بعزلتنا التامة والمعلنة والتي نجد أنفسنا فيها الآن نحن الاثنين. إنها تتفـق تمامـاً مـع مبادئنـا وموقفنا".٢٨ ورد إنجلز "أخيراً أخذنا -لأول مرة منذ فترة طويلة- فرصة لنثبت أننا لسنا فى حاجة إلى تأييد أي حزب كان من أي بلد كانت، وأن موقفنا مستقل بالكامل عن مثل هذه القمامة".٢٩ ويحذر فرانز مهـرنج من أن تؤخذ هذه الملاحظات الخاصة على محمل الجد. ٣٠ ولكن بعض المعلقين من أمثال برترام د. وولف وشلوموافنيرى رأوا أن يقدموها كآراء ماركس "الحقيقية" في الحزب. لكن هذه المحاولة تنزع هذه التعبيرات الجافة بعيداً عن السياق التاريخي العام الذي كُتِبت فيه وملابساتها الخاصة (أي عن الخطابات الخاصة بـين الأصدقاء المقربين)، ٣٣ وتضعها في مواجهة نصوص لها وزنها واعتبارها الأكبر ومكتوبة بغرض النشر. عند أخذ هذه التعليقات -وتعليقات أخرى لماركس وإنجلز- حرفياً، يمكن أن تؤخذ على أنها تعارض العمـل السياسي بأكمله وهوالشيء السخيف للغاية. فحتى أيام الخمسينات والستينات عندما كان ماركس منهمكاً حتى النخاع في كتاب "رأس المال" لم ينسحب من الحياة السياسية بالكامل مطلقاً. كان يواصل إسهاماته فى الجرائد الشارتية ويراقب إرنست جونز الذي قال عنه (ماركس) في ١٨٥٧ بأنه يجب أن "يؤسس حزباً يمتـد إلـى المناطق والأحياء العمالية".٣٤

لكن ماذا كانت العوامل الرئيسية فى غياب ماركس ١٢ عاماً عن أي حزب سياسي؟

أولاً، وكما أسلفنا، بسبب رأيه في أن المجتمع البرجوازي قد دخل في مرحلة طويلة من الاستقرار والتوسع. ثانياً، كانت هناك الأهمية العظيمة التي أولاها ماركس لأعماله النظرية. وعندما جاءه مهاجر ألماني في نيويورك يريد إحياء العصبة الشيوعية قال ماركس :"[أنا] مقتنع تماماً بأن عملي النظري له فائدة أكبر للطبقة العاملة من المشاركة فى تنظيماً عفي عليه الزمن".٣٥ ثالثاً، كانت هناك فجوة كبيرة فرقت مفهوم ماركس عن الحركة الثورية عن المفهوم الذى كان يؤمن به غالبية الثوريين فى ذلك الوقت.

بما أن القوى المحركة للتاريخ عند ماركس كانت الصراع الطبقي وكان هدفه هوالتحرر الذاتي للطبقة العاملة، فأن وظيفة الحزب هي قيادة وخدمة البروليتاريا، وليس "وضع مبادئ عصبوية تخصه ليستطيع من خلالها تشكيل الحركة العمالية". ولكن الحركة الثورية فى منتصف القرن التاسع عشر كانت تحت سيطرة مفاهيم وتراث مختلفين تماماً. كانت الاتجاهات الشائعة في ذلك الوقت إما بقايا التراث اليعقوبيϕ التآمري الذي انبثق عن الثورة الفرنسية، أومن الاشتراكيين الطوباويين البرجوازيين صغار الذين آمنوا بالتوفيق بين رأس المال والعمل على أساس مثلهم المستنيرة. كان الفريقان نخبويين من حيث موقفهما من الطبقة العاملة. الأولون أرادوا العمل من وراء وبالنيابة عن الطبقة والآخرون أرادوا أن تبقى الطبقة سلبية حتى يتم إقناع ذوي النوايا الطيبة باستخدام قوة الإقناع. كان ماركس قد طرح جانباً تلك الأفكار منذ زمن بعيد، وكان مستعداً لخوض معركة معهم فى سياق حركة للطبقة العاملة. ولكنه اعتبر -في خارج هذا الإطار (فى جمعيات ونوادي صغيرة)- أنه سوف يضيع وقته لوأنخرط معهم بأي شكل من الأشكال.

٥- الأممية الأولى: الممارسة والنظرية:

الذي سحب ماركس من عزلته التي فرضها على نفسه كان دعوته إلى الاجتماع التأسيسي لاتحاد العمال الأممي الذي عقد في سانت مارتينز هول في ٢٦ سبتمبر ١٨٦٤. لم يكن تأسيس الأممية بواسطة ماركس ولا إلهاماً ماركسياً، ولكنه جاء كنتيجة تصاعد عام للنضال الاقتصادي للطبقة العاملة الأوروبية، ونتيجة اهتمام الطبقة العاملة بالقضايا الدولية كتأييد الشمال فى الحرب الأهلية الأمريكية؛ وقضية الاستقلال البولندي؛ وتوحيد إيطاليا؛ ومنع استخدام العمال المهاجرين لكسر الإضرابات. جاءت المبادرة الفورية لاجتماع سانت مارتينز هول من أعضاء من نقابيين في لندن وباريس. وكان ذلك التميز والعفوية هما العاملان الأساسيان اللذان جذبا ماركس، فكتب إلى إنجلز "أعلم أن في هذه المرة تشارك 'القوى' الحقيقية في لندن وباريس. ولهذا السبب قررت التخلي عن موقفي المعتاد الرافض لجميع مثل هذه الدعوات... لأن من الواضح أن هناك صحوة للطبقات العاملة".٣٦

ϕ نسبة إلى اليعاقبة (Jacobins) الذين مثلوا الجناح الراديكالي من البرجوازية الصغيرة في الثورة الفرنسية، وهم من أطلقوا حملة "الإرهاب" الثوري لحماية الثورة في نوازعها الأخيرة من أعدائها في الداخل والخارج. (المترجم).

كان لهذه المعالم الإيجابية جانب سلبي متمثل في الارتباك وعدم التجانس النظري والسياسي. فمـن بـين المشتركين في الأممية كان هناك أتباع مازينى من القوميين الإيطاليين، وفرنسيون برودونيون[ф] الذين أرادوا التوفيق بين رأس المال والعمل، وأوينيون[фф] مثل وستون٣٧ الذين عارضوا فكـرة الإضـرابات، وأيضـاً جمعيات سرية اتبعت الشكل الماسوني مثل الفيلادلفيين.٣٨ اضطر ماركس إلى استخدام اللباقة وكثيـر مـن المكر حتى يتسنى له أن يعمل في مثل هذا الهيكل غير المنظم ليوجهه إلى الطريق الذى تبناه. كـان الأمـر محتاجاً لكثير من التسوية عند استلامه لمهام رسم الخطوط العريضة للأممية، و"الخطاب الافتتاحي"٣٩، وذلك لتجنب مضايقة المشاركين الآخرين.

لقد كان من الصعب علينا أن نصوغ أفكارنا بحيث تظهر فى شكل مقبول من وجهة نظر الموقف الحـالي للحركة العمالية. خلال بضعة أسابيع سيعقد نفس الناس اجتماعا للتوكيل مع برايت وكوبـدن وسـوف يمـر بعض الوقت قبل أن تسمح الحركة الناهضة بالحديث الواضح القوى ثانية.٤٠

كانت طريقة ماركس هي التركيز على الطبيعة الطبقية للحركة وأمميتها، مع التركيـز علـى أطروحـة التحرر الذاتي المنتشرة آنذاك،٤١ بدون التركيز على الأهداف أوالطرق الثورية. لهذا نصت القواعد على أن "تحرير الطبقة العاملة يجب أن ينتزع بواسطة الطبقة العاملة ذاتها"، وأن "التحرر الاقتصادي للطبقات العاملة هوالهدف الأسمى الذى يجب أن تكون كل حركة سياسية خاضعة له كأداة"، وأن "تحرير العمل ليس مشـكلة محلية ولا قومية بل مشكلة اجتماعية تضم جميع البلدان التي يوجد فيها المجتمـع الحـديث".٤٢ ولكـنهم لا يذكرون تجميع وسائل الإنتاج -الأمر الذي كان ليغضب البرودونيين، ولا الثورة التي كانت لتخيف النقابيين الإنجليز. وقد نجحت هذه الإستراتيجية تماماً. وجنّبت الأممية نفسها عن أن تكون كما قال مهـرنج: "جسـم صغير برأس كبير".٤٣ ولكن في نفس الوقت استطاع ماركس تدريجياً، من خلال تفوق تصـوره الأشـمل للحركة أن يفرض سيطرته الفكرية على المجلس العمومي. وبنموقوة الأممية -مستفيدة على وجه الخصوص من موجة الإضرابات التي تولدت من الأزمة الاقتصادية ٦٦ – ١٨٦٧- أقنع ماركس مؤتمرات متتالية بتبني سياسات أكثر اشتراكية. وقد أقر مؤتمر لوزان (١٨٦٧) أن : "التحرر الاجتماعي للعاملين لا ينفصـل عـن تحررهم السياسي".٤٤ وشهد مؤتمر بروكسل (١٨٦٨) هزيمة البرودونيين في مسـألة الملكيـة الجماعيـة للأراضي والسكك الحديدية والمناجم والغابات، وقد قرر مؤتمر لندن (١٨٧١) أن يضيف الفقرة التالية إلـى القواعد:

في نضالها ضد القوة الجمعية للطبقات المالكة تستطيع البروليتاريا أن تتصرف كطبقة فقط إذا شكلت حزباً سياسياً معارضاً لكل الأحزاب القديمة التي شكلتها الطبقة المالكة.

[ф] نسبة إلى المفكر الفرنسي برودون. (المترجم).

[фф] نسبة إلى المفكر البريطاني روبرت أوين (١٧٧١-١٨٥٨)، أحد الاشتراكيين الطوباويين الذين أسهموا إسـهامات ضـخمة للفكر الإصلاحي في بريطانيا وأوروبا، وكان لفكره أثر كبير على أيديولوجية حزب العمال البريطاني لاحقاً. (المترجم).

إن تشكيل البروليتاريا فى حزب سياسي لهوضرورة لا يمكن الاستغناء عنها من أجـل انتصـار الثـورة الاجتماعية وهدفها النهائي: إلغاء الطبقات. ٤٥

ولكن على الرغم من هذا التقدم فقد بقيت الأممية خليطاً من اتجاهات مختلفة إلى الدرجة التـي يسـتحيل معها أن تقترب من أن تكون حزباً شيوعياً عالمياً. ولم يحاول ماركس أبداً أن يفرض مثل هذا المفهوم عليها. ولكنه وافق على أن الأممية لا تعدوكونها اتحادا عريضاً للمنظمات والأحزاب العمالية فى مختلف البلدان وأنه عليها أن "تدع لكل فريق أن يشكل برنامجه النظري بحرية".٤٦

إن الحالة الفضفاضة -التي كانت قوة للأممية سمحت لماركس بأن يحافظ على تكتلاتها العديدة في نفـس الوقت الذي وفر فيه التوجيه العام- كانت أيضاً نقطة ضعف لها وجعلت الأممية هدفاً سهلاً للاختراق من قِبل ميخائيل باكونين ومنظمته الفوضوية الأخوة العالمية والتي دخلت الأممية في ١٨٦٨ من داخل الحاف الأممي للاشتراكية الديمقراطية. وكانت عاملاً أساسياً فى الانهيار النهائي لها. كـان بـاكونين مغـامراً رومانسـياً أومتآمراً أكثر من كونه منظراً. وكان البرنامج الذى وضعه ساذجاً ومشوشاً، دعـي إلـى "المسـاواة بـين الطبقات"، وأيد الإلغاء المباشر للدولة، وكذلك إلغاء حق الميراث... كل هذه كمطالب أساسية للحركة، وفـوق كل هذا الابتعاد التام عن السياسة. نظر ماركس إلى هذه الأفكار بازدراء: "سخافة تم جمعها بطريقة سـطحية من اليمين ومن اليسار... كتاب لأطفال التمهيدي... الفوضى التي جمعها مـن بقايـا البـرودونيين وسـان سيمونΦ وغيرهم".٤٧ ولكنه لم ينكر حق الفوضويين فى مناقشة قضيتهم داخل الأممية. لقد كان صراعا -ليس على المبدأ- ولكن على نوع التنظيم الذى ستسير عليه الأممية، وهذا هوأساس الصراع المـدمر بـين ماركس وباكونين. استغل باكونين العدد الهائل من التوترات والانقسامات فى داخل الأممية، وبدأ حملة ضـد "سلطوية" المجلس العمومي تهدف إلى استغلال الانتقادات المختلفة للمجلس العمومي. ولكن فى خلال إطـار الحملة "المضادة للسلطوية" حاول باكونين فرض "الديكتاتورية الشاملة الخفية"٤٨ الغيـر منتخبـة لجمعياتـه السرية.

حقيقة الأمر كما يصورها مونتي جونستون أن "كان الأمر إما وجوب أن تُدار الأممية كمنظمة ديمقراطية عامة بما يتوافق مع القواعد والسياسات الموضوعة من قِبل المؤتمرات، أوالسماح لباكونين بأن 'يشل نشاطها بمؤامراته الخفية' وكذلك السماح للاتحادات والفرق بعدم قبول قرارات المؤتمرات التي اختلفوا معها".٤٩

اكتسبت نشاطات باكونين أهمية بسبب تزامنها مع العنصر الأساسي الآخر في فشل الأممية وهوكوميونـة باريس. لقد أدى تعاطف ماركس مع الكوميونة في الحرب الأهلية في فرنسا إلى إلصاق الكوميونة بالأمميـة وبالتالي إلى انتشار "الذعر الأحمر" وحملة مطاردة ضد الأممية فى أنحاء أوربا. في الوقت ذاته، أدى ظهور ثورة اجتماعية واقعية -بإشكاليات سياسية مطروحة بصورة أوضح- إلى تحطيم الوحدة الهشة التي ارتكزت عليها الأممية.

Φ سان سيمون (١٧٦٠-١٨٢٥): أحد كبار المفكرين الفرنسيين الذين أرسوا أسـس الاشـتراكية الطوباويـة فـي أوروبـا. (المترجم).

للتعامل مع هذا الوضع طالب ماركس فى مؤتمر لندن بسلطات إضافية للمجلس العمومي، وتمت الموافقة على هذا. ولكن ذلك أدى بدوره إلى دفع الذين استاءوا من "تدخل" المجلس العمومي إلى المعسكر "المضـاد للسلطوية" بزعامة باكونين. وبحلول عام ١٨٧٢ قرر ماركس أن الأممية قد حان أجلها (على الرغم من عدم إعلانه لذلك)، ولكنه كان مصمماً على إلا تقع فى أيدي المتآمرين سواء الباكونينيين أوالبلانكيينΦΦ الـذين كانوا يحاولون تسوية الإنجازات الإيجابية للأممية بمغامرات لا طائل من وراءها. وقد حقق مـاركس هـذه الأهداف فى مؤتمر "هيج" وذلك بتأمين طرد باكونين (على أساس أسباب مشكوك فيها) ٥٠ وأيضاً بنقل مقر الأممية إلى أمريكا حيث انتهت في سلام في عام ١٨٧٦.

كان اتحاد العمال الأممي بدون شك أهم أعمال ماركس السياسية طوال حياته. وقد أعطت قوة دافعة كبيرة لتطوير الحركة فى كل مكان. وخلقت وعياً أكثر انتشارا بكثير لبعض مبادئ ماركس الأساسية عنها فـى أي وقت مضى. وفوق هذا كله فقد كرست تقليد الأممية وكذلك تقليد التنظيم الأممي في قلب حركة الطبقة العاملة الاشتراكية. كانت تلك إنجازات ضخمة، ولكنه من الواضح أن الأممية احتوت على بذور التفكك فى أسـاس إنشائها. ولتقييم مفهوم ماركس للحزب فإنه من الضروري اختبار قوة وضعف الأفكار النظرية التـي بنـى عليها عمله فى خلال هذه الفترة.

بما أن ماركس كان دائماً يتناول الحزب مقروناً بالطبقة العاملة، وأن الطبقة العاملة تُعرف أساساً بوضعها الاقتصادي، فإن المشكلة النظرية الأساسية تكمن فى طبيعة العلاقة بين الاقتصاد والسياسة وعلى وجه التحديد بين الصراع الاقتصادي للطبقة العاملة وتطور وعيها السياسي وتنظيمها. وهناك عدة كتابات في هذه الفتـرة تشير إلى تبني ماركس الرأي القائل بأن الوعي السياسي يظهر بشكل تلقـائي مـن الأوضـاع الاقتصـادية والصراع العمالي. هكذا يقول ماركس في خطبة له أمام ممثلين من النقابيين الألمان عام ١٨٦٩:

"إن النقابات هي مدارس الاشتراكية. ففيها يعلم العمال أنفسهم ويصيرون اشتراكيين لأن الصراع مع رأس المال يحدث كل يوم على مرأى من عيونهم... إن غالبية العمال مهما كان انتماؤهم الحزبي، قد فهمت أخيراً أن وضعها المادي يجب أن يتحسن. ولكن بمجرد أن يتحسن وضع العامل المادي فسوف يستطيع أن يكـرس نفسه لتعليم أطفاله، ولن يحتاج أطفاله وزوجته للذهاب إلى المصنع، ويستطيع هونفسه تطوير فكـره بشـكل أفضل، ويولي صحته رعاية أفضل ويصبح اشتراكيا دون أن يلحظ ذلك".٥١

ΦΦ نسبة إلى أوجست بلانكي (١٨٠٥-١٨٨١)، وهواشتراكي فرنسي، دعا إلى إقامة سلطة العمال عن طريق انتفاضة مسلحة وقتال شوارع تقوم به "الأقلية الطليعية" من العمال نيابة عن الطبقة العاملة بأسرها. (المترجم).

أعاد ماركس طرح المفهوم النظري الأساسي نفسه في رسالة إلى ف.بولت عام ١٨٧٢، بالرغم أنه توجد بعض العبارات هنا لا يجب أخذها حرفياً:

إن هدف الحركة السياسية للطبقة العاملة هوبالطبع انتزاع السلطة السياسية لصالح هذه الطبقة، وهذا يتطلب تنظيماً مسبقاً للطبقة العاملة متطوراً إلى نقطة معينة ونابعاً من نضالاتها الاقتصادية. ومن ناحية أخرى فإن كل حركة تظهر فيها الطبقة العاملة كطبقة ضد الطبقات الحاكمة وتحاول الضغط عليها من أسفل هي حركة سياسية. على سبيل المثال، فإن المحاولة داخل مصنع معين أوحتى قطاع معين لفرض يوم عمل أقصر ضد رأسماليين معينين من خلال الإضرابات، الخ... هي حركة اقتصادية صِرْف. ولكن من ناحية أخرى فإن محاولة فرض قانون (أوما إلى ذلك) ليوم عمل من ثمان ساعات هي حركة سياسية. وبهذه الطريقة تنموبكل مكان حركة سياسية من حركات اقتصادية منفصلة للعمال. وبعبارة أخرى، حركة الطبقة تملك قوة فرض مصالحها في شكل عام، وفي شكل يملك قوة الإخضاع الاجتماعي (التشديد لكارل ماركس).٥٢

تكمن قوة رؤية ماركس في ماديتها، وفي تأكيدها على التعلم من خلال التجربة والنضال. ولكن يكمن ضعفها في حتميتها الاقتصادية وتفاؤلها بالتطور. لم يوضح التاريخ فقط عملية التطور التي رسمها ماركس، فبجانب هذا أوضح العديد من القوى المضادة التي تعمل على قطع طريق تطور التحول من الوعي النقابي إلى الوعي الاشتراكي. وبالأخص، في قدرة المكاسب الاقتصادية –حتى تلك التي اكتُسِبت من خلال النضال- على العمل كمسكنات لا منشطات، بالإضافة إلى تقليل ماركس من خطورة سيطرة الأيديولوجية البرجوازية على البروليتاريا وبالتالي قدرتها على تقسيم وتجزئة الحركة. في ١٨٩٠ علق إنجلز قائلاً "يقع اللوم جزئياً على ماركس وأنا لتأكيد الشباب أحياناً على الجانب الاقتصادي أكثر من اللازم. كان علينا أن نؤكد مبدئنا الأساسي في مواجهة أعدائنا الذين أنكروه، ولم يكن لدينا دائماً الوقت ولا المكان والفرصة لإعطاء حق العوامل الأخرى التي تدخل في التفاعل"٥٣، ويقع الجزء الأكبر من لائمة مسألة تطور الوعي الاشتراكي على ماركس لتأكيده الأكثر من اللازم على "المبدأ الأساسي" على حساب "العوامل الأخرى التي تدخل في التفاعل".

لقد بنى ماركس أفكاره حول التنظيم ونشاطه في الأممية معتمداً على تبسيطه المخل والتفاؤل الشديد الذي حوى رؤيته بكيفية تحول الطبقة العاملة من "طبقة في ذاتها" إلى "طبقة لذاتها". كانت المسألة الأساسية لماركس هي بناء منظمة سياسية معتمدة على فكرة الصراع الطبقي الذي يشرك قطاعات واسعة من العمال، وفي حالة تحقيق ذلك، اعتقد ماركس أن التنظيم سوف يتطور بنفسه في اتجاه ثوري.

لهذا فإننا نجد عنصراً قوياً من القدرية في منظور ماركس من ناحية تكوين الحزب، إذ رأى أن صراع الأفكار والاتجاهات داخل حركة الطبقة العاملة سوف يحل نفسه بتأكيد وتدعيم الاتجاهات الطبقية للعمال. كانت المشكلة الأساسية عند ماركس هي فشله في تصور إمكانية وجود إصلاحية سياسية عمالية (بعبارة أخرى الاشتراكية الديمقراطية أوالعمالوية) تمسك بقبضتها على الحركة بطريقة لا تسمح لها بتطوير نفسها ولا أن تفسح المجال للعمل الثوري، بل تمثل عقبة كبيرة في طريق الثورة. ولأن ماركس لم ير الخطر فإنه بالتالي لم ير الطريقة لمحاربته وهى خلق حزب طليعي منضبط وضيق نسبياً.

٦- الاشتراكية الديمقراطية ومشكلة الإصلاحية:

منذ عام ١٨٧٢ فصاعداً، لم يكن ماركس وانجلز مشتركين أوأعضاء فى أي تنظيم أوحزب، ولكنهما على الرغم من ذلك اعتبرا نفسيهما "ذوا وضع خاص كممثلين للاشتراكية الأممية"،٥٤ وبهـذه الوضـعية أسـدوا النصح للاشتراكيين فى أرجاء العالم. كان إنجلز في هذا المجال أنشط من ماركس لتردي صـحته وتركيـزه على دراساته. لكنه يبدومن المعقول اعتبار آراء إنجلز -في تلك الناحية على الأقل- ممثلة بطريقـة عامـة لآراء ماركس.

كانت أهم ظاهرة في تلك الفترة ظهور أحزاب عمالية اشتراكية ديمقراطية في عدد من البلدان، خاصة في ألمانيا. جمعت هذه التنظيمات بين برنامج اشتراكي معلن وجمهور الطبقة العاملة. أدت مشاهدة هذا التطـور مع الخبرة العمل في الأممية -فيما يبدو- إلى إعادة تقييم أوعلى الأقل تغيير في التركيز في وجهـات نظـر ماركس وإنجلز. هكذا نجد أنه في عام ١٨٧٣ حذر إنجلز ببيل من أن "ينخدع بنداء ‘الوحدة’... يثبت الحزب انتصاره بالانشقاق وبكونه قادراً على تحمل ذلك".٥٥ وفي عام ١٨٧٤ تنبأ إنجلز لسورج بأن "بعد أن تكـون كتابات ماركس قد خلقت آثاراً لبعض السنين ستكون الأممية القادمة شيوعية بشكل مباشـر وسـوف تطبـق مطالبنا بحذافيرها".٥٦

في بريطانيا والولايات المتحدة، حيث تواجدت طبقات عاملة في غاية القوة ولكن العمال خاضعين سياسياً لأحزاب الطبقة الحاكمة وحيث التيار الاشتراكي شديد الضعف، واصل ماركس وإنجلز خط سيرهما القـديم في الدعوة إلى تكوين حزب عمالي مستقل وعريض دون النظر إلى برنامجه أوإلى أسسه النظريـة. كتـب إنجلز سلسلة من المقالات على هذا الأساس في مجلة وضع العمل في عام ١٨٨١ مجادلاً -ومتنبـأً بطريقـة نشأة حزب العمال (البريطاني)- أنه "إلى جانب، أوعلى رأس، النقابات العمالية يجب أن تنبثق رابطة عامة، كتنظيم سياسي للطبقة العاملة بأكملها".٥٧ وفى ١٨٩٣ حث كل الاشتراكيين على الانضمام إلى حزب العمال المستقل. وفيما يتعلق بأمريكا جادل إنجلز :

إن الشيء العظيم هوجعل الطبقة العاملة تتحرك كطبقة، وبمجرد حدوث هـذا سـوف يجـدون الطريـق الصحيح... إن تَوقع أن يبدأ الأميركيون بالوعي الكامل بالنظرية التي تطورت في الدول الصـناعية الأقـدم هوبمثابة توقع المستحيل... أن أصوات مليونين من العمال فى نوفمبر القادم لصالح حزب عمالي حقيقي جاد لهوأهم بكثير -في الوقت الحالي- من مائة ألف صوت لصالح منبر كامل المبادئ... ولكن أي شئ يمكن أن يعطل أويمنع ذلك التضامن القومي لحزب الطبقة العاملة -ومهما كان الأساس النظري لذلك- أعتبره خطـأ جسيماً. ٥٨

وأما فيما يخص فرنسا وألمانيا، حيث كانت الحركة أكثر تقدماً بكثير، كان سلوك ماركس وانجلز مختلفاً تماماً. وهنا رأوا - ولأول مرة - إمكانية خلق أحزاب ماركسية قوية فى هيئة الحزب العمالي الفرنسي والحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني. ومن أجل تحقيق تلك الإمكانية، أعطوا اهتماما خاصاً لمسائل النظرية والبرنامج. لهذا فانه عندما انقسم الحزب الفرنسي عام ١٨٨٢ بين ماركسيين بقيادة جيوسد ولافارج، و"امكاناتيين" بقيادة مالون وبروس (وهم فوضويين تحولوا إلى إصلاحيين)، رحب إنجلز بالحدث على إنه شئ "حتمي" و"جيد"، وأن ذلك "الحزب الزائف [الامكاناتيين] هوليس فقط حزب غير عمالي ولكنه ليس حزباً على الإطلاق، لأنه في الواقع لا يملك برنامجاً"٥٩، وعلق قائلا "على ما يبدوا أن كل حزب عمالي في دولة كبيرة يمكن أن يتطور فقط من خلال الصراع الداخلي، بما يتماشى مع قوانين التطور الجدلي بوجه عام".٦٠ ولكن في تعاملهما مع الاشتراكية الديمقراطية الألمانية، احتفظ ماركس وإنجلز بأعلى درجات الحدة النظرية.

وعندما توحد فى ١٨٧٥ حزبSDAP مع حزبADAV اللاسالي[Φ] لكي يشكلا حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الألماني (لاحقاً الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني)، عارض ماركس وإنجلز هذه النقلة "كتهور من جانبنا"٦١ متضمناً تنازلات نظرية. وقد وجه ماركس إلى برنامج الوحدة نقداً عنيفاً٦٢ موضحاً ليس فقط المدلولات الرجعية للصيغ اللاسالية مثل "قانون الأجور الحديدي" و"الحقوق المتساوية في المردودات غير المنقوصة للعمل" و"جمعيات المنتجين المدعومة من الدولة"، بل أيضاً تناول مسألة الطبيعة الطبقية للدولة في مواجهة الدعوة إلى "دولة الشعب الحرة"، منتقداً البرنامج لافتقاده مبدأ الأممية، وشاكياً من أن البرنامج "لا يطرح شيئاً من ناحية المطالب السياسية عدا تلك القديمة والتي لا تتعدى الشعائر الديموقراطية العامة المعروفة: حق الانتخاب العام، التشريع المباشر، العدالة الشعبية، الجيش الشعبي، الخ"٦٣. في عام ١٨٧٧، ولكي يحافظ على هيمنة الماركسية في الحركة الألمانية، أخذ إنجلز على عاتقه مشروع ضد دوهرنج الضخم، وفى عام ١٨٧٩ أرسل ماركس وإنجلز "خطاب دوري" لقادة الحزب منتقدين بشدة ظهور نزعات غير بروليتارية داخل الحزب رافضة للصراع الطبقي وبالتالي الطبيعة الطبقية للحزب، و"تعلن صراحة أن العمال جهلاء إلى درجة لا تؤهلهم لتحرير أنفسهم ويجب أن يتم تحريرهم من أعلى بواسطة محبي الإنسانية من البرجوازية الكبيرة والبرجوازية الصغيرة".٦٤ وأيضاً في عام ١٨٧٩ عارضا "ضعف ليبنخت[X] غير المتوقع فى البرلمان الألماني"٦٥ في مواجهة قانون بسمارك المعادي للاشتراكية، وعارضا كذلك التأييد الانتهازي لسياسة بسمارك المتعلقة بالتعريفة الحمائية وذلك بواسطة المجموعة البرلمانية لحزب العمال الاشتراكي الديمقراطي، ورداً على ذلك أعلن ماركس "أنهم أصيبوا بالبلاهة البرلمانية لدرجة تصورهم أنهم فوق كل نقد".٦٦

[Φ] نسبة إ فرديناند لاسال (١٨٢٥-١٨٦٤)، وهومفكر أ ا لعب دوراً وريأ ا ركة العمالية الأ انية. اقتصرت مطالبه السياسية على حق الاقتراع العام وإنشاء عيات للمنتج تدعمها الدولة. وقد حاول دية البعد عن أي منحى راديكا وكسب تأييد الطبقة الوسطى، ورأى تدخل الدولة ا تمع الرأ ا كحجر زاوية قيق الاشتراكية. (ا ترجم).

[X] كارل ليبنخت، أحد القادة الماركسيين العظام في الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني، وقد لقي مصرعه بعد نشوب الثورة العمالية الألمانية في ١٩١٨. (المترجم).

ولكن لا يجب أن يضللنا هذا السيل المتواصل من النقد. فهولا يعكـس عـداء للاشـتراكية الديمقراطيـة الألمانية، بل يعكس اهتمام ماركس وانجاز الاستثنائي بالتنظيم الذي كثيراً ما يشيران إليـه بكلمـة "حزبنـا". وعلى الرغم من هجومهما العنيف على كل مظهر معان من مظـاهر الإصـلاحية والتسـليم بالديمقراطيـة البرجوازية، بقي ماركس وإنجاز مرتبطين بالحزب الألمانى بـ"روابط تضامن".٦٧ وأصبح الحزب الألماني –بمباركتهما- النموذج للحزب الماركسي لبقية العالم. ما فشل ماركس وانجاز في اسـتيعابه هـو أن الخطـر الرئيسي لا يكمن فيما قاله الحزب، ولكن فيما فعله، وفي ماهية الحزب أساساً. وقد بـرزت هـذه المشـكلة بوضوح بعد ذلك ببضع سنوات، فيما يسمى "الجدل التحريفي"، عندما طلب برنشتاين أن يتبنى الحزب سياسة إصلاحية خالصة. وفى رسالة مؤيدة كتب الاشتراكي البافاري إجناز آور لـبرنشتاين "عزيزي إدي، لا يقرر المرء رسمياً أن يفعل ما تطلبه ولا يقوله ولكن المرء يفعله. إن كل نشاطنا –حتى في ظل القانون المخـزي المعادي للاشتراكية- كان نشاطاً لحزب إصلاحي اشتراكي ديمقراطي. إن الحزب الذي يـتفهم الجمـاهير لا يمكن ببساطة أن يكون أي حزب آخر".٦٨ يكمن أصل المشكلة في مفهوم العلاقة بـين الحـزب والطبقـة العاملة، ذلك المفهوم الذي لم يعارضه ماركس وإنجاز بوضوح؛ مفهوم الحزب الواسع الـذي ينموبـاطراد، منظماً لأقسام متزايدة من البروليتاريا إلى أن يضم فى النهاية الغالبية العظمى.

وكما كتب كريس هارمن "المهم عند الاشتراكي الديمقراطي هوأن الحزب يمثـل الطبقـة".٦٩ وإذا مثّـل الحزب الطبقة فيجب أن يحتوى على الاتجاهات المختلفة الموجودة بداخل الطبقة. وقد تقبل ماركس وإنجاـز هذا المبدأ على الرغم من كفاحهما لتسييد الماركسية. ولهذا كتب إنجاز في ١٨٩٠ :"إن الحزب مـن الكبـر بحيث أنه من الضروري أن يكون هناك نقاش مطلق الحرية بداخله... إن أعظم حزب في البلد لا يمكـن أن يوجد بدون أن تعبر فيه الآراء المختلفة الموجودة به عن نفسها".٧٠

إذا مثّل الحزب الطبقة في فترة من التوسع والاستقرار الرأسمالي يكون فيهـا جمهـور الطبقـة العاملـة إصلاحي، فيجب على الحزب عندئذ أن يكون إصلاحياً أيضاً، حتى ولولم يعلن ذلك صراحةً. ولكن العمـال الإصلاحيين شئ والقادة السياسيين الإصلاحيين شئ آخر تماماً. إن وعي العامل العادي فى كثير من الأحيان هوخليط من عناصر متناقضة، ومن الممكن لهذا الوعي أن يتغير بسرعة كبيرة تحت ضغط حاجات العامـل المادية وانخراطه المباشر في الصراع والتغيرات الدرامية فى الوضع السياسى. أما على الجانب الأخر، فإن وعي القائد متبلور بشكل محدد ومترابط (وهذا ما يجعله قائداً)، ولهذا فهوأكثر مقاومة للتغيير، علاوة علـى ذلك فإن القائد ليس عرضة لنفس الضغوط المادية الموجودة على العامل، بل على العكس فغالباً القائـد لـه مركزه الذى يعطيه الامتيازات (مثلاً كعضوفى البرلمان أوكزعيم نقابي عمالي). والنتيجـة لـذلك، هـي أن علاقة تمثيل الطبقة العاملة فى المرحلة الإصلاحية ستتحول إلى علاقة معارضة وخيانة فى المرحلة الثورية. لكي يكون مع الطبقة في موقف ثوري، يجب على الحزب أن يتقدم الطبقة نسبياً في فترة ما قبل الثـورة. لا يتوقف الحزب عن تمثيل مصالح الطبقة ككل، ولكن لكي يحقق ذلك يجب أن يقصر عضويته علـى أولئـك الذين تتغلب فيهم مصالح الطبقة ككل على المكاسب الفردية والجزئية والقومية أوالمكاسب الفوريـة، بمعنـى آخر، الثوريين.

كون ماركس لم يطور أويبنى هذه الفكرة التى هى الفكرة الأساسية المبدئية لنظرية حزب ثوري يكمن فيما سميناه مسبقاً بـ"التطورية المتفائلة" التي شابت رؤيته في نمووعي الطبقة العاملة السياسي والـذي رأى أنـه يتطور نسبياً بنعومة واتساق وإلى حد ما موازي لتطور الرأسمالية. لا يمكن أن يندهش المرء أويلوم ماركس على عدم تخطيه لهذا الرأي. فخلال الجزء الأعظم من حياة ماركس لم تظهر مشـكلة الإصـلاحية كتهديـد أساسي بأي حال من الأحوال، لقد كانت المهام الأساسية هي التغلب على التقاليـد البرجوازيـة الصـغيرة، والعصبوية، والتآمرية، والاشتراكية الطوباوية، للتنظيم الثوري -الموروثة عن الثورة الفرنسية، بالإضافة إلى مهمة تحقيق الاستقلال السياسي للبروليتاريا.

لقد كانت إسهامات ماركس عظيمة في تحقيق البروليتاريا لهذه المهام فى معظم البلدان الأوربية. ولوكـان -في سياق الصراع- قد "ثني العصا" في اتجاه الحتمية الاقتصادية فإن هذا مفهوم بشكل تـام. ولكنـه مـن الضرورى أيضاً أن نفهم إنه في مجال نظريته عن الحزب، فإن تراث مـاركس -مهمـا كانـت إنجازاتـه الإيجابية- كان شيئاً يجب تخطيه بمرور الوقت على يد الحركة الماركسية لوكان للرأسمالية أن تسقط.

الفصل الثاني

لينين وميلاد البلشفية

برغم أن الماركسية عموماً -كما وضعها جرامشي- هى "فلسفة للعمل"، وبالتالي معادية للقدريـة، إلا أن ماركس نفسه -كما وضحنا- لم يحرر نفسه تماماً من مفهوم قدري للمنظمة السياسية بسبب الظروف السائدة وتصميمه على تفادي الحلقية. إن الحزب السياسى للبروليتاريا سينشأ تدريجياً وعفوياً من الصـراع الواسـع للطبقة العاملة. ففى الاشتراكية الديمقراطية قوت هذه النزعة القدرية نفسها فى دائـرة التنظـيم وبعـد ذلـك توسعت فى نظرية النموالرأسمالى والثورة البروليتارية وطبيعة النشاط الإنسانى نفسه. إن الممارسات البلشنية وأفكار لينين التنظيمية كانت بمثابة قطع مع هذه القدرية، وبذلك كانت خطوة هائلة للأمام بالنسـبة للنظريـة الماركسية ليس فقط مع الاشتراكية الديمقراطية. ولكن أيضاً مع ماركس. لينين فقط هوالذى أسـتبدل مفهـوم الحزب العريض الذى "يمثل" الطبقة أوهوالطبقة ذاتها، بمفهوم حزب يتكون من أقلية (قبل المرحلة الثوريـة) هى طليعة الطبقة. والتى لكونها التعبير التنظيمى عن المنظور الاشتراكي للطبقة. واجب عليها الـدفاع عـن نفسها، والنضال ضد كل مظاهر الانتهازية.

١- خلفية البلشفية:

إن البلشفية لم تكن "فينوس" مولودة مكتملة النمومن الأمواج - لقد نمت وتطورت من خلال مجموعة من الصراعات الداخلية والخارجية، ولا يمكن رؤيتها أيضاً ببساطة كنتاج لعبقرية لينين التنظيميـة. إن إعطـاء لينين شكلاً مثالياً كما هوسائد فى الدوائر الماركسية إلى جانب نزعة المنظرين الستالينين فى تصوير التاريخ الثورى الروسى على إنه هناك بطلين هما الشعب الروسى ولينين (ومعظم الأفراد الآخرين ليسوا بشراً) قـد خلقت صورة للبلشفية كأن لينين هومخترعها مثلما أخترع واط المحرك البخارى. فى الواقع إن القطـع مـع التدريجية فى مجال التنظيم كان هونفسه عملية تدريجية ونصف واعية فقط بالرغم من العديد من الصراعات الحادة والواعية. إن اللينينية هى نتاج استجابة ثورية نامية وقوية لواقع ملموس. ولفهم هذه الاستجابة يجـب النظر إلى عناصر هذا الواقع التى جعلت منه شيئاً ممكناً.

إن أول عامل قفز إلى الذهن كمصدر للبلشفية هوما يسميه توني كليف (بالتقليد الاستبدالى فى الحركة الثورية الروسية). هذا التقليد كان بالقطع شديد القوة. ففى ستينات وسبعينات القرن الماضى كان أحياناً عشرات وأحيانـاً أخرى مئات المثقفين البطوليين والمثاليين يضعون أنفسهم ضد الحكم المطلق، فأحياناً يذهبون إلى الشعب كمعلمين ومنورين وأحياناً أخرى "يتصرفون نيابة عن الشعب" بأفعال إرهابية جريئة. وبفعل ذلك اكتسب هؤلاء النارودبيين الاحترام الأزلى وإعجاب الثوريين الروس ومن ضمنهم لينين على وجه الخصوص الذى يشـير تكـراراً إلـى "إصرارهم المخلص وقوة عزيمتهم". ولتقوية تلك الفكرة يمكن ضم العديد من الأجزاء من سـيرته ذات دلالـة: التأثير القوى على لينين من قبل كتاب الصفوة مثل: شيرلينشفكى وتكاشيف، وبالطبع قدر أخاه الذى أعدم بتهمـة إرهابية. ومع ذلك فإن الحديث السطحى لا يحتمل الفحص النقدى، لأنه يغفل حقيقة أن لينين قـد تبنـت أسـنانه النظرية بالضبط من الصراع ضد النارودنية، وأنه عارض الإرهاب الفردى طول حياته، وأنـه رفـض تأييـد الاستيلاء على السلطة عام ١٩١٧ حتى أصبح للبلاشفة أغلبية فى السوفيتات، وأنه شن هجوماً عنيفاً ضـد كـل أشكال "الانتفاضية" لمحاولات انتفاضات من قبل اقليات، فى المؤتمر الثالث للأممية الشيوعية عام (١٩٢١).

لم يكن الإرهاب وإنما الوضع الذى أنتج الإرهاب هوالعامل المهم فى تطوير أفكار لينين. فقـد اسـتطاع لينين أن يقاطع وبشكل فاصل النظريات الرومانسية والطوباوية للإرهاب، واستطاع أن يلتحم تماماً بنظريـة الصراع الطبقي كرافع للثورة الاجتماعية، ولكنه لم يستطيع القطع مع حقيقة البـوليس القيصـري. فتحـت القيصرية ظل القمع السياسى التام وبذلك تم حظر كل النشاطات النقابية والاضطرابية.

فى مثل هذا الوضع كان النموذج الاشتراكي الديمقراطي لحزب جماهيري عريض يمثل الطبقـة العاملـة بكاملها من المستحيل. "فلا يمكن إلا للطوباوى الراسخ فقط أن يدعولمنظمة عمالية واسعة.. فى ظل الحكـم المطلق". في الواقع فإنه من ناحية محاربة البوليس القيصرى، كلما صغر التنظيم كلما كان ذلك أفضـل. إن الحاجة إلى الفاعلية والتمرين القويين شديدة الارتباط بمسألة الحجم والسرية. فالحاجة إلى الفاعلية تطرق إليها لينين فى "ما العمل" والتى كانت تقريباً العامل الموضوعي الأساسي فى تحديد نجاح ذلك الكتاب فـى ذلـك الوقت. تعطى الأساس لمفهوم الثورى المحترف كأساس للتنظيم الثورى. فقد كتب لينين ملخصاً آراءه فى هذا الصدد قائلا:-

"فى الدولة الاستبدادية. كلما اقتصرت عضوية مثل هذا التنظيم على الأفراد الذين يحترفون النشاط الثوري والذين دربوا على فن محاربة البوليس السياسى. كلما صعب القضاء على هذا التنظيم".

إن إبراز العملية فى التأكيد على السرية والتدريب والاحتراف فى التنظيم يجب أن تكون واضحة. ولكـن هذا العنصر من العملية المجردة أوضرورة التنظيم فى نظرية لينين يمكن بسهولة تضـخيمها. فـإذا كانـت الملاءمة الثورية هى الشئ الوحيد الذى تم أخذه فى الاعتبار، فيبقى على الأرجح أن نقول مع ليونارد شابيرد (والعديد من المعلقين الآخرين) "إن مفاهيم لينين قد اقتربت من أفكار نارودنايا فولجا التآمرية، وبعدت عـن مفهوم ماركس للدور التاريخى للطبقة بكاملها". واقع الأمر لم يكن كذلك. فذلك القلب الصلب مـن الثـوريين المحترفين لم ينظر لهم كغاية فى حد ذاتهم، وإنما كوسيلة. وقد شدد لينين على إنه كلما قوي قلـب الحـزب "كلما كبر عدد الأفراد من الطبقة العاملة ومن الطبقات الإجتماعية الأخرى الذين يستطيعون الانضمام للحركة وممارسة نشاط فيها". من هنا فإن منظور لينين كان دائماً منظور حركة طبقية عريضة ضد السلطة المطلقة. ولكن يقودها حزب طليعى. "نحن حزب طبقة، ولذلك فتقريباً كل الطبقة (وفى أوقات الحرب، وحقبات الحرب الأهلية، الطبقة بكاملها) يجب أن تعمل تحت قيادة حزبنا". علاوة على ذلك، فإذا كانت الضرورة العملية فقط هى التى حددت فكر لينين، فأفكاره سيكون لها أهمية محلية ومؤقته. كانت البلشفية لتثبت أنها ظاهرة روسية خاصة استثناء عن القاعدة، بدلا من أساس لحركة وتقليد أممى واسع. فى الواقع لإن العناصر التآمرية فـى مفهوم لينين محددة تاريخياً ويعترف لينين بذلك:-

"فى ظروف الحرية السياسية يبنى حزبنا بشكل كامل على مبدأ الأنتخاب. فى ظل الأتوقراطية يكون هـذا غير عملي بالنسبة لآلاف العمال الذين يشكلون الحزب".

وإذا كان مستوى القمع هوما جعل تأسيس حزب عريض على النمط الغربـي مسـتحيل، فـإن الوضـع الإجتماعي والسياسي الخاص فى روسيا والاتجاهات فى داخل الحركة الثورية هى ما دفعت لينين نحـورؤى نظرية جديدة وجعلته قادراً على أخذ خطوة أمام نموذج الاشتراكية الديمقراطية بـدلا مـن خطـوة للخلـف نحوالتآمرية، لذلك يجب فحص هذا الموضوع.

إن الفرق بين مهام الحركة الثورية فى أوروبا الغربية وروسيا يكمن فى أن الرأسمالية فى الغرب كانت قد رسخت تماماً، بينما الرأسمالية الرويبة كانت ما تزال وليدة فلذلك بينما كانت الماركسية تعرض نفسـها فـى الغرب بشكل مباشر كنظرية إحاطة البروليتاريا للرأسمالية، ظهرت الماركسية فى روسيا للعديـد كنظريـة لحتمية النموالرأسمالي. وبما أن السلطات قد اعتبرت الإرهابيين الخطر الأساسى -وقد زعم الإرهـابيون أن روسيا يمكنها تجنب الرأسمالية عن طريق ثورة فورية- كان النقد الماركسي للإرهاب والتوكيد على حتميـة الرأسمالية محل ترحاب لفترة، فعلى الأقل كان ينظر له كأهون الشرين. وهذا أدى إلى ما أصـبح معروفـاً بالماركسية الشرعية وأصبحت الماركسية موضة حقيقية:-

"تم تأسيس المجلات والصحف الماركسية، وأصبح تقريباً كل فرد ماركسى، وأطروا علـى الماركسـيين وتوددوا لهم. وأبتهج ناشروا الكتب للبيع غير العادى للأدبيات الماركسية".

وبشكل حتمي، ومثل هذا الوضع حدث تحالف "لعناصر ظاهرة الاختلاف" وبشكل خاص فالذين سموا أنفسهم ماركسيين كانوا هؤلاء الذين نظروا إلى الماركسية كضرورة وكأمر تقدمى، ولكن الذين أيدوا الواقع الرأسمالية، والذين كانت الاشتراكية بالنسبة لهم بلاغة غير واضحة المعالم بالنسبة للمستقبل البعيد. (الممثل الرئيسى للاتجاه الثانى كان بيوترستروف. والذى كان يتعاون من قبل مع لينين وبيلخانوف، والذى أسس سـنة ١٩٠٥ حـزب الكاديت البرجوازى الديموقراطى) هذا كان يعنى أنه منذ وقت مبكر للغاية شعر لينين أن عليه أن يختار بشـكل صارم جداً هؤلاء الذين أرادوفعلاً الصراع من بين العديد من الذين تفوهوا بعبارات راديكالية. كان هذا عـاملاً أساسياً فى تحديد عناد لينين المذهبى وخصوصاً إصراره على المفارقة بين ما يقوله الناس ومـا كـانوا فعـلاً مستعدين لفعله. هذه القدرة الأخيرة. التى كانت نامية بشكل واضح عند لينين والتى هى إحدى الملامح المدهشة فى كل كتاباته. كان لها أن تلعب دوراً مهولاً فى نموالبلشفية كحزب مستقل.

إن الإجابة الماركسية الثورية لمشكلة رؤية الرأسمالية كتقدمية. وفى نفس الوقـت الحفـاظ علـى اسـتقلال البروليتاريا التام للصراع ضد الرأسمالية تقع فى نظرية هيمنة البروليتاريا فى الثروة البرجوازية. فبدءا ببليخانوف (إن الثورة الروسية ستنجح كثورة عمالية أوأنها لن تنجح على الإطلاق)، علا الرغم من تركه لهذه الرؤية بعـد ذلك. والتى تبناها وصقلها لينين، هذه النظرية كان لها أن تصبح سمة البلثفية فى مرحلة ما قبل سـنة ١٩١٧. إن جوهر هذه النظرية هوأن البرجوازية الروسية قد ظهرت متأخراً على الساحة. بعدما توقفت البرجوازيـة عـن كونها قوة ثورية على النطاق العالمى. وبناء على ذلك فإن مهمة قيادة ثورة ضد الحكـم المطلـق سـتقع علـى البروليتاريا التى، برغم صغرها، كانت تنموبسرعة فى الصناعات الحديثة الضخمة، وكانت تستطيع التحالف مع القوى الهائلة للتمرد الفلاحى. من أجل تحقيق هذه المهمة على البروليتاريا أن تتبنى الإطاحة بالقيصرية كمطلبهـا الأول والأكثر أهمية، وأن تضع نفسها فى طليعة كل صراع من أجل الديمقراطية والحرية السياسية.

٢- نقد الاقتصادوية:

كانت هذه هى النظرية التى ولدت الخلاف بين لينين وبين مختلف الاتجاهات التى جمعهـا تحـت أسـم "الاقتصاديين". إن المختلفين الأساسيين "للاقتصادية" فى ذلك الوقت كانوا دابوتشايا ميسـل (فكـر العمـال)، جريدة تنشر فى سانت بيتر سبرج ١٨٩٧ – ١٩٠٢، ورادوثيى ديلو(مهمة العمال) وهى مجلة ناطقة بلسـان اتحاد الاشتراكيين الديمقراطيين الروس فى الخارج (١٨٩٩ – ١٩٠٣) وكانت الأخيرة تتخذ موقفـاً يمكـن وصفه بشكل أدق كنصف (اقتصادية). إن المحتوى الأساسى "للاقتصاديين" هوأنه يجـب علـى الاشـتراكية الديمقراطية ألا تركز عملها فى الصراع ضد الحكم المطلق، ولكن فى خدمة وتنمية الصـراع الاقتصـادى للعمال، وانبثقت العديد من الأفكار الأساسية للبلشفية من الخلاف مع "الاقتصادية". من أجل فهم وتقييم هـذه الأفكار سيكون من الضرورى النظر فى هذه الخلافات بشئ من التفصيل – ولكن حتى قبل ذلك يجب النظر إلى السياق الذى حدثت فيه هذه الاختلافات والسؤال ببساطة : لماذا كانت بهذه الأهمية؟

إن السبب الرئيسى هوأن لينين رأى أن "الاقتصادوية" تقود حتمياً إلى التخلى عن هيمنة البروليتاريا فـى الثورة الديمقراطية القادمة؛ بإرساء تقسيم عمل يكون العمال فيه محددون بصـراع النقابـات، وأن يتركـوا السياسة للبرجوازية. فى الواقع كان التأييد الصريح لمثل هذا التقسيم فى الوثيقة المعروفة باسم (الكريدو) أى (العقيدة) التى كتبها ى. د. كوسكوفا من اتحاد الاشتراكيين الديمقراطيين فى الخارج، هوالذى حدث لينين أن يشن الهجوم ضد "الاقتصادوية" ب "احتجاج الاشتراكيين الديمقراطيين" فى أغسطس عام ١٨٩٩. وقد كتـب كوسوكوفاد (الكريدو) :

بالنسبة للينين كان يعنى هذا الطريق خيانة الثورة؛ لأن نشاط المعارضة الليبرالية، (أى البرجوازية) كـان عاجزاً تماماً عن معارضة ثورية متسقة للحكم المطلق. وقد تمسك بأن أى محاولة لتقليل مهـام البروليتاريـا والحركة الاشتراكية الديمقراطية ستعود على البرجوازية بالفائدة، ونظر إلى أى نزعـة نحـو"الاقتصـادوية" كمؤدية فى هذا الاتجاه وبهذه الطريقة، فإن المناظرة حول "الاقتصادوية"، قد أرهصت بالإشـكالية الجوهريـة للماركسيين الروس خلال السبعة عشر عاماً التى تلت – أدوار ومهام البرجوازية فى الثورة – باسـتمرارية جوهرية موجودة بين موقف "الاقتصادوية" المبكر والموقف اللاحق للمناقشة بأن الدور القيادى يجب أن يكون للبرجوازية.

من هنا يمكننا رؤية أن لينين كان أيضاً على صواب عندما ربط "الاقتصادوية" بالاتحاد العالمى للإصلاح أو"التحريفية" فى الاشتراكية الديمقراطية. وهوما فعله بطريقة سـليمة فـى أول "مـا العمـل" لقـد كـرس "الاقتصادويون" الانقسام القائم بين الاقتصاد والسياسة. ودافعوا مع برانشتاين عن أهمية "الحركة" (المطالـب الفورية) فى مقابل (الهدف النهائى) (الاشتراكية، أوفى هذه الحالة الإطاحة بالقيصرية).

إن الهجوم العنيف بالنسبة للينين. كان يعنى أخذ المسائل المختلف عليها من جـذورها ومتابعـة منطقـة وحجج خصمه بلا رحمة: ولذلك فتلك المساجلات؛ بالرغم من أنها نشأت من موضوعات محـددة، إلا أنهـا تحتوى على أهمية عامة : إن نتاج الصراعات ضد "الاقتصادويين" كان "ما العمل" الذى كان لـه باسـتحقاق تأثيراً قوياً على النظرية الماركسية، وفى الممارسة فى كل مكان فى العالم. ولكنى أطرح فى نفس الوقت أنه قد صور خطأ على أنه النص الماركسى المعيارى فى نظرية الحزب: لذلك فإن أى دراسة نقديـة للنظريـة الماركسية للحزب يجب أن تنظر بجدية تامة لهذا العمل.

"ما العمل" يلخص كل آراء لينين ضد "الاقتصادوية" وقضيته الخاصة ببناء منطقة ثورية على نطاق قومى تقوم على أساس كادر من المحترفين الثوريين وجريدة لكل روسيا. لذلك فالعديد من النقاط التى يحتويها لهـا طبيعة عملية من النوع الذى أشرنا إليه من قبل فى المقال، ولكن الموضوع الأساسى هوالعلاقة بين العفويـة والوعى فى تنمية الحركة الثورية. إن الاقتصادويين "الذين تمسكوا بأن السياسة تمشى وراء الاقتصـاد. وأن لينين والايسكراويين "صغروا من حجم العنصر العفوى" و"ضخموا الوعى" ولكن بالنسبة للينين فحتـى هـذه الطريقة لعرض المشكلة كانت غير مرضية على الإطلاق. فلم تكن أهميتها تقع بالتحديد فى المطالب التـى دمغتها على الوعى وعلى التنظيم.

إن برنامج "رابوشيى ديلو" يقول:

"نحن تعتبر أن أهم فى الحياة الروسية التى ستحدد بشكل أساسى المهام وطبيعة نشاط النشر فى الاتحـاد. هى حركة العاملة الجماهيرية التى صعدت فى السنوات الأخيرة".

ويعلق لينين:

"إنه لا يمكن الخلاف على أن الحركة الجماهيرية هى ذات أهمية قصوى، ولكن فى هذا الشأن هى كيـف نفهم عبارة أن "حركة الطبقة العاملة الجماهيرية" تحدد المهام"؟ يمكن فهمها بأحد المعنيين. مـا أنهـا تعنـى الانحناء لعفوية هذه الحركة أى اقتصار دور الاشتراكية الديمقراطية على مجرد التبعية لحركة الطبقة العاملة – أوأنها تعنى أن الحركة الجماهيرية تضع أمامنا مهايا نظرية وسياسية وتنظيمية جديدة، أكثر تعقيداً بكثيـر من المهام التى اكتشفنا بها فى مرحلة ما قبل صعود الحركة الجماهيرية".

إن المفهوم الجدلى للعلاقة بين العفوية والوعى، الحركة الجماهيرية والحزب، يمثل خطوة هائلـة للأمـام بالنسبة للنظرية الماركسية، وهى تتقدم عن أى إسهام سابق فى هذه المشكلة (وفى ضمنها إسهامات مـاركس نفسه وخصوصاً إسهامات الاشتراكية الديمقراطية الألمانية). وهى فى الأساس نقطـة البدايـة الضـرورية لنظرية ثورية حقيقية فى الحزب؛ لأنها قطع راديكالى مع القدرية. "نحن الاشتراكيين الديمقراطيين الثـويين، على العكس، غير راضين بهذا التقديس للعفوية الموجودة حالياً "بالنسبة للينين، فإن نموالصراع الطبقى نفسه، حتى شكله الاقتصادى، هوعملية الانتقال من "العفوية" إلى "الوعى".

"إن الإضرابات التى حدثت فى روسيا فى السبعينات والستينات (وحتى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر) وكانت مصحوبة بالتحطيم "العفوى" للماكينات. الخ. مقارنة بهذه "التمردات" يمكننا وصف إضـرابات التسعينات ك "راضية" إلى الحد الذى يوضح التقدم الذى أحرزته الطبقة العاملة فى هذه الفترة. هذا يوضح أن "العنصر العفوى" فى الأساس. لا يمثل شئ أكثر أوأقل من الوعى فى شكله الجنينى".

لذاك يرى لينين أن واجب الثورى هودائماً مساعدة العنصر الواعى والعمل على التغلب علـى العفويـة. ولكن لينين لا يجادل فحسب من أجل تنظيم فى مواجهـة عـدم تنظـيم. أوقيـادة فـى مواجهـة "ذيليـة" "الاقتصادويين". ولكن الشئ الجوهرى فى محاربته "الاقتصادويين" وفى نظرته لطبيعة مهام الحزب هورفضه لمقولة أن الوعى الطبقى البروليتارى يمكن أن ينموتدريجياً على أساس تراكم صراعات اقتصادية. فكما كتب لوكاتش:

"إن استحالة التطور الاقتصادى للرأسمالية إلى الاشتراكية قد اثبت بوضوح فى مجادلات برانشتاين ومـع ذلك فإن نظيره الغيديولوجى قد عاش بدون تناقض فى أذهان العديد من الثوريين الأوروبيين المخلصين. ولم يكن حتى معتبراً مشكلة أوخطراً".

وكان موقف لينين فى هذا الصدد متطرفاً، ولا يقبل المساومة:

"إن وعى الطبقة العاملة لا يمكن أن يكون وعياً سياسياً حقيقياً حتى يكون العمال قادرين على الرد علـى كل أشكال الاستبداد، الظلم، العنف وسوء المعاملة دون النظر إلى الطبقة المتضررة إلا إذا تـدربوا. عـلاوة على ذلك، أن يردوا من وجهة نظر اشتراكية ديمقراطية وليس غيرها. إن وعى الجماهير العاملة لا يمكن أن يكون وعياً طبقياً حقيقياً. إلا إذا تعلم العمال من حقائق وأحداث ومواضيع سياسية ملموسة أن يضعوا نصـب أعينهم كل طبقة اجتماعية بكل مظاهر حياتها الفكرية والأخلاقية والسياسية. إلا إذا تعلموا تطبيـق التحليـل المادى لكل نواحى حياة ونشاط كل الطبقات. والشرائح ومجموعات الشعب".

ولذاك :

إن "الوعى السياسى الطبقى لا يمكن أن يقدم للعمال إلا من الخارج، أى من خارج الصراع الاقتصـادى. من خارج محيط العلاقات بين العمال والمستخدمين".

عملياً، كان هذا يعنى أن على الاشتراكيين الديمقراطيين ليس فقط "الذهاب بين العمال" ولكن "يجب تحريك العمال ليتخذوا موقفاً فى مساندة كل ضحايا الحكم المطلق. ومن ضمنهم مجموعات مثـل الأقليـات الدينيـة والطلبة. "إن المثل الأعلى للاشتراكيين الديمقراطيين، لا يجب أن يكون سكرتير النقابة، ولكن المـدافع عـن الشعب.. القادر على الاستفادة من كل حدث مهما كان صغيراً، من أ جل نشر إيمانه بالاشـتراكية ومطالبـه الديمقراطية". وكان أساسياً لهذه الإستراتيجية جريدة لكل روسيا ترقب بعين يقظة كل مظاهر الحياة السياسية والاجتماعية فى روسيا وقادرة على شن حملات سياسية على النطاق القومى "بغير أداة سياسـية، لا توجـد حركة سياسية تستحق هذا الاسم فى أوروبا الآن".

قد يكون من الضرورى الإشارة بشكل عابر إلى أن لينين بالطبع لم ينظر باى حال إلى تنويعة القوى هذه كتعديل أوتسوية للأساس الطبقى للحزب. على العكس، فقد كان من هذا من الممكن فقط على أساس مرحلـة مطولة من التحريض الاقتصادى الواسع وسط الطبقة العاملة. "فى المرحلة السابقة" فى الواقع كان لدينا قوى قليلة – لشدة دهشتنا !. وكان من الطبيعى والمشروع جداً أن نكرس أنفسنا لنشاطات بين العمال، وأن نـدين بعنف أى انحراف عن هذا الطريق. فالمهمة بكاملها كانت تقوية مواقعنا وسط الطبقة العاملة؛ وعلى أى حال فإن جل هدف الإستراتيجية كان ضمان هيمنة البروليتاريا فى الصراع ضد الحكم المطلق.

إن ما يميز هذه النظرة اللينينية لفهم الموضوع، وما يفرقها عن طرق الاشتراكية الديمقراطيـة والأمميـة الثانية، لم يكن أن الماركسيين يحاربون من أجل حقوق ديمقراطية وإصلاحات، كل هذا كان أرضية مشتركة وفى الواقع طبيعة ثابتة للاشتراكية الديمقراطية. أن الاشتراكيين الديمقراطيين حاربوا من أجـل إصـلاحات لأنهم "تقدميين" وشكلوا جزءاً من تطور الرأسمالية إلى الاشتراكية. بعبـارة أخـرى، حـاربوا مـن أجـل الإصلاحات كإصلاحيين. فى حين أنه بالنسبة للينين فإن العملية بكاملها كانت جزءاً مـن معركـة الـوعى الطبقى للبروليتاريا، لتتمكن من فهم علاقات كل الطبقات والمجموعات الاجتماعية، وبذلك تهيئ نفسها لتولى السلطة. لهذا فبالنسبة للاشتراكيين الديمقراطيين نمت فجوة واسعة بين برنامج الحد الأدنى وبرنـامج الحـد الأقصى (بين المطالب الفورية والهدف الأساسى) بينما بالنسبة للينين، فالتحريض السياسى متعـدد النـواحى كان وسيلة لسد هذه الفجوة. وكذلك لضمان سيادة الهدف الثورى النهائى.

٣- الاشتراكية من الخارج:

حتى الآن لقد لخصنا التطويرات التي ادخلها "ما العمل" على نظرية الحزب لدى ماركس ولدى الأشـكال الدجمائية من" الاقتصادية" الموجودة فى روسيا وإلى حد ما فى الاشتراكية الديمقراطية الأوربية. ولكن يظـل هناك منحنى هام فى أطروحة لينين لم نتناوله بعد هام ليس لمحوريته فى فكر وممارسة لينين، ولكن لتـأثيره على الاتباع للاحقين.

نحن نتحدث عن فكرة أن" الوعى السياسي" لا يمكن أن يقدم للعمال إلا من الخارج، تلك الفكـرة التـى قدمت تعطى تبريرا نظريا للهجوم على العفوية. تلك الفكرة تظهر فى "ما العمل" فى شكلين. أحدهما والذى ذكرناه من قبل:

"الوعى السياسى الطبقى لا يمكن أن يقدم للعمال إلا من الخارج. أى من خارج الصراع الاقتصادى، مـن خارج محيط العلاقات بين العمال والمستخدمين.

والآخر هو:

"لقد ذكرنا انه لا يمكن أن يكتسب العمال وعى اشتراكي ديمقراطي بأنفسهم بل يجب أن يجاب إليهم مـن الخارج.إن تاريخ كل البلدان يظهر أن الطبقة العاملة بمجهودها الخاص فقط، لا تستطيع إلا أن تطور وعيـا نقابيا، أى الاعتقاد بضرورة التجمع للصراع فى نقابات ضد المستخدمين. ومحاولة الضغط علـى الحكومـة لإصدار قوانين عمل مطلوبة، الخ، على حين أن نظرية الاشتراكية تطورت من النظريات الفلسفية والتاريخية والاقتصادية التي شرحها الممثلون المثقفون للطبقات المالكة، بواسطة المثقفين. وحتـى مؤسسوالاشـتراكية العلمية، ماركس وإنجلز أنفسهم ينتمون اجتماعياً إلى الانتلجنسيا البرجوازية. وبنفس الطريقة، فـي روسـيا ظهرت نظرية الاشتراكية الديمقراطية بانفصال تام عن التطور العفوي لحركة الطبقة العاملة. لقـد ظهـرت كنتيجة طبيعية وحتمية لتطور الفكر لدى الانتلجنسيا الاشتراكية الثورية".

هناك فارق ضخم بين الصيغتين، فالصيغة الأولى ما هي إلا طريقة متعثرة لمحاولـة قـول أن العمـال يحتاجون إلى فهم التشكيلة الكلية للعلاقات الاجتماعية وكل أشكال القهر، هذا الفهم الـذي لا يتـأتى إلا مـن محيط أوسع(من خارج) من المصنع، هكذا يستطيع المرء أن ينتقد الصياغة اللغوية، ولكن يبقـى المضـمون على تعميمه صحيحا، ولكن في الصيغة الثانية، (من الخارج) تعنى من خارج الطبقة العاملة، بالـذات مـن المثقفين البرجوازيين وأكثر من ذلك فهي تقدم محاولة وصفة منطقية لفهم أصل وتطور نظريـة الاشـتراكية العلمية، وهذا يطرح إشكالية ضخمة بالنسبة لنظرية الحزب لذا فإنه من الضروري أن نتعرض لمفهوم لينين هذا بشيء من التحليل النقدي المفصل.

أولا : يجب أن نتذكر هنا أن لينين كان يبرز أفكارا منقولة مباشرة من كارل كاوتسكي، حتى أنه استشـهد بفقرة من كاوتسكي ليعطى مقولاته سندا نظريا.

" لكن الاشتراكية والصراع الطبقي ينشأن جنبا إلى جنب وليس واحدا من الآخر، وكلاهما ينشـأ تحـت ظروف مختلفة، الوعي الاشتراكي الحديث ينشأ فقط على أساس المعرفة العلمية. في الواقع إن علم الاقتصاد الحديث هوشرط للإنتاج الاشتراكي مثله مثل التكنولوجيا الحديثة، والبروليتاريا لا تستطيع أن تخلق إيمانهـا، مهما كانت رغبتها في ذلك، فالاثنان يتطوران من العملية الاجتماعية الحديثـة. إن أداة العلـم ليسـت هـي البروليتاريا ولكن الانتلجنسيا البرجوازية"

أن هذا الرجوع لكاوتسكى مع معرفتنا بماركسيته الميكانيكية، وتطوره السياسي اللاحق يمثل علامة خطر لمن يعملون منا مستفيدين من النظر في التاريخ، وهناك العديد من اللينينيين اللاحقين الـذين انتقـدوا ذلـك المرجع. يعلق تروتسكي على أن لينين نفسه" أقر بعد ذلك الطبيعة المنحرفة ومدى خطأ تلك النظريـة "فـي مقالة حديثة يسمى لوتثيوما جرى هذا الاقتباس من كاوتسكي بأنه تنويري ويرجع إليه كريس هارمان على انه مقولة نخبوية.

المشكلة الأساسية هي انه إذا قبل المرء الصيغة اللينينية – الكاوتسكية بان الوعي السياسي يأتي من المثقفين البرجوازيين وان النضال السياسي يجب أن يتسيد النضال الاقتصادي، فأنه إذن لا يبقى شئ من مبدأ ماركس الأساسي أن تحرر الطبقة العاملة هوفعل الطبقة العاملة نفسها" بل على العكس –بل إن الطبقة العاملة يصبح دورها ثانويا. فتكون الطبقة الثورية حقا ليست الطبقة العاملة. ولكن المثقفين المتمردين. مؤيدين بهذا النظرة البرجوازية التقليدية للحركات الراديكالية على إنها تتكون من قيادة متمردة من الطبقة المتوسطة وقاعدة "بريئة" من العمال. وهكذا نجد أن الفصل بين العمل الذهني والعمل اليدوي الذي يشكل الأساس في المجتمع الطبقي. على العكس من محاولة تخطيه. نجده ينتقل إلى الحركة الاشتراكية ويكرس في الحزب الثوري.

في الواقع فإن كل ذلك العرض للعلم والنظرية والوعي الاشتراكي غير ماركسي على الإطلاق ولكنه يقترب من مثالية وضعية القرن التاسع عشر هكذا يصور العلم أنه يتطور بانعزال تام عن الحياة الاجتماعية – عن الممارسة – إذا تحدثنا عن العلوم الطبيعية. عن الفلسفة، أوعن العلوم الاجتماعية البرجوازية يبدوهذا صحيحا والمفكر ما ينحوإلى الانعزال في برجه العاجي. ولكن في الحقيقة هذا مجرد وهم ينتجه المجتمع الطبقي لهذا السبب يرفض ماركس أن يعترف بأي تاريخ خاص للفلسفة أوأي فرع آخر للمعرفة منفصلا عن تاريخ هذا المجتمع. وإذا تحدثنا عن نظرية الاشتراكية، فإن تلك الاستقلالية الوهمية للعلم البرجوازي لا توجد ولا يجب أن توجد لوكان لتلك النظرية أن تكون ثورية حقا. على العكس فإنها يجب أن ترتبط وتتأثر وتبنى على نشاط الطبقة العاملة. وهكذا يكتب ماركس:-"

" تماما كما يمثل الاقتصاديين الممثلين العلميين للبرجوازية، فالاشتراكيون والشيوعيون هم منظروالبروليتاريا وطالما أن البروليتاريا لم تتطور بالقدر الكافي لتكون نفسها كطبقة، وطالما أن صراع البروليتاريا ضد البرجوازية لم يأخذ طابعا سياسيا، وطالما أن قوى الإنتاج داخل المجتمع البرجوازي نفسه لم تتطور بالقدر الكافي لإعطاء دليل على الشروط المادية الضرورية لتحرر البروليتاريا وخلق مجتمع جديد، يبنى هؤلاء المنظرون مثاليين طوباويين. فيحاولون من أجل علاج كرب الطبقات المقهورة أن يرتجلوا أنظمة مثالية مختلفة، ويبتكروا علوما جديدة. ولكن كما تطور التاريخ، وإذ يأخذ نضال البروليتاريا شكلا أوضح، فانهم ليسوا بحاجة للتفتيش عن علم ما داخل عقولهم، فعليهم فقط أن يراقبوا ما يحدث أمام أعينهم، وأن يجعلوا من أنفسهم أداة التعبير عنه".

ومن ناحية أخرى،فإن الفكر الاشتراكي والماركسي يدحض بوضوح نظرية لينين – كاوتسكي عن"التطور المنفصل". ففكرة الاشتراكية والثورة الاشتراكية نفسها لم تكن شيئا أخترعه أوأكتشفه ماركس، بل نبعت من نضالات الجماهير كجناح أقصى اليسار في الثورات البرجوازية في إنجلترا وفرنسا – لاحظ حركة" المساواتيين" في إنجلترا ومجموعة "بابوف" المتساوين(الذي أشار إليها ماركس على أنها أول حزب شيوعي في العالم). دايا دونايفسكايا في كتاب" الماركسية والحرية" تسجل تأثير الحرب الأهلية الأمريكية ونضال العمال الإنجليز حول يوم العمل على تشكيل كتاب"رأس المال" وكتبت:

"إن هناك ما هوأكثر عمى عن عظمة إسهامات ماركس، أن ترفعه إلى السماء لعبقريته، كأن عبقريته تلك نضجت خارج الصراعات الحقيقية في الفترة التى عاش فيها كأنه استمد المؤامرات من نمووتط ـ ور أفكـاره وليس عن العمال الأحياء الذين يغيرون الواقع الحي بأفعالهم".

حقا لقد تعلم ماركس من العمال الثوار أن الطبقة العاملة لا تستطيع أن تستولي على الدولة فقط، ولكن أن تحطمها.إن التاريخ يمدنا بأمثلة كثيرة على أن العمال يرتفعون عفويا إلى ذروة أعلـى بكثيـر مـن النقابـة وسياسة النقابات: الشارتيون، ثورة١٨٤٨ في فرنسا، كوميونة باريس، العمال الـروس فـي ١٩٠٥ وفـى فبراير١٩١٧، الثورة المجرية ١٩٥٦وأمثلة أخرى عديدة.

ولكننا يجب أن ننقد الطريقة النظرية التي برر بها لينين موقفه في ذلك الوقت لا تحطم كل قاعدة نظريـة لينين في الحزب.

فحقيقة أن العمال يمكن أن يصلوا إلى الوعي الاشتراكي عفويا لا يجب أن يعيدنا إلى النظرة الاشـتراكية الديمقراطية التدريجية، لأن ذلك الوعي لا يتطور تدريجيا أويتراكم بصورة منتظمة وحتمية، على العكس فإن ذلك الوعي يأخذ خطوات عملاقة ومفاجئة للأمام، وقد يعانى من انتكاسات بنفس القدر من الضخامة، وفـى نفس الوقت لا ينتشر الوعي بطريقة متساوية داخل الطبقة. ولذا فإن وعى العمال الاشتراكيين الطليعيين يجب أن ينظم ويمركز ليزيد من تأثيره إلى الحد الأقصى داخل الطبقة ككل. وسنعود ثانية لهذه الأفكار، وخاصـة عند تناولنا لإسهام روزا لكسمبورج.

٤- انشقاق البلاشفة والمناشفة:

بسبب أهمية " ما العمل" النظرية والتاريخية والعملية. ينظر إليه على أنه الوثيقة الأساسية للبلشفية. وهـذا صحيح إلى حد ما ولهذا اشتبكنا معه. ولكنه لم يكن" ما العمل" هوالذي أدى مباشرة إلى انشقاق حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي إلى بلاشفة ومناشفة" على العكس، فقد خدم ذلك الكتاب في الصراع من أجل المؤتمر الثاني للحزب. جامعا المناضلين. على أساس كل روسيا.

حاصلا على التأييد الظاهر للقادة المفكرين للماركسـية الروسـية- بليخـانوف، مارتوف،آكسـل رود، تروتسكي، الخ. لقد كانت محاولة وضع " ما العمل" محل التنفيذ هي التي أدت إلى الانشقاق، أولئـك الـذين ظنوا أنهم متفقون نظريا وجدوا أنفسهم على خلاف عنيف عندما ترجم ذلك النظري إلى قـرارات وقواعـد عملية في المؤتمر الثاني بلندن١٩٠٣.

ولقد وصف لينين بدقة الخلافات التي حدثت في ذلك المؤتمر في كتابه" خطوة للأمام خطوتـان للخلـف" الذي كتبه فى١٩٠٤ بعد الانشقاق. وباختصار فإن ما حدث كان أن اتجاه"إسكرا" الموحد والمهـيمن داخـل الحزب انقسم على صياغة الفقرة الأولى من القواعد التنظيمية كانت صياغة مارتولى: " يعتبر عضـوا فـي حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي كل من يعترف ببرنامجه. ويؤيده ماديا، ويبـدى لـه بانتظـام مساعدة شخصية تحت قيادة إحدى منظماته" في حين كانت الفترة الأولى من مشروع لينين: يعتبر عضوا في

الحزب كل من يعترف ببرنامجه، ويؤيده ماديا، ويشترك شخصيا في إحدى المنظمات الحزبية" حـول هـذه المسألة انقسم "الإسكرايون" إلى فصيلين محددين، أيد بليخانوف لينين، وعنـد التصـويت، حـاز مـارتوف بمساعدة معادى المركزية الاقتصادية، على الأغلبية. ولكن بعد احتجاج اقتصاديي" دابوتشى ديلو" ومنظمـة "البوند" في جلسة لاحقة انتقلت الأغلبية إلى فصيل لينين مما مكنه من حيازة الموافقة على قائمته لهيئة تحرير إسكرا من:- لينين، بليخانوف، ومارتوف بدلا من هيئة التحرير القديمة.(التي كانت تضم بليخانوف، آكسـل رود،ولينين، مارتوف بوتريسوف). رفض مارتوف ومؤيديه هذا القرار واستقال مارتوف من إسكرا. وهكذا تسير التسمية بلاشفة(أي أغلبية)ومناشفة(أي أقلية) إلى التصويت حول هيئة التحرير ولكن لان الفصيلين ظلا أجنحة لنفس الحزب، اقترنت التسميات بهما.

ومن أجل هدف الدراسة يجب طرح سؤالين: أولا إلى أي مدى كانت تلك الخلافات التي تبدووكأنها جدال حول بعض الألفاظ حقيقية؟ ثانيا: ماذا كان تأثير الانقسام على تطور النظرية اللينينية للحزب، علينا إذن لكي نفهم تلك الخلافات أن نضعها في سياقها التاريخي، وهكذا يكتب بول فرولنج:" الذي يلخص الوضع كالآتي:

"من أجل أن نفهم تلك الجدالات، يجب أن نضع أمامنا حالة الحركة الاشتراكية الديمقراطيـة فـي ذلـك الوقت، بشبكاتها الفوضوية وغير المستقرة عن الحلقات والظروف التي كان يعمل بها حزب غيـر شـرعي تحت الحكم الاستبدادي، وفى نفس الوقت، يجب أن نفهم أن الخلافات سياسية حقيقة كانـت لتصـطدم فـي مواجهة النظام الأساسي، خلافات كانت في تلك اللحظة محسوسة فقط ولم يعبر عنها بوضوح في أي مناقشة.

استشعر لينين أخطارا جسيمة في المستقبل وأراد أن يدفعها عن طريق تنظيم الحزب بطريقة محكمة. لقـد كان واعيا للمهام الجسيمة التي سيجابهها الحزب في الثورة المقبلة، وأراد أن يجعل من الحزب سلاحا جديدا وأخيرا لقد كان واثقا انه الوحيد من مجموعة إسكرا القادر على قيادة الحزب بالثقـة والتصـميم اللازمـين. وكانت الطريقة الموضوعية التي توصل بها إلى قناعاته تلك هي التي تفسر عناده...

إن صياغة الأطروحتين للفقرة الأولى يعطى ملمحا عن الخلاف. من المؤكد أن مارتوف كان يريد حزبـا مائع الحدود متماشيا مع الحالة الواقعية للحركة، مع استقلالية عالية للمجموعات الفردية – حزبـا تحريفيـا يجمع كل من يسمى نفسه اشتراكيا. على حين كان لينين يرى أهمية تخطى استقلالية وانعزالية المجموعـات المحلية وتجنب أخطار أفكارها السطحية والمتحجرة، ناهينا عن تطورها السياسي المتخاف. لقد كـان يريـد حزبا منظما بإحكام وصرامة. يكون كطليعة للطبقة مرتبطا ارتباطا وثيقا بها، وفـى نفـس الوقـت متميـزا بوضوح عنها".

هناك أيضا جانب آخر للجدال ركز عليه لينين. فهناك تفسير آخر محتمل لصياغة مارتوف أن المنظمات الحزبية ستكون مخولة اعتبار أي شخص يساعدها تحت إشرافها عضوا بالحزب. وأن اللجان ستقوم بتحديـد المهام وتراقب تنفيذها " ويعلق لينين:

"ولكن هذه المهام الخاصة لن تشمل أبدا بالطبع جمهور العمال، آلاف البروليتاريين(الذي يتحـدث عـنهم الرفيق آكسل رود والرفيق مارتينوف)، وسيعهد بها في غالب الأحيان إلى الأساتذة...إلى الطـلاب... إلـى الشباب الثوريين......وبكلمة: إما أن تبقى صيغة الرفيق مارتينوف حبرا على ورق، جملة فارغة، وإمـا أن تصير على الأخص وبوجه الحصر تقريبا" المثقفين المشبعين كليا بالفردية البرجوازية " والـذين لا يريـدون الدخول في المنظمة، إن صيغة مارتينوف تدافع بالكلام عن مصالح فئات البروليتاريا الواسعة. إما من حيـث الواقع فلن تخدم هذه الصيغة سوى مصالح المثقفين البرجـوازيين الـذين ينفـرون مـن النظـام والتنظـيم البروليتاريين".

تركز رايا دونايسكايا أيضا على هذه النقطة كمحور الخلاف:

" لقد كان الانتظام من خلال اللجان المحلية أعلى من الالتزام اللفظي بالماركسية، ومن الدعايـة للرؤيـة الماركسية ومن الحصول على بطاقة عضوية... لقد أصر لينين على أن المثقـف الماركسـي يحتـاج إلـى المراقبة الأيديولوجية من البروليتاريا في المحليات، وإلا فانه يقاوم ليس فقط الانتظام على مستوى المحليـات ولكن أيضا يقاوم أن ينظم بالمضمون الاقتصادي لثورة الروسية."

لقد كانت تلك الرخاوة تجاه المثقفين البرجوازيين هي السبب في العداء المارتوفى تجاه لينين (وهذا ينطبق تماما على نمط الفروق البلشيفة- المنشفية المقبلة). ولكن بصدد ذلك الانحراف بالذات لم يحتاج لينين إلى نبذ الاشتراكية الديمقراطية الكاوتسكية الأرثوذكسية. إن وجهات النظر التنظيمية للمناشفة يمكن أن تعـد داخـل التيار الانتهازي العام داخل الاشتراكية الديمقراطية،وكانوا هم أيضـا يستشـهدون بكاوتسـكى. إن النقطـة الجوهرية في نظرية لينين والتي مكنته من تطوير نهج ماركس للتنظيم، هي مسألة التفرقة بين حزب الطبقـة والطبقة ذاتها، والتي وضحها لينين في الجدال حول شروط العضوية:

كلما كانت منظماتنا الحزبية أقوى، مكونه من اشتراكيين ديمقراطيين حقيقيين، قل التذبذب وعدم الاستقرار داخل الحزب، واتسع وتنوع وأصبح أكثر إثمارا تأثير الحزب على عناصر جماهير الطبقـة العاملـة التـي تحوطه ويقودها. إن الحزب كطليعة الطبقة، لا يجب أن يخلط بينه وبين الطبقة ككل".

إنها تلك الجملة الأخيرة هي التي تعلن القطع مع منظور ماركس للمنظمة حيث الفرق بين الحزب والطبقة غير واضح. وتعلن قطيعة أكبر مع المنظور الاشتراكي الديمقراطي التقليدي للحزب كممثـل للطبقـة. ومـا يجعل تلك القطيعة دائمة، ويجعل لها أهمية عالمية وليست فقط روسية هوكون لينين يبنى تلك الرؤيـة لـيس على أساس ظروف السرية في روسيا أوعلى أساس النظرية الخاطئة لجلب الوعي من الخارج ولكن يبنيهـا على الحالة الموضوعية للبروليتاريا في النظام الرأسمالي.

"بالضبط لان هناك فروقات في درجات الوعي وفى درجات النشاط يجب أن تكون هنـاك فـروق فـي درجات القرب من الحزب.. إنها ستكون ذيلية أن نظن أن الطبقة ككل، أوحتى الطبقة ككل تقريبا، تسـتطيع تحت الرأسمالية أن ترتفع إلى درجة وعى ونشاط طليعتها، حزبها الاشتراكي الديمقراطي."

ولاتهام لينين في هذه الفقرة لخصومة "بالذيلية" أهمية عظيمة، فهويسـتخدمها بمعنـى(الحتميـة)، وذلـك للمنظور الذي أودى بعد ذلك بالأممية الثانية، وكان التباين بين المنظور البلشفي الفاعل الثوري للعالم، وبـين المنظور المنشفي الحتمي التذيلي للعالم، يقول لينين هنا "خطوة للأمام،خطوتان للخلف" ولا يبرر ذلك أفضـل من إحدى جدالات لينين مع تروتسكي

"من ضمن المحاولات التي تبرز عند محاولة تعضيد صياغة مارتوف تلك الخاصة بالرفيق تروتسكي أن الانتهازية تنتج من أسباب أكثر تعقيداً، وأكثر عمقا من بند أوآخر في النظام الداخلي: إنها تنتج عن التطـور النسبي للديمقراطية البرجوازية والبروليتاريا" إن النقطة ليست أن البنود المختلفة في النظام الداخلي قد تخلـق الانتهازية، ولكن أنه بمساعدتها يمكن أن تخلق سلاحا ضد الانتهازية. كلما كانت أسباب عميقة " لهو"ذيليـة" من الطراز الأول لقد حلل تروتسكي وفسر ظاهرة الانتهازية وتركها على ذلك. في حين أن لينين يوافق على التفسير ولكنه يريد أن يستخدمه لفعل شئ ضد الانتهازية.

الفصل الثالث

لينين من البلشفية الروسية

إلى الأممية الشيوعية

كما أظهرنا- فبحلول عام ١٩٠٤ كان لينين قد طور عددا من الأفكار شكلت تقدما أكيـد علـى الـرأي المقبول بصفة عامة حول الحزب.لهذا السبب، وبسبب الاستمرارية التاريخية للفصيل البلشفي منـذ انشـقاق ١٩٠٥حتى ثورة١٩١٧.فقد تم على نطاق واسع افتراض أن لينين كانت لديه منذ البداية تقريبا نظرية الحزب الواضحة الخاصة به، والمختلفة تماما عن تلك الخاصة بالاشتراكية الديمقراطية فـي الغـرب. إلا أن هـذا هوبالضبط خطأ أن نقرأ في الماضي أفكار لم تصبح واضحة إلا بعد وقت طويل لاحق. والواقع أن لينين. في هذه المرحلة، لم يكن واعيا بأنه قد اختلف بشكل جوهري عن الأرثوذكسية الاشتراكية – الديمقراطيـة لقـد اعتبر المناشفة صنوا للمرجعية البرنشتاينية. وأعتبر نفسه صنوا لتيار بيبل – كاوتسكي السائد فـي الحـزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني.

يكثر في أعمال لينين في ذلك الوقت –ويظل الأمر كذلك على مدى فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى – الاستشهاد بكاوتسكى باعتباره الحجة الماركسية. بل ولم يسمح لينين لميل كاوتسكي لتفضيل المناشفة بالتأثير على هذا الحكم، فكان يرده دائما لجهل كاوتسكى بحقيقة الواقع في روسيا.

وفى وقت متأخر مثل أغسطس ١٩١٣ كان بوسع لينين أن يشير إلى بيبل بوصفه" قائدا عماليا نموذجيـا" وأن يمتدحه بوصفه موضح "أساسيات التكتيكات البرلمانية الديمقراطية الاشتراكية (والأممية)، وهى موجهـة دائما نحوتحقيق الهدف النهائي. فيما يتعلق بادراك الطابع المحافظ للحزب الاشتراكي الديمقراطي الألمـاني، فليس فقط لكسمبورج، التي تعاملت مع قادته مباشرة، وإنما أيضا تروتسكي كان أكثر تقدما من لينين بكثيـر. ففي وقت مبكر كعام ١٩٠٦حذر تروتسكي من أن:

الأحزاب الاشتراكية الأوروبية – وبصفة خاصة أكبرها، الحزب الاشـتراكي الـديمقراطي الألمـاني – طورت طابعها المحافظ بالتناسب مع تبنى الجماهير للاشتراكية وبمقدار ما أصبحت هذه الجمـاهير منظمـة ومنضبطة. كنتيجة لهذا، فإن الاشتراكية الديمقراطية بوصفها منظمة تحمل الخبرة السياسية للبروليتاريا، قـد تصبح في لحظة معينة عائقا مباشرا أمام الصراع المفتوح بين العمال والرجعية البرجوازية.

إننا نؤكد على هذه النقطة لدحض ا لنزعة الشائعة المتمثلة في المبالغة في وحدة"فكر لينين" وجعل أفكـاره نظاما متسقا تماما لكل شئ في مكانه المناسب من البداية للنهاية. كما علق تروتسكي ذات مرة:. لوكان لينين في ١٩٠٣ قد فهم وصاغ كل شئ ما كان لازما للأزمنة التالية:

ولكان ما تبقى من حياته قد اشتمل على تكرارات فقط. وهذا ليس واقع الأمر على الإطلاق" هناك فجـوة كبيرة بين نظرية لينين حول الحزب في ١٩٠٣و١٩٠٤ وتلك الخاصة بعـام١٩١٩ عنـد إنشـاء الأمميـة الشيوعية. لقد طور لينين هذه النظرية. ليس مرة واحدة، وإنما خلال سلسلة مـن ردود الفعـل والتعميمـات المستقاة من سير الصراع الطبقي. وبالتالي، وكما هوالأمر مع ماركس، فإن فهم هذه النظرية لا يمكن اشتقاقه من نص أونصين أساسيين، وإنما ينبغي استخلاصه من دراسة ممارسة لينين ككل.

١- تأثير ١٩٠٥:

بعد انشقاق١٩٠٣، فإن الحدث التالي الذي كان له تأثير كبير على نظرية لينـين حـول الحـزب كـان ثورة١٩٠٥. كان الأثر الأول لـ ١٩٠٥ هوتعميق الانشقاق بين البلاشفة. كان الانقسام فـي الأصـل حـول التنظيم فقط، وكان يبدوغير متصل بمسائل البرنامج أوالاستراتيجية، أما الآن فقد ظهر اختلاف جوهري فـي تقدير القوى الدافعة للثورة. لقد قبل لينين، كما أشرنا أعلاه، بالطابع البرجوازي للثـورة، ولكنـه رأى انـه سيستعين أن تقوم البروليتاريا متحالفة مع الفلاحين بالثورة البرجوازيـة، وذلـك بسـبب الطـابع المحـافظ والضعيف والجبان للبرجوازية الروسية. وسعيا منا، لأغراض العمل الثوري، لجعل موقفـه هـذا ملموسـا. جادل لينين بأن الاشتراكيين الديمقراطيين عليهم إلغاء تأثير الليبراليين البرجوازيين(الكاديـت..الـخ) علـى الفلاحين، ثم القيام بتمرد بروليتاري- فلاحى مشترك للاطاحة بالاتوقراطية. وستنشأ عن الانتفاضة الناجحـة حكومة ثورية مؤقتة تتكون من حزب العمال الثوريين(الاشتراكيين الديمقراطيين) وحزب الفلاحين الثـوريين (الاشتراكيين الثوريين)

وستمثل هذه الحكومة "الدكتاتورية الديمقراطية للبروليتاريا والفلاحين" وبعد فترة وجيزة من الإجـراءات الحيوية التي ستكتسح جميع بقايا الإقطاع. ستدعوالحكومة الثورية الانتقالية لجمعية تأسيسية. ونظـرا لكـون غالبية السكان من الفلاحين فإن الجمعية التأسيسية سـتكون بالضـرورة معاديـة للاشـتراكية. وسيصـبح الاشتراكيون الديمقراطيون آنذاك حزبا معارضا يقود الصراع من أجل الاشتراكية. أصر لينين على أنه بهذه الطريقة ستكون الثورة الروسية شاملة(مثل الثورة الفرنسية العظيمة. ولن تكون تسوية رديئـة مثـل ألمانيـا فى١٨٤٨) وستأمن أفضل ظروف ممكنة لمعارك البروليتاريا المستقبلية.

إلا أن المناشفة رفضوا هذا التصور. لقد مالوا أكثر فأكثر إلى الرأي القائل بأنه حيث أن الثـورة كانـت برجوازية، فإن قوتها الدافعة يجب أن تكون برجوازية مع وجود دور ثانوي فقـط للبروليتاريـا.كـان دور الاشتراكيون الديمقراطيين هوالضغط على الليبراليين البرجوازيين بحيث"يثوروهم"، ولكن في نفـس الوقـت دون أن "يخيفوهم" وقد رفضوا صيغة الدكتاتورية الديمقراطية للبروليتاريا والفلاحين كما رفضوا المشـاركة في حكومة ثورية مؤقتة باعتبار أن هذا من شأنه أن يدفع الطبقات البرجوازية للارتداد عن الثورة مما يؤدى إلى تقليص مداها" أثناء صعود الثورة جرفت الأحداث المناشفة على نطاق واسع ولكن ما أن بدأت الحركـة تتعرض للجذر حتى عبروا اكثر فاكثر عن الندم على المواقف والأفعال المتطرفة التي دفعوا إليهـا- وهـى عملية بلغت أوجها في ملاحظة بليخانوف الشاذة." لم يكن ينبغي أن نحمل السلاح".

اقتنع لينين من خلال مشاهدته لسلوك المناشفة بالصلة بين الانتهازية في التنظيم والانتهازية في السياسة. هكذا فعلى الرغم من أن العمل المشترك للعمال البلاشفة والمناشفة في الصراعات الثورية انتج ضغوطا قوية للوحـدة استجاب لها لينين من الناحية الصورية، فقد أصبح أكثر إصرارا من أي وقت سابق على تقوية التنظيم المسـتقل لتياره. في المقال الذي كتبه عام ١٩١٠ حول "المعنى التاريخي للصراع الحزبي الداخلي في روسيا" يركز لينين على موضوع دور البروليتاريا في الثورة. كاتبا أن البلاشفة كتيار اتخذوا شكلا محددا في ربيع وصيف١٩٠٥.

الأثر الثاني للثورة كان حدوث تحول في فهم لينين للعلاقة بين الحزب والطبقة. في ما العمل؟ كان لينـين قد برر رأيه حول الحزب بحجة أن الاشتراكية يجب أن تقدم للطبقة العاملة"من الخارج"، وأن الطبقة العاملـة لا تستطيع أن ترتفع بشكل عفوي فوق مستوى النقابوية. في مواجهة الإنجازات الثوريـة الهائلـة والعفويـة للطبقة العاملة الروسية، تتغير تماما لهجة كتابات لينين.

لا يوجد أدنى شك في أن الثورة ستعلم جماهير العمال في روسيا الاشتراكية الديمقراطية.... فـي وقـت كهذا تشعر الطبقة العاملة برغبة ملحة غريزية في العمل الثوري المفتـوح إن الطبقـة العاملـة اشـتراكية ديمقراطية غريزيا وعفويا.

هنا يلاحظ لينين" كيف أن الغريزة الأولية لحركة الطبقة العاملة قادرة على تصحيح مفاهيم أعظم العقـول" وهويصبح منذ هذه النقطة محترسا إزاء صياغات ما العمل؟. إنه يكتب فى١٩٠٧: ما العمل هوتصحيح مثير للجدل للتحريفات" الاقتصادية" وسيكون من الخطأ النظر للكتيب في أي ضوء آخر." لم تتضمن إعادة التقيـيم هذه، مع ذلك، عودة لموقف عفوي أوقدري من مهام الحزب – بل على العكس، لقد شهد هذا المجال بالتحديد أشد هجوم للينين على المناشفة.

" انهم جنود جيدون، ولكنهم قادة سيئون، أنهم يحطون من شأن الفهم المادي للتاريخ إهمالهم للدور الحيوي والقيادي والإرشادي في التاريخ الذي يمكن أن تلعبه، ويجب أن تلعبه، الأحزاب التي تفهم الشروط الماديـة للثورة والتي وضعت نفسها على راس الطبقات التقدمية."

يحافظ لينين على القطع الذي حققه مع القدرية الاقتصادية في ما العمل؟ وخطوة للأمام خطوتان للخلـف ويطوره. ولكنه يخلصه من الأساس النخبوي الذي كان قد صبغه به. الصياغات في تكتيكات شديدة الجدليـة. لا شك أن الثورة ستعلمنا وستعلم جماهير الشعب ولكن السؤال الذي يواجه الحزب النضالي الآن هـو: هـل نستطيع أن نعلم الثورة أي شئ؟

كانت النتيجة التابعة لهذا التحول النظري هي الصراع الذي شنه لينين داخل الفصيل البلشفي ضد تـأثير" الثوريين المحترفين"أورجال اللجان"الذين كان قد شدد كثيرا على أهميتهم قبل سنة أوسنتين. في فترة النشـاط السري السابقة على الثورة وفر" رجال اللجان" هؤلاء الاستقرار والخبرة الضروريين لإنشاء القوة للحزب في مثل هذه الظروف الصعبة. إلا أنهم أصبحوا أيضا فريسة لروتينية معنية كشفت عن خصائصها الرجعية مـع قدوم الثورة. لقد كانوا بصفة خاصة التجسيد الملموس لنظرية " تقديم الاشتراكية للطبقة العاملة من الخـارج" وهكذا مالوا نحوموقف متعال على العمال مما أسفر عن أنه من الناحية العملية لم يكن هناك أي عمـال فـي اللجان البلشفية.

طرحت مسألة إدخال العمال في اللجان في المؤتمر الثالث للبلاشفة فـي ابريـل١٩٠٥ هكـذا وصـفت كروبسكايا الجدال:

دافع فلاديمير إيليتش بقوة عن فكرة ضم عمال. ووقف إلى جانب الفكرة أيضا الأشخاص الذين كانوا فـي الخارج وبوجدانوف والكاتبة. ووقف رجال اللجان ضدها. وقد صارت المناقشة حامية جدا.... فـي كلمتـه خلال هذه المناقشة قال فلاديمير إيليش :

"اعتقد أن علينا نتناول المسالة بشكل أوسع. إن إدخال العمال إلى اللجان ليس مهمة تعليمية فقـط. وإنمـا سياسية العمال لديهم غريزة طبقية، وحتى مع خبرة سياسية ضئيلة، فانهم يصبحون سريعا جـدا اشـتراكيين ديمقراطيين يعتمد عليهم.إنني أرغب أن أرى ثمانية عمال في لجاننا أمام كل مثقفين..."

عندما قال ميخائيلوف (بستولوفسكى)هكذا ففي النشاط العملي ينفذ المثقفون متطلبات صغيرة في حين ينفذ العمال متطلبات كبيرة جدا، صرخ فلاديمير إيليتش قائلا:هذا صحيح تماما! وقد اختفى صوته فـي ضـجيج كورس يقول"غير صحيح! "من جانب رجال اللجان.وعندما قال رومياتستيف" هناك عامل واحد فقط في لجنة بطرس برج، رغم أن العمل هناك ظل قائما لمدة خمس عشرة سنة "صرخ فلاديمير إيليتش قائلا: يا للعار".

إن الجدال حول اشتراك العمال في اللجان، والذي انهزم فيه لينين أمام المؤتمر، كان جانبا واحد فقط مـن صراع لينين ضد الطائفية المحافظة في صفوف البلاشفة. وكان موقف الحزب من السوفيت قضـية أخـرى اصطدم حولها لينين مع مؤيديه. لقد وصف تروتسكي، رئيس السوفيت، رد الفعل الأولـى للبلاشـفة لهـذه المنظمة التاريخية.

"لقد أصيبت لجنة البلاشفة في بطرسبرج بالفزع أول الأمر من هذا الإبداع لتمثيل غير حزبي للجمـاهير المحاربة. ولم تجد شيئا تفعله أفضل من توجيه إنذار للسوفيت: التبني الفوري لبرنامج اشتراكي ديمقراطـي، أوالحل. وقد أهمل سوفيت بطرسبرج ككل، بما في ذلك فريق العمال البلاشفة، هذا الإنذار دون أن ترمش له عين.

رأى لينين، مع أنه كان في الخارج، عقم هذا المنهج وعارضة في رسالة بعث بها لجريدة الحزب" نوفايـا زيزن"،جادل فيها بأن المسألة لم تكن مسألة السوفيت أوالحزب، وإنما مسألة "سوفيت مندوبي العمال والحزب" كما جادل بأنه ليس من المستحيل بالنسبة للسوفيت أن يتبع بالكامل لحزب واحد".

كتب لينين:" في اعتقادي أن سوفيت مندوبي العمال، كمركز ثوري يوفر قيادة سياسـية، ليسـت منظمـة شديدة الاتساع، بل على العكس هي منظمة شديدة الضيق. ينبغي أن يعلن السوفيت نفسـه كحكومـة ثوريـة مؤقتة، أوأن يكون مثل هذه الحكومة الفارق الجوهري بين "رجال اللجان" ولينين هوأن رجال اللجـان أرادوا أن يطبقوا في الثورة مفهوم الحزب الذي عمل في فترة ما قبل الثورة، في حين أن لينين أراد أن يعيد تنظـيم الحزب بالكامل بحيث يشمل القوى الجديدة ويواجه المهام الجديدة التي ألقت بها الثورة.

إذا فشلنا في إظهار مبادرة جريئة في تكوين منظمات جديدة، سيكون علينا أن نتخلى عن كـل ادعاءاتنـا بالقيام بدور الطليعة بوصفها ادعاءات لا تقوم على أساس. إذا وقفنا بعجز عند الحدود والأشـكال والتخـوم

المميزة للجان والمجموعات واللقاءات والحلقات، فإننا نكون قد أثبتنا عجزنا لا غير. إن آلاف الحلقات تظهر الآن في كل مكان بدون مساعدتنا، بدون أي برنامج أوهدف محدد، وإنما فقط تحت تـأثير الظـروف...... فلندع جميع هذه الحلقات ماعدا التي تجاهر بأنها ليست اشتراكية ديمقراطية، تنضم للحزب مباشرة أوتنسـاب لجانب الحزب. في الحالة الأخيرة لا يجب أن نطلب أن يقبلوا ببرنامجنا أوأن يدخلوا بالضرورة في علاقـات تنظيمية معنا. يكفينا مزاجهم الاحتجاجي وتعاطفهم مع قضية الاشتراكية الديمقراطية الثورية الأممية. بشرط أن يعمل الاشتراكيون الديمقراطيون بفاعلية بينهم.

قاومت آلة الحزب مسعى لينين إلا أن مجرى الأحداث كان في صفه. بحلول نوفمبر ١٩٠٥ كان بوسعه أن يلاحظ برضى:

في المؤتمر الثالث للحزب اقترحت أن يكون هناك حوالي ثمانية عمال أمام اثنين من المثقفين فـي لجـان الحزب. كم يبدوهذا الاقتراح عتيقا اليوم!الآن علينا أن نأمل أن يكون لدى منظمات الحزب الجديـدة مثقـف اشتراكي ديمقراطي واحد أمام مئات من العمال الاشتراكيين الديمقراطيين. كما أن إعادة التقييم النظرية التي أجراها لينين للقدرات العفوية للبروليتاريا لم تضمن عودة للقدرية الاقتصادية. فإن آراؤه الجديدة حول تنظيم الحزب لم تعن أيضا تبنيه لموقف المناشفة الخاص بالحزب الواسع.الباب المفتوح للحزب الذي تصوره لينين في الفترة الثورية كان ممكنا فقط على أساس الاستعداد القوى للحزب سلفا.

هل تتعرض الاشتراكية الديمقراطية للخطر بتحقيق الخطة التي نقترحها؟ قد يقال إن الخطـر فـي تـدفق مفاجئ لأعداد واسعة من غير الاشتراكيين الديمقراطيين إلى الحزب. إذا حدث ذلك، سيذوب الحـزب بـين الجماهير. وسيتوقف إن يكون الطليعة الواعية لطبقته. وسينخفض دوره إلى دور الذيل، سيعنى ذلـك فتـرة يرثى لها جدا بالفعل. ولا شك أن هـذا الخطـر يمكـن أن يصـبح خطيـرا جـدا إذا أظهرنـا أي ميـل نحوالديماجوجية. أوإذا افتقدنا المبادئ الحزبية...بالكامل، أوإذا كانت هذه المبادئ ضعيفة ومزعزعة. ولكـن الواقع هوأنه لا توجد أي ميل نحوالديماجوجية... لقد طالبنا أولئك الذين ينضمون للحزب بـالوعي الطبقـي، وأصررنا على الأهمية الهائلة للاستمرارية في تطور الحزب، ودعونا للانضـباط وطالبنـا بتـدريب كـل عضوبالحزب في واحدة أوأخرى من منظمات الحزب...لا تنسوا أنه في كل حزب حي ومتنـامي سـتكون هناك دائما عناصر عدم استقرار وتذبذب وتردد. ولكن هذه العناصر يمكن التأثير عليها، وسوف لتأثير النواة الثابتة والصلبة من الاشتراكيين الديمقراطيين".

هكذا فان خبرة"البروفة العظيمة" للثورة الروسية رفعت نظرية لينين حول الحزب إلى مستوى جديد. لقـد عمقت معارضته للانتهازية وقوت عزمه على بناء، حزب ثوري على وجه التحديد. كما جعلت فهمه للعلاقة بين الحزب والطبقة أوضح. يظل الحزب طليعة متميزة عن الطبقة ككل، ولكنه الآن حزب الانتلجنسيا التـي تقدم الاشتراكية" من الخارج". ولكن لم تكن فقط فترة صعود الثورة هي التي أثرت على لينين، بل أضـافت فترة الرجعية التي تلت ذلك عناصر هامة لنظريته حول الحزب.

٢- الرجعية تتصلب:

بعد هزيمة ثورة١٩٠٥، ابتلعت الرجعية الرهيبة روسيا لعدد من السنوات. ساد الإحباط في كـل مكـان وتحطمت المنظمات البلشفية.

من الشيق مقارنة رد فعل لينين لهذه الحالة برد فعل هزيمة ثورات١٨٤٨. حل ماركس العصبة الشيوعية وترك المهاجرون في شجارا تهم التافهة وتفرغ للدراسة. أما لينين فقد تثبت باستقتال ببقايا تنظيمه الحزبـي وبفكرة الحزب،مدافعا عنهما بحماسة ضد كل الهجمات. لقد كتب: " دع الرجعية تعربد...الحزب الذي يـنجح في تعزيز نفسه من أجل العمل المثابر في الاتصال بالجماهير؛ حزب الطبقة المتقدمة الذي ينجح في تنظـيم طليعته والذي يواجه قواه بحيث يؤثر بروح اشتراكية ديمقراطية على جميع جوانب حياة البروليتاريا – حزب كهذا سينتصر مهما حدث.

من أجل بناء نوع الحزب الذي كان يرغب فيه، كان على لينين أن يخوض العديد من المعارك الفيصلية. كانت أهم ثلاث معارك ضد(أ)" التصفوية، اليمينية" (ب)" الاستدعائية، اليسارية المتطرفـة" (ج) التوفيقيـة، الوسطية. أصبحت هذه النزعات شديدة الشراسة والتشابك، ولم يكن المستوى النظري للمجادلات التي أفرزتها عاليا جدا على الدوام. وبالتالي فليست هناك حاجة للدخول في تفاصيلها هنا، ولكن ظهرت مع ذلـك بعـض المبادئ العامة الهامة التي تستحق الذكر، والتي أكتشف لينين نفعها في السنوات اللاحقة،أولا، مبدأ أن الحزب ليس فقط منظمة للهجوم، وإنما أيضا للانسحاب المنظم. من بين جميـع الأحـزاب المعارضـة والثوريـة المهزومة، أجرى البلاشفة الانسحاب الأكثر تنظيما، بأقل الخسائر"لجيشهم" ومع الحفاظ على نواة هذا الجيش كأفضل ما يكون. ثانيا: مبدأ الجمع بين العمل غير الشرعي واستخدم" الفرص الشرعية" وثالثا:مبدأ الوصول بالصراع ضد الانتهازية إلى استنتاجاته التنظيمية وإحداث انشقاق مع جميع العناصر غير الثورية.

كانت هذه النقطة الأخيرة هي العلامة المميزة حقا للينينية، وقد أسفرت في ١٩١٢ عن الإنشاء الرسـمي لحزب العمال الاشتراكي الديمقراطي(البلاشفة) كحزب منفصل ومستقل تماما. كان كاوتسـكي قـد صـارع برنشتاين نظريا.ألا أن التراجعيين لم يتم طردهم من الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألمـاني. وصـارعت روزا لكسمبورج كاوتسكي وسط الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني.. ولكنها لم تنشأ منظمـة منفصـلة وكان تروتسكي معارضا لكل من التصفوية والاستدعائية كما كان ناقدا كلينين للخط السياسي للمناشفة. ومـع ذلك فقد عمل بنشاط ضد الانشقاق. وقد شكل هذا تقدما أيضا على الموقف السابق للينـين نفسـه حيـث أن انشقاق١٩٠٣ كان إلى حد كبير عمل المناشفة. وكثيرا ما كان لينين راغبا في الموافقة على إعادة التوحيد في حين أنه الآن أجرى قطعا نهائيا مع المناشفة.

كانت نتيجة صراعات لينين الحازمة أثناء فترة الرجعية هي أن البلاشفة بدءوا الحياة كحزب مستقل تماما في الوقت الذي بدأت فيه حركة الطبقة العاملة تسير مرة أخرى. حصلت الحركة التي كانت تصحوببطء على دفعة عظيمة من مذبحة عمال مناجم الذهب في لينا في ابريل١٩١٢، التي أسفرت عن موجه من الإضرابات والاجتماعات الاحتجاجية والمظاهرات على امتداد البلاد. وهى موجة بلغت أوجها في إضـراب (٤٠٠ألـف عامل بمناسبة أول مايوتدخل لينين في هذه الحالة من خلال إصدار جريدة يومية شرعية" برافدا" ظهر عددها الأول بعد١٨ يوما من مذبحة لينا. جمعت"برافدا" بين خط سيأسى ثوري لا يلين وتقارير عديدة مـن العمـال أنفسهم يسجلون فيها ظروفهم وصراعاتهم اليومية. في سنة واحدة، نشرت ١١ألف رسـالة ومسـاهمة مـن العمال. بلغ التوزيع اليومي لبرافدا أكثر من ٤٠ألف نسمه، وعوض تكوين مجموعات عمالية لجمـع المـال للجريدة افتقاد حزب شرعي جماهيري. على أساس التحليل المجهد لعملية جمع المال هذه، أظهـر لينـين أن البلاشفة كانوا قد كسبوا هيمنة حقيقية على العمال الواعين سياسيا. في ١٩١٣، حصلت برافدا على تبرعـات من ٢١٨١ مجموعة، في حين حصلت البرافدا المنشقية على تبرعات مـن ٦٦١ مجموعـة، وفـى ١٩١٤، وحتى ١٣ مايو، كان رقم التبرعات لبرافدا ٢٨٧٣، في مواجهة ٦٧١للمناشفة. من هـذا اسـتنتج لينـين أن "البرافدية والقرارات البرافدية والتكتيكات البرافدية وحدت أربعة أخماس العمال الواعين طبقيا في روسـيا". هكذا أصبح لينين أول ثوري يبنى حزبا يتكون من الثوريين فقط، دون أي جناح إصلاحي أوانتهازي، ولديـه أيضا قاعدة ضخمة داخل الطبقة العاملة.

٣- القسم الأكثر ثورية في الأممية الثانية:

من المفيد عند هذه النقطة أن نعتبر الحزب البلشفي، التجسيد الملموس لأفكار لينين حول الحزب، مقارنين إياه بالأحزاب الاشتراكية الديمقراطية الأكثر أرثوذكسية.

أولا: كان البلاشفة بالطبع، حزبا غير شرعي يعمل في بلد لم تكن فيه حريـات ديمقراطيـة ولا نقابـات عمالية فعالة، في حين أن أغلب الاشتراكيات الديمقراطية الغربية كانت قد حصلت على شرعيتها منذ وقـت طويل. وبالتالي لم يطور البلاشفة ولم يكن بوسعهم أن يطورا –كما فعل مثلا الحزب الاشتراكي الألمـاني – شريحة واسعة من الموظفين تتكون من المسئولين المحليين والقادة النقابيين وأعضاء المجالس المحلية، الـخ. هذه شريحة تكون عرضة بالضرورة لضغوط "اعتدالية" قوية من بيئتها.حيث أنهم يرتفعون إلى موقع متميـز إزاء العمال العاديين، يجد هؤلاء الموظفون أن لديهم دورا محددا يلعبونه ليس فقط داخل الحركـة العماليـة. وإنما أيضا داخل الرأسمالية. كوسطاء بين الطبقات، ولديهم بالتالي مصلحة مباشرة في السلام الاجتمـاعي. أنهم يشكلون إذن قوة محافظة كبيرة. عملت هذه الشريحة داخل الاشتراكية الديموقراطية الدولية كقاعدة دائمة للإصلاحية. كون أن القيادة البلشفية وكادرها المحلى كانوا أقرب إلى خلية السجن والمنفى السيبيرى منهم إلى مناصب الوزارية أوالقيادة النقابية وكون أن الحزب نفسه لم يكن لديه أكثر من جهاز إداري مهلهل. فان ذلك قد أعطى الحزب مناعة نسبية (وأن لم تكن مطلقة) أمام الروتينية البيروقراطية.

ثانيا: كان الحزب البلشفي بروليتاري الثقل في تركيبة أعطى ديفيد لين البيان التفصيلي التـالي للعضـوية البلشفية لعام ١٩٠٥: العمال٦١,٩%، الموظفون الكتابيون ٢٧,٤%، آخرون ٥,٩%، وهويستنتج "إذا حكمنـا على أساس المستويات السفلي للحزب وبصفة خاصة تأييده الشعبي" يمكن أن يقال أن البلاشفة كـانوا حزبـا عماليا في حين أنه "يبدومن المرجح أن المناشفة كان لديهم أعضاء "برجوازيون صغار أكثر ومؤيدون مـن الطبقة العاملة اقل في المستويات الأدنى مقارنة بالبلاشفة "إثناء فترة الرجعية كان هناك خروج كبير للمثقفين من الحركة في حين أن خلايا المصانع رغم عزلتها بقيت على قيد الحياة بشكل افضل مما أدى إلـى زيـادة الطابع البروليتاري للحزب يؤكد هذه الصورة تحليل لينين المذكور أعلاه لعمليات جمـع المـال بـين١٩١٢ و١٩١٤ من بين جميع التبرعات للبرافدا في الربع الأول من١٩١٤. جاء ٨٧% من العمال و١٣% من غير العمال. في حين أن ٤٤% فقط من التبرعات للجرائد المنشفية جاءت من العمال و٥٦% من غير العمال.

أدى مزيج الوضع غير الشرعي للحزب وتركيبه البروليتاري إلى بنية تنظيمية مختلفة جذريا عن التقليـد الاشتراكي الديمقراطي العادي. فعلى الرغم من بلاغتهم الثورية، كانت الاستراتيجية الأساسية لأغاب أحزاب الأممية الثانية هي تحقيق الأغلبية البرلمانية. وبالتالي. فان الوحدات القاعدية لهذا الأحزاب كانت منظمة على أسس سكنية أوجغرافية. بحيث تسهل تعبئة أعضاء الحزب للحملات الانتخابية في مختاف الدوائر الانتخابية. أما في روسيا فان غياب الانتخابات البرلمانية(الانتخابات التي جرت للدوما كانت علـى أسـاس المصـانع) والحاجة للسرية دفعا البلاشفة إلى إقامة تنظيم على أساس المصانع يسجل أوسيب بياتينتسكى. وهوبلشفي قديم أنه أثناء جميع الفترات، كان التنظيم الحزبي الأدنى للبلاشفة يوجد في مكان العمل وليس في مكان السـكن." وفرت هذه البنية. على الرغم من صغر حجم الحزب البلشفي، علاقة أوثق بين الحزب والعمال من تلك التي حققها الأحزاب الاشتراكية الديموقراطية، حيث كان يتم الاحتفاظ بالصلة بالمصانع بشكل غير مباشر فقط من خلال السيطرة على النقابات. وحيث قام تقسيم عمل معين الصراع الصناعي الذي تولته النقابات والصـراع السياسي الذي تولاه الحزب لم يحدث مثل هذا الانفصال الفعلي في حالة البلاشفة لقد وصف بياتنتسكى عمـل خلايا المصانع البلشفية:

في روسيا القيصرية استخدمت الخلايا جميع الشكاوى في المصانع فظاظة الملاحظين.الخصم من الأجـر الغرامات عدم توفير الرعاية الطبية في الحوادث... الخ في التحريض الشفوي في أماكن العمل مـن خـلال المنشورات. والاجتماعات عند أبواب المصانع. أوفي ساحات المصانع والاجتماعات المنفصلة للعمال الأكثر وعيا طبقيا وثورية أظهر البلاشفة دائما الصلة بين إساءة المعاملة في المصانع وبين حكم الأوتوقراطيـة... وفى نفس الوقت تم ربط الأوتوقراطية في تحريض خلايا الحزب بالنظام الرأسمالي بحيث انـه عنـد بدايـة تطور الحركة العمالية، أقام البلاشفة ارتباطا بين الصراع الاقتصادي والصرع السياسي.

هكذا فان الحزب البلشفي لم يكن مجرد ممثل سيأسى للطبقة العاملة بل كان حزبا قتاليا تدخلياً يسعى لقيادة وإرشاد الطبقة في كل معاركها.

كان من الأمور الهامة أيضا شباب عضوية الحزب فى١٩٠٧ كان حوالي ٢٢% من الأعضاء يبلغون اقل من ٢٠ سنة من العمر وكان ٣٧% بين٢٠و٢٤و١٦% بين ٢٥و٢٩ علق تروتسكي على دلالة هذا الأمـر: عندما كانت البلشفية تحت الأرض كانت دائما حزبا من العمال الشباب اعتمد المناشفة على الشـريحة العليـا الماهرة الأكثر احتراما ودائما ما افتخروا بذلك ونظروا باحتقار للبلاشفة وقد أظهرت لهم الأحـداث التاليـة خطأهم بقسوة في اللحظة الحاسمة قام الشباب بسحب الشريحة الأكثر نضجا وحتى العجزة وراءهم " ويلاحظ ليون أن البلاشفة كانوا اصغر من المناشفة في المستويات الأدنى للتنظيم الحزبي وقد صح ذلك بين النشطين أكثر منه بين الأعضاء العاديين يشير هذا إلى أن البنية التنظيمية البلشفية سمحت للشباب بالتقدم إلى مواقـع المسئولية بسهولة اكثر من البنية التنظيمية المنشفية.... سياسيا ربما وفر هؤلاء الشباب قيادة اكثر ديناميكيـة ونشاطها للفصيل البلشفي. ولا شك أن شباب الحزب كان عاملا هاما آخـر فـي تحريـره مـن الروتينيـة المحافظة.

أخيرا كان الحزب البلشفي هيئة منضبطة لقد وصف النظام الداخلي للحزب بالمركزية الديموقراطية ولكن هذه الجملة في حد ذاتها ليست لها دلالة عظيمة كقاعدة تنظيمية لم تكن على الإطلاق لينينية تحديدا حيث أنها كانت مقبولة نظريا من جانب المناشفة والعديد من الأحزاب الاشتراكية الديموقراطية الأخرى ما كان مهمـا هوالتفسير المعطى للمركزية الديمقراطية عمليا لقد عرفها لينين بأنها وحدة العمل، وحرية المناقشـة والنقـد" وقد عنى بذلك حرية النقد داخل حدود برنامج الحزب وحتى يتم التوصل إلى قرار محدد ثم تنفيذ هذا القـرار بواسطة الحزب ككل واحد.

لا يستطيع حزب يحتوى على جناح ثوري وآخر إصلاحي أي مجموعات لها أهداف مختلفة جوهريا -أن يكون عمليا منظمة منضبطة هكذا فعلى الرغم من الاشتراكية الديموقراطية الألمانية أعطت أهميـة خاصـة عظيمة للمركزية الإدارية والوحدة الحزبية فقد كان لها موقف شديد التهاون إزاء انتهاكات الانضـباط مـن جانب كبراء الحزب والقادة النقابيين... الخ الانضباط لتحقيق الوحدة في العمل ولكـن إذا وضـعت الوحـدة التنظيمية فوق المبدأ فان الانضباط الحقيقي يختفي بالضرورة.

كتب لينين: " ما لم تكن الجماهير منظمة فان البروليتاريا لا شئ فإذا كانت منظمة فهي كل شئ التنظـيم يعنى الوحدة في العمل الوحدة في النشاط العملي ولكن كل عمل لا يكتسب قيمته بالفعل إلا بمقدار ما يسـهم في دفع الأمور للأمام وليس للوراء... التنظيم الذي لا يقوم على المبدأ لا معنى له وهويحول عمليا العمـال إلى ملحق بائس للبرجوازية التي في السلطة... لا ينبغي إذن على العمال ذوى الوضع الطبقي أن ينسـوا أن هناك انتهاكات خطيرة للمبدأ تجعل قطع جميع العلاقات التنظيمية ضروريا".

اضطرت الظروف الحزب البلشفي لان يكون منضبطا وقد تمكن من تحقيق الانضباط اللازم لأنـه كـان متحدا سياسيا ولكن من المهم أدراك أن هذا الانضباط لم يعنى، كما يدعى كثيرا المبادرة المستقلة من قواعـد الحزب. الظروف القمعية نفسها التي جعلت الوحدة في العمل ضرورة، أجبرت أيضا الأقسام المحليـة فـي الحزب على العمل من تلقاء نفسها.

يكتب بياتنيتسكى:

تم تشجيع مبادرة المنظمات الحزبية المحلية. والخلايا لوكان على بلاشفة أوديسا أوموسـكوأوباكوأوتفليس أن ينتظروا دائما توجيهات اللجنة المركزية واللجان الإقليمية الخ والتي كثيرا ما فقدت الوجود أثناء سـنوات الرجعية والحرب بسبب عمليات إلقاء القبض فماذا كانت ستكون النتيجة؟ لم يكن البلاشفة سيحوزون على ثقة الجماهير العاملة ويمارسون أي تأثير عليها.

جميع هذه العوامل مجتمعة جعلت حزب لينين البلشفي عشية الحرب العالمية الأولى كما كتب تروتسـكي. القسم الأكثر ثورية –القسم الثوري الوحيد بالفعل – في الأممية الثانية".

٤- القطع مع الاشتراكية الديموقراطية:

أن وصف تروتسكي للبلاشفة بأنهم القسم الثوري الوحيد في الأممية الثانية " يشـير أيضـا إلـى حـدود إنجازات لينين حتى هذه النقطة حيث انه يوضح أن البلاشفة ظلوا قسما من الاشتراكية الديموقراطية أن هـذا في حد ذاته يظهر انه على الرغم من أن لينين كان قد طور عمليا حزبا مختلفا تماما عن النموذج الاشتراكي الديمقراطي فانه لم يكن قد عمم بعد هذه الخبرة بوعي في شكل نظرية متميزة وجديدة حول الحزب. لقد كان انهيار الأممية في مواجهة الحرب العالمية هوالذي أثمر القطع النظري الكامل للينين مع الاشتراكية القديمـة كما أثمر ميلاد نظرية لينينية تحديدا حول الحزب من المعروف أن لينين فوجئ تماما بالتأييد الذي أعطته كل الأحزاب الاشتراكية الأوروبية الأساسية للحرب في تمرد كامل على سياستهم السابقة كان رد فعله الأول إزاء عدد" فورواتس" الذي سجل تصويت الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني لصالح اعتمادات الحرب هـوأن هذا الخبر لابد مزور ولكن متى استوعب حجم الاستسلام تطور فكرة بسرعة شديدة فمقال لينين الأول بعـد اندلاع الحرب. مهام الاشتراكية الديمقراطية الأوربية في الحرب الأوربية" والمكتوب في تاريخ سابق علـى ٢٨ أغسطس.لم يكتف بإدانة زعماء الاشتراكية الديمقراطية الدولية بسبب "خيـانتهم للاشـتراكية" وتسـجيل "الإفلاس الأيديولوجي والسياسي للأممية".

بل رأى في هذه الخيانة وفى التخلي عن المواقف السابقة استمرار لنزعات كانت قائمة لمدة طويلة خـلال فترة ما قبل الحرب يحدد المقال الاشتراكية- الشوفينية بأنها نتاج الانتهازية وتطويرها." هذا الانهيار(للأممية) كان بالأساس نتيجة للشيوع الفعلي فيها لانتهازية البرجوازية الصغيرة...... مـا يسـمى بوسـط الحـزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني والأحزاب الاشتراكية الديمقراطية الأخـرى استسـلم فـي الواقـع بجـبن للانتهازيين". من هنا استنتج لينين على الفور انه ينبغي أن تكون مهمة الأممية المستقبلية تخليص نفسها بحزم وبلا رجعة من هذا التيار البرجوازي في الاشتراكية.

من هذه النقطة فصاعدا، لن يكون للينين أي صلة بخطط إعادة توحيد أوأحياء الأمميـة القديمـة " علـى العكس"، دعي إلى الاعتراف صراحة بهذا الانهيار وتفهمه، بحيث يكون من الممكن بناء وحـدة اشـتراكية جديدة وأكثر دواما لعمال جميع البلاد.

بحلول أول نوفمبر كانت اللجنة المركزية البلشفية قد رفعت شعار" فلتحيا أممية بروليتارية محـررة مـن الانتهازية" في ديسمبر كان لينين يسأل " أليس من الأفضل التخلي عن اسم الاشتراكيين الديمقراطيين الـذي لوثوه وحقروه، والعودة للاسم الماركسي القديم الشيوعيين"؟ وبحلول فبراير ١٩١٥ كـان مـؤتمر الحـزب البلشفي الزم نفسه رسميا بإنشاء " أممية ثالثة".

حتى ١٩١٤ رأى لينين نفسه كاشتراكي ديمقراطي أرثوذكسي يطبق مـنهج كاوتسـكي وببيـل – بعـد تجربتهما واختبارهما على الظروف الخاصة لروسيا القيصرية ولكن قرار إنشاء أممية ثالثة لم يعـن العـزم على الحفاظ على ذلك التراث الذي تخلى عنه قادته، بل عنى الرفض الشامل لهذا التراث. لقد وجـه لينـين تهمتين متصلتين للأممية الثانية:

أنها كانت نتاج فترة ممتدة من"السلام" الشعبي بين الطبقات – ليس فقط السلام بين الأمم، إنما أيضا السلام النسبي بين الطبقات- أصبحت معتادة خلالها على الوسائل الشرعية وعلى نمومنظماتها الجماهيرية الشرعية لدرجة أنها صارت غير راغبة ولا قادرة على الانتقال الضروري للعمل غير الشرعي.

أنها كانت ائتلافا بين الثوريين والانتهازيين لصالح الانتهازيين.

فالأحزاب الاشتراكية في عصر الأممية الثانية كانت ذلك الحزب الذي يسمح بان تتواجد بـين صفـوفه انتهازية تم بناؤها في عقود الفترة السلمية".

لقد تجاوز هذا النوع عمره الافتراضي. وحتى إذا انتهت الحرب فى١٩١٥، فلن تجد أي اشتراكي يفكـر مستعدا للبدء في ١٩١٦ في إعادة بناء الأحزاب العمالية مع الانتهازيين، مع علمه في ضـوء الخبرة،بـأنهم سيقفون مع البرجوازية في أي أزمة جديدة؟

بالمقارنة بالأممية الثانية – التي وصفها كاوتسكي بأنها أداة للسلام، غير مناسبة للحرب" فإن الأممية الثالثة كانت بالتحديد أداة للحرب – الحرب الأهلية الدولية ضد البرجوازية الإمبريالية- وبالتالي ما كانت لتحتمـل في صفوفها طابورا خامسا ولا مترددين.

في قيامه بهذا النقد للاشتراكية من الواضح أن لينين اعتمد في أفكاره على خبراته مع البلاشفة والصـراع ضد المنشفية، ولكن تم الآن، لأول مرة تعميم هذه الخبرات والملحوظات النظرية العديدة التي صاحبتها على المستوى الدولي، مما أثمر نظرية جديدة حول الحزب تستبدل أشكال التنظيم القديمة في كل مكـان بـأخرى مختلفة.

ومع ذلك، فإن نظرية جديدة حول الحزب لم تكن لتقف بذاتها، لقد كانت تقتضي التجديد الشامل للماركسية فنظرية الحزب هي مجرد تطبيق لتحليل الصراع الطبقي ككل على مسألة التنظيم. كانت الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية منتجة ونتاجا في نفس الوقت لتفسير ميكانيكي وقدري للماركسية تم من خلاله النظـر لتوحيـد البروليتاريا ونموحزبها السياسي كعملية تسير بسلامة وتجانس في خط صاعد بانتظام كنتيجة حتمية للتطـور الرأسمالي. في إطار هذه الصورة، صاغ كاوتسكي مهام الماركسيين بأنها "بناء التنظيم وكسب كـل مواقـع القوة التي نستطيع أن نكسبها ونحتفظ بها، ودراسة الدولة والمجتمع، وتعليم الجمـاهير، لا نسـتطيع بـوعي

وبشكل منتظم أن نضع أهدافا أخرى لأنفسنا أولمنظماتنا" إما الهدف فهو" الوصول إلى سـلطة الدولـة عـن طريق الحصول على أغلبية في البرلمان. ورفع البرلمان إلى مستوى سيد الحكومة" ورأى كاوتسكي أن هـذا الهدف سيتحقق حتما بشرط فقط أن يتجنب إرباك " منظماته" من خلال التورط في صراعات حمقاء وغيـر ناضجة عمليا. أصبح تجنب مثل هذه الاضطرابات الشغل الشاغل لكثير من القادة الاشتراكيين الـديمقراطيين في سنوات الحرب الأولى. عكف لينين بشكل منتظم على تدمير هذه الرؤية وبناء أساس نظري جديد للأممية الثالثة المستقبلية. وقد دفع هذا لينين نحوثلاثة مجالات أساسية للبحث النظـر☹أ) الفلسـفة. (ب) الاقتصـاد (تحليل الإمبريالية) (ج)السياسة (الدولة). كان لكل من هذه المجالات تأثيره على نظريتـه حـول الحـزب، وبالتالي، فعلى الرغم من انه ليس من الممكن هنا أن نشير للارتباطات المتبادلة الأساسية إلا أننا سنضطر في عجالة إلى الاشارة إلى أهم هذه الإسهامات.

فيما يتعلق بالفلسفة. سبق أن جادلنا بان مفتاح موقف لينين في الانشقاق الأولى مع المناشفة كان رفضـه للموقف القدري (الذيلي) من مشاكل التنظيم. في ذلك الوقت. كان موقف لينين نتاجا لغريزته السياسية الحادة وتقديره العملي الثاقب أكثر من كونه نتاجا لقطع فلسفي مع المادية الميكانيكية، كما يظهر من صياغته فـي " المادية ونقد التجريبية" إلا انه في نهاية ١٩١٤ غاص لينين في دراسة هيجل،وخاصة علم المنطق لهيجل. أن لينين مثل ماركس لم يكتب أبدا الجدل الخاص به ومع ذلك فان ملاحظاته الهامشـية حـول هيجـل تظهـر بوضوح الثورة الفلسفية الناتجة عن هذه القراءة. لأول مرة يستوعب لينين بوضوح ويهضم الجدل الماركسي. من خلال إعادة هذا الجدل والممارسة إلى مكانهما الصحيح في النظرة الماركسية للعالم أقام لينـين الأسـاس الفلسفي لحزب لا يستهدف أن يكون انعكاسا سلبيا للطبقة العاملة. وأن ينتظـر نتيجـة القـوانين التاريخيـة الحديدية، وإنما يستهدف أن يتدخل فعليا في صناعة التاريخ.

أما فيما يتعلق بالاقتصاد كانت مهمة لينين هي أن يظهر أن الوضع الموضوعي كان ناضجا لخلق حـزب دولي جديد. يكون ثوريا ليس فقط في أحد أهدافه النهائية، وإنما أيضا في تبنيه واستعداده الثـوري لأسـاليب الصراع الثورية.

في كتيبه الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية، استهدف لينين إظهار أن الثورة كانت على جدول الأعمـال على النطاق العالمي كانت حجة لينين، في خطوطها العامة، هي أن الإمبريالية كانت نتاج التحول، من خلال قانون تركيز رأس المال، من الرأسمالية القائمة على المنافسة الحرة إلى عكسها، الرأسمالية الاحتكارية. كان هذه مصحوبا بسيطرة رأس المال المالي على رأس المال الصناعي. وتحقيق تراكم الفائض من رأس مال لم يكن من الممكن أن يجد منافذ مربحة إلا في البلاد المتخلفة حيث العمل رخيص ورأس المال نادر.

وبالتالي فقد انقسم العالم بين الاحتكارات الكبرى وحكوماتها. وحيث إن مثل هذا الانقسام لم يكن ليحـدث إلا على أساس القوة النسبية،وحيث إن القوة(أي الحرب). على هذا الأساس، فإن أي تحقيق للسلام لن يكـون إلا مقدمه لحرب جديدة. وفوق كل شئ. عمقت الإمبريالية التناقض بين إضفاء الطابع الاجتماعي على الإنتاج والاستيلاء الفردي عليه، وهكذا فقد مثلت الإمبريالية بداية هبـوط الرأسـمالية وافتتـاح عصـر " الحـرب والثورات".

بالإضافة إلى إقامة الأساس الموضوعي لأممية ثورية جديدة، وفر تحليل لينين للإمبريالية أيضـا أساسـا اقتصاديا لنقده للأممية الثانية، مستدعيا تعليقات إنجلز حول برجزة قسم من البروليتاريا الإنجليزيـة بسـبب الاحتكار الصناعي والكولونيالى لإنجلترا جادل لينين بأن الاحتكارات الإمبريالية ربحت "سوبر أربـاح" مـن استغلالها للمستعمرات وأن ذلك سمح " لبرجوازية القوى العظمى" بأن ترشى اقتصاديا الشرائح العليـا مـن عمالها. في القرن التاسع عشر كان هذا ممكنا في إنجلترا فقط، وقد عمـل هنـاك لعقـود مفسـدا الحركـة العمالية.إما الآن. فإن كل قوة عظمى "إمبريالية تستطيع أن ترشى، وترشى بالفعل، شرائح أصغر(من إنجلترا في ١٨٤٨- ١٨٦٨) من" أرستقراطية العمال " بهذه الطريقة، ففي جميع البلدان أمنت البرجوازيـة لنفسـها بالفعل. أحزابا عمالية برجوازية" من الاشتراكيين الشوفينيين. هكذا اعتبر لينين أن الانتهازية أوالإصلاحية، في حركة الطبقة العاملة لم تكن مجرد مدرسة فكرية بديلة. أومؤشر على عدم النضج. أوحتى نتاج لضـغط الأيداوجية البرجوازية. بل كان لها على العكس "أساس اقتصاديا" كانت الانتهازية هي التضـحية بالمصـالح الكلية للبروليتاريا ككل لصالح المصالح الفورية لمجموعات منفصلة من العمال. يعنى مفهوم "الحزب العمالي البرجوازي" أن الانتهازية ينظر إليها على أنها عميل العدوالطبقي داخل صفوف البروليتاريا.

إن هذا التعريف للانتهازية، والذي لم يصفه أي ماركسي بهذا الوضوح قبل ذلك. هام جدا بالنسبة لنظرية لينين حول الحزب. إنه السبب الأساسي في ضرورة أن يستبعد الحزب بصرامة جميع التيارات الإصـلاحية من داخل صفوفه. إنه اعتراف بان الحزب الثوري يجب تنظيمه من أجل الصراع ليس فقط ضد البرجوازية، وإنما أيضا(بطريقة مختلفة) ضد المنظمات البرجوازية داخل الطبقة العاملة إنه فهم للصعوبات المتضمنة في الانتقال من الطبقة في ذاتها إلى الطبقة لذاتها.، وتفسير مادي لهذه الصعوبات. فى١٩٠١ كـان لينـين قـد استوعب هذه المشكلة، ولكنه فسرها من خلال عدم قدرة الطبقة العاملة على الوصول للـوعي الاشـتراكي بواسطة جهودها الذاتية.

إما الآن فقد فسرها من خلال التناقض بين المصالح التاريخية للبروليتاريا ومصالحها الفورية. التي يمكن أن تسود لفترات محدودة وفى شرائح محدودة على الحاجة للوحدة الطبقية تتطور الوحدة الاشتراكية للطبقة العاملـة جدليا، من خلال الصراع الداخلي.وباعتباره العنصر الفاعل في هذا الصراع، فعلى الحزب الثوري أن يقصـر عضويته على أولئك الذين يعلون المصالح الكلية للبروليتاريا على المصالح الفورية. أي على الأمميين.

أخيرا، هناك مسألة الدولة، التي أبرزتها على الساحة الجدالات الإمبريالية والحـزب إن جـوهر الثـورة الاشتراكية هونقل سلطة الدولة من البرجوازية إلى البروليتاريا. ولما كان تنظـيم الحـزب يتحـدد جزئيـا بالضرورة بواسطة المهام التي سيكون عليه أن ينجزها في الثورة، فإن كيفية تصور هذا الانتقال تصبح فـي غاية الأهمية بالنسبة لنظرية الحزب. لم يستبعد منظروالأممية الثانية العنف، وبصفة خاصة العنف الـدفاعي، في الصراع على السلطة، ولكنهم توقعوا بشكل أساسي أن تترك آلة الدولة سـليمة. دور الحـزب سـيكون الاستيلاء على الدولة القائمة، مغيرا بلا شك أشخاصها القياديين ومعيداً تنظيمها، ولكـن دون تحـدى بنيتهـا بشكل جوهري. مع رأى كهذا حول مهام الثورة فيما يتعلق بالدولة، فإن مركز ثقل الصراع الطبقـي ينبغـي حتما أن ينظر إليه على أنه في البرلمان والانتخابات البرلمانية. هكذا فقد كتب كاوتسكي:

هذا العمل المباشر للنقابات يمكن أن يجرى بفعالية كمساعد ومقوى فقط للعمل البرلماني، وليس كبديل له"، وكتب أيضا أن(البرلمان) هوأقوى أداة يمكن استخدامها لرفـع البروليتاريـا مـن انحطاطهـا الاقتصـادي والاجتماعي والمعنوي" ويترتب على ذلك أن قيادة الحزب تتمثل في ممثليه البرلمـانيين مادامـت الحكومـة الثورية ستتشكل من خلال الأغلبية البرلمانية. وفقا لهذا التصور، فإن دور عضوالحزب العادي- وبـالأحرى دور العمال خارج الحزب – سلبي بالأساس: فعلى الرغم من أنه قد يتم اللجوء إليهم في الصراع، إلا أنـه لا يتوقع منهم أن يخلقوا هياكل جديدة للسلطة بأنفسهم أوأن يشاركوا في تسيير هذه الهياكل. مفهوم الاشـتراكية الديمقراطية البيروقراطي عن الثورة استتبع تنظيما بيروقراطيا للحزب.

بالنسبة للبلاشفة، كما أظهرنا أعلاه، لم ينطبق شئ من هذا لأنه لم تكن هناك دولة "ديمقراطية حديثة فـي روسيا "وكانوا من البداية غير شرعيين.أما الآن، ومع تفكيره في أممية جديدة، فقد كان على لينين أن يواجه هذه المشكلة نظريا. كانت النتيجة هي أنه نجح في اكتشاف ووضح وقنن تعميم ماركس من خبرة ثورات٤٨-١٨٥٢و١٨٧١ الفرنسية، ذلك التعميم القائل بان "الطبقة العاملة لا تستطيع ببساطة أن تستولي على آلة الدولة القائمة وتستخدمها لأغراضها هي" لخص لينين المسألة في دفتر ملاحظاته،كما يلي:

ما هي التغيرات بعد١٨٧١؟ إنها تتمثل كلها – أوطابعها العام أومجملها- في أن البيروقراطية فـي كـل مكان قد تضخمت (في البرلمانية وداخلها في الحكم الذاتي المحلى، كما في الشركات المسـاهمة المشـتركة والاتحادات الاحتكارية وما إلى ذلك). ذلك هوالأول. أما الثاني فهوأن الأحزاب الاشـتراكية، العماليـة قـد تحولت، بنسبة٣/٤إلى بيروقراطية مماثلة. الانشقاق بين الاشتراكيين-الوطنيين والأمميين. بين الإصـلاحيين والثوريين، له بالتالي دلالة اكثر عمقا: الإصلاحيون والاشتراكيون – الوطنيـون يراهنـون علـى الدولـة البيروقراطية في حين أن الثوريين يستعين عليهم تخطيها مستبدلين إياها " بالكوميونة" وهـى نصـف دولـة جديدة ربما يستطيع المرء باختصار وصرامة أن يعبر عن الأمر كله هكذا :اسـتبدال آلـة الدولـة القديمـة (المصنوعة سلفا) والبرلمانات بسوفيتات نواب العمال ووكلائها هنا يكمن الجوهر!!

الحزب الذي يستهدف تحطيم الدولة لا يمكن أن ينظم بنفس طريقة الحزب الذي ينوى الاسـتيلاء عليهـا. ينبغي أن يكون مركز ثقله في المصانع لا في البرلمان. حيث أن الدولة الجديدة ستنشأ من المصانع. لا يمكن لأعضاء الحزب العاديين أن يكونوا مجرد مصوتين سلبيين أوحتى دعائيين. فعليهم هم أنفسهم أن يصـبحوا قادة لزملائهم العمال وبناة لآلة الدولة الجديدة الخاصة بهم وفضلا عـن ذلـك فـإن أطروحـة أن الدولـة البرجوازية ينبغي تحطيمها ألغت بشكل نهائي خيار الثورة السـلمية أوالدسـتورية. حتـى بالنسـبة لأكثـر الجمهوريات الديمقراطية حرية. ستتضمن الثورة البروليتارية، بحكم التعريف. صـراعا جماهيريـا علـى السلطة، وبالتالي فان كل حزب ثوري ينبغي أن يكون منظما بحيث يتمكن من قيادة صراع كهذا. لقد عنـى ذلك خلق أجهزة شرعية وغير شرعية متوازية. وتنظيم تجريدات محاربة وخلق مجموعات حزبيـة داخـل القوات المسلحة، وما إلى ذلك.

وأخيرا، غيرت نظرية لينين حول الدولة بشكل راديكالي المفاهيم السائدة وقتها حول علاقة الحزب بالدولة العمالية أثناء الاستيلاء على السلطة وبعده. لوكانت الثورة تعنى الاستيلاء على الدولة القائمة، إذن فالمضمون الطبقي للدولة كدولة عمالية يتحدد بواسطة الحزب الذي يسيطر عليها. وينبغي علـى الحـزب سـيطبقه أن يندمجا. بهذا المعنى، كان الحزب بالنسبة للاشتراكية الديمقراطية هوجنين الدولة الجديدة. نظرية لينين حـول استبدال الدولة القائمة بالسوفيتات(المجالس العمالية) أقامت تمييزا واضحا بـين الدولـة العماليـة والحـزب الثوري. يتحدد المضمون الطبقي للدولة الجديدة من خلال كونها من خلق الطبقة العاملـة ككـل. وكـون أن الطبقة ككل تشترك في تسييرها". في ظل الاشتراكية...ستصعد جماهير السكان إلـى مسـتوى لعـب دور مستقل، ليس فقط في التصويت والانتخابات، وإنما أيضا في الإدارة اليومية للدولـة" دور الحـزب لـيس أن يكون الدولة العمالية. وإنما أن يكون الأقلية المتقدمة التي تقود وترشد عملية خلق وتعزيز الدولة الجديدة وكما ذكر كريس هارمان الاشتراكي البريطاني المعروف " الدولة السوفيتية هي أعلى تجسيد ملموس للنشاط الذاتي للطبقة العاملة كلها" والحزب هوذلك القسم من الطبقة الأكثر وعيا بالمغزى التاريخي العالمي للنشاط الـذاتي" ولان الحزب والدولة ليسا متطابقين فمن الممكن لأكثر من حزب أن يتنافسوا على التأثير والحكم داخل إطار مؤسسات سلطة الدولة العمالية".

هكذا، فإن نظرية لينين حول الدولة كانت تكملة لا غنى عنها لنظريته حول الحزب. كانت نظرية الدولـة هي ما أكد أن اقتصار الحزب على الأقلية المتقدمة من البروليتاريا لم يتضمن بأي حال من الأحوال أن يحل الحزب محل الطبقة ككل أوأن يسعى للوصول للسلطة كأقلية. وكانت نظرية الدولة هي مـا جعـل النظريـة اللينينية حول الحزب تتجانس مع المبدأ الجوهري للماركسية وهوأن تحرر الطبقة العاملة يجـب أن تحققـه الطبقة العاملة نفسها".

نتيجة لسنوات العمل النظري المكثف هذه تحطمت الأسس النظرية للأممية الثانية تماما. وأصبحت نظرية لينين الجديدة حول الحزب مكتملة تماما الآن (وهذا لا يعنى استبعاد إضافات أوتطويرات أخرى) لـم تمثـل النظرية الجديدة اكتشافا منعزلا وإنما مثلت الاستنتاجات العملية المتوجة لتجديد شـامل للنظـرة الماركسـية للعالم. كما أنها لم تأت مبكرة لحظة واحدة- فسرعان ما واجهت الاختبار العملي الحاسم مع انـدلاع الثـورة الروسية في فبراير ١٩١٧. والسؤال العملي الذي يجب أن نطرحه هو: ماذا كان حظها مـن النجـاح فـي مواجهة هذا الاختبار؟

٥- الحزب في الثورة:

أكدت أحداث الثورة الروسية البالغة الأهمية نظرية لينين حول الحزب بطريقتين أساسيتين أولا: أظهرت أن منظمة صغيرة في الأصل تستطيع في سخونة الصراع. أن تنموبسرعة كبيرة جدا. وأن تكسب – وهـذا أكثر أهمية – تأييد الغالبية الكاسحة من الطبقـة العاملـة. فـي ينـاير١٩١٧. بلغـت عضـوية الحـزب البلشفى٢٣٦٠٠. ومع نهاية إبريل كانت قد نمت الى٧٩٢٠٤، وفى أغسـطس قـدرت بحـوالى٢٠٠٠٠٠، ونستطيع أن نفترض أن العضوية زادت بحلول أكتوبر. بالقياس إلي سكان روسيا ككل. فإن ٢٠٠ألف رقم لا قيمة له تقريبا. إلا أن العضوية البلشفية كانت مركزة في الطبقة العاملة ذات الأهمية السياسية الضخمة رغـم صغر حجمها. لقد كتب ليونادر شابيروأن استطلاعا للرأي بين المنظمات في خمس وعشرين مدينة أظهر أن نسبة البلاشفة المنظمين بين عمال المصانع في المـدن فـي ذلـك التـاريخ(أغسـطس١٩١٧) تراوحـت بين١%و١٢%- حيث كان المتوسط بالنسبة للخمس وعشرين مدينة٥,٤% بالنسبة لحزب نشـط منضـبط. كانت هذه نسبة عالية جدا. لقد عنت أنه في المراكز الصناعية الأساسية، وخاصة بتروجراد، كان للبلاشـفة القيادة السياسية الكاملة للبروليتاريا. هكذا فقد كانت أول هيئة تمثيلية يحصل فيها البلاشفة على أغلبيـة هـي مؤتمر لمندوبي مصانع بتروجراد في نهاية مايو. وعندما دعت اللجنة التنفيذية للسوفيتات، التي كانت تحـت سيطرة المناشفة/ الاشتراكيين الثوريين، لمظاهرة جماهيرية في بتروجراد في ١٨ يونيو، سار في المظـاهرة حوالي ٤٠٠ألف وحملت٩٠% من الرايات شعارات بلشفية. أما عن أكتوبر فقد كتب خصـم لينـين القـديم مارتوف:

أفهموا أرجوكم أن ما هوأمامنا آخر الأمر انتفاضة منتصرة للبروليتاريا- البروليتاريا كلها تقريبـا تؤيـد لينين وتتوقع أن تحقق الانتفاضة تحررها الاجتماعي".

في تسعة أشهر صعد البلاشفة من مجموعة منشقة تبدوعديمة الأهمية إلى أقوى قوة سياسية في روسيا.

ثانيا. برهنت الثورة على أنه لا غنى عن حزب ثوري ممركز من أجل استيلاء الطبقة العاملة على سلطة الدولة. إن ثورة فبراير التي أسقطت القيصرية وأفرزت السوفيتات لم يقدها، بالطبع البلاشفة ولا أي حـزب سياسي وكما يعلق تارة:

"كانت ثورة فبراير...... اندلاعات لجموع غفيرة ساخطة على الحرمان الناتج عن الحرب وعدم المساواة الظاهرة في توزيع الأعباء.... لم تلعب الأحزاب الثورية أي دور مباشر في صنع الثورة. إنهم لم يتوقعوهـا وقد أصابتهم في البداية ببعض الارتباك. كان إنشاء سوفيت بتروجراد فـي لحظـة الثـورة عمـلا عفويـا لمجموعات من العمال بدون توجيه مركزي.

ولكن لهذا السبب بالتحديد، فإن الثورة المنتصرة التي صنعها العمال والجنود (فلاحون بالزي الرسمي). لم تقدم السلطة طوعا للبرجوازية في صورة الحكومة المؤقتة. بالطبع لم يكن العمـال والجنـود سـعداء بهـذا التطور.

في وقت مبكر مثل ٣ مارس، بدأت اجتماعات الجنود والعمال تطالب بأن يخلع السـوفيت علـى الفـور الحكومة المؤقتة للبرجوازية الليبرالية، وأن يأخذ السلطة في يديه". ولكنهم، بسبب افتقادهم للتنظـيم والقيـادة السياسية، كانوا عاجزين عن فرض إرادتهم. ولم تصبح أجنة سلطة الدولة العمالية هذه قادرة علـى تحقيـق الإمكانية الكامنة فيها إلا مع نموالبلاشفة إلى حزب جماهيري ومع ظهور أغلبية بلشفية في السـوفيتات. لـم يكن من الممكن صياغة برنامج سياسي واضـح ومختصـر-" الخبـز، الأرض، السـلام"،وكـل السـلطة للسوفيتات،- بحيث يكون قادرا على تجسيد مشاعر الجماهير وتوحيد مختلف قوى الثورة، العمال والفلاحين والجنود، إلا من خلال حزب.

كان الحزب شديد الأهمية أيضا في شن ونجاح الانتفاضة المسلحة الفعلية. أولا، كان بوسعه_ من خـلال قدرته على تقدير الحالة في روسيا ككل، وانضباطه، وسلطته المعنوية بين العمال- أن يمنع انتفاضـة غيـر ناضجة في" أيام يوليو" كان من الممكن أن تعزل عمال وجنود بتروجراد المندفعين عن بقية البلـد. لوكـان البلاشفة أقل انضباطا أوأقل تجذراً لكان من الممكن أن تجرفهم الأحداث بسهولة نحوانتفاضة يائسـة كانـت ستواجه مصير كوميونة باريس أوثورة١٩١٩ الألمانية. وبعد ذلك، عقب هزيمة مؤامرة كورنيلوف، وعندما تحول مزاج البلد، وليس مجرد بتروجراد. لصالحهم وأصبح من الواضح أن البلاشفة سيحصلون على أغلبية في المؤتمر الثاني للسوفيتات، كان الحزب قادرا على الإمساك باللحظة الحرجة عندما كان بالإمكان كسـب السلطة بسرعة وسلاسة. يكتب كار أنه" بالنسبة لتنظيم انتصار ٢٥ اكتوبر – ٧نوفمبر١٩١٧ الذي لم تسـفك فيه دماء تقريبا. كان سوفييت بتروجراد ولجنته العسكرية الثورية مسئولين. ولكن السوفيت كانت به أغلبيـة بلشفية واللجنة العسكرية الثورية احتوت على عضوواحد غير بلشفي (اشتراكي ثـوري- يسـاري شـاب). وفضلا عن ذلك فإن القرار الأصلي بشن الانتفاضة المسلحة والذي كان ينفذانه لم يتخذه السوفييت. وأقرزت اتخذته اللجنة المركزية للحزب في جلسة سرية ولم يكن من الممكن أن تسير الأمور بشكل مختلف حيـث أن التوقيت والسرية كانا جوهريين ولوكان قد جرى جدال مفتوح في السوفييت لنبه ذلك الحكومة ودفعها للقيـام بعمل وقائي. لقد كانت السوفيتات بطبيعتها غير متجانسة. لم يكن بوسع أحد سوى حزب منضـبط ومتحـد سياسيا أن يناقش المزايا والعيوب التكتيكية للتمرد المسلح وأن يخطط لتنفيذه. وبعد الاستيلاء علـى السـلطة مباشرة كان الحزب البلشفي يمتلك فقط وحده الهدف والإرادة للازمة لتشكيل حكومة قادرة على التعامل مـع الفوضى والظرف البالغ الصعوبة الذي واجه الثورة.

الدور البارز للحزب البلشفي في انتفاضة أكتوبر المسلحة مضافا إلى العدد الصغير نسبيا للمشاركين فـي القتال وإنجاز العملية(على الأقل في العاصمة) دفع كل ذلك العديد من المعلقين إلى تصوير الثورة على أنهـا بالأساس انقلاب قامت به أقلية صغيرة ذات عزم عملت بشكل مستقل تماما عن الطبقة التي زعمت تمثيلهـا، ومما يجعل هذا الرأي يبدوأقوى إصرار لينين المتكرر على انه من الضروري محاربة الأوهـام الدسـتورية والآمال المعقودة على مؤتمر السوفتيات ونبذ الفكرة المسبقة القائلة بان علينا بشكل قاطع أن ننتظر انعقـاده. ألم يناقض المجرى الفعلي للانتفاضة المسلحة تماما التمييز بين الحزب والدولة الذي ناقشناه قبل قليل، أولـم يعن ذلك أن المفهوم اللينيني للحزب كأقلية طليعية أدى حتما من الناحية العملية إلى الاستيلاء على السـلطة

بواسطة هذه الأقلية؟ في الإجابة على هذه الأسئلة من الضروري ألا ننظر فقط إلى الفترة التي أعتمد مصـير الثورة خلالها على أيام قليلة من القتال، وإنما إلى تطور سياسة لينين على مدى١٩١٧. وضع لينين البلاشـفة لأول مرة على طريق الاستيلاء على السلطة عندما كتب" أطروحات أبريل"، ولكنه حذر من البداية" مـن أي نوع من المغامرة البلانكية". لقد كتب لينين:

"في الأطروحات اختصرت المسألة بشكل محدد إلى صراع من أجل التأثير داخل سوفيتات مندوبي العمال والعمال الزراعيين والفلاحين والجنود. ولكي لا اترك ظلالا من الشك حول هذا الأمر أكـدت مـرتين فـي الأطروحات على الحاجة لعمل" توضيحي" صبور ودؤوب"مطوع للحاجات العملية للجماهير"

ظل" التوضيح الصبور "خط لينين والبلاشفة على مدى ربيع وصيف١٩١٧، وكان الصراع على السـلطة مربوطا دائما بكسب السوفيتات، وحتى عندما اعتبر لينين في يوليوأن السوفيتات قـد انتقلـت بحسـم إلـى المعسكر المعادى للثورة. وبالتالي أراد أن يسحب شعار" كل السلطة للسوفيتات" فقد ظل حريصا، حيث قـال محذرا: لن يكون الصراع الحاسم ممكنا إلا في حالة صعود ثوري جديد في أعمق أعماق الجماهير "كما أنـه لم يتخل وقتها عن الفكرة السوفيتية.

قد تظهر سوفيتات في هذه الثورة الجديدة بل من المحتم أن تظهر، ولكن ليس السـوفيتات الحاليـة لـيس الهيئات التي تمالئ البرجوازية، وإنما هيئات الصراع الثوري ضد البرجوازية. من الصحيح أن علينا حتـى في ذلك الوقت أن نكون في صف بناء الدولة كلها وفقا لنموذج السوفيتات.

وفقط عندما حقق البلاشفة أغلبية في السوفيتات وضع لينين الانتفاضة المسلحة على جدول الأعمال.

إن قيام الحزب بالأساس – عاملا من خلال سوفييت بتروجراد- بتنفيذ الانتفاضة المسلحة لم يناقض هـذا التصور الا أن هذه كانت عملية هدم. كانت البنية الجديدة لسلطة الدولة قائمة بالفعل ومعترف بهـا بوصـفها السلطة العليا من جانب كل من العمال والجيش. ما حدث في ليلة ٢٥/٢٤ أكتوبر ألغى فقط الحكومة المؤقتـة تاركا السوفيتات بوصفها السلطة الوحيدة. وبالإضافة إلى ذلك فقد استند البلاشفة في تشكيلهم للحكومة علـى الأغلبية التي كانت لهم في السوفيتات وليس على حق الاستيلاء العسكري. في ٥نوفمبر كتب لينين:

ينبغي ألا يكون في روسيا سوى حكومة سوفيتية. لقد انتصرت السلطة السوفيتية فـي روسـيا. ويمكـن للحكومة أن تنتقل من أيدي حزب سوفيتي إلى أيدي حزب سوفيتي آخر بدون أيـة ثـورة بمجـرد قـرار للسوفيتات هي فقط تلك التي يقوم ذلك الحزب بتشكيلها.

هكذا فبصفة عامة أكد الاختبار العملي المتمثل في الثورة الروسية صحة نظرية لينين حول الحزب. لقـد بررت تماما اقتناعه بان الطليعة ذات المبادئ والمنضبطة ستلعب دورا حاسما في تحقيق الثورة الاشـتراكية. ولكن لا بد هنا أن ندق جرس الحذر حيث أن العملية التي لعب بواسطتها الحزب البلشفي هذا الدور فعليا لـم تكن على الإطلاق أوتوماتيكية.

قبل عودة لينين لروسيا انزلقت القيادة البلشفية نحوموقف تأييد مشروط للحكومة المؤقتة وأيضا للحرب وعندما أعلن لينين لأول مرة وقوفه في صف إسقاط الحكومة المؤقتة وكل السلطة للسوفييتات، لم يجد أي تأييد من داخل الدوائر القيادية للحزب أدانت هذه الدوائر موقف لينين معتبرة إياه "غير مقبول".في برافدا وذلك استناد إلى الصيغة البلشفية القديمة،"الديكتاتورية الديمقراطية للعمال والفلاحين ". لم يكن بوسع حتى أكثر الأحزاب ثورية تدقيقا فـي استعداده أن يتوقع كل السمات الملوثة للثورة. وبالتالي كان عليه أن يتعلم من الواقع ومن العمال. داخـل قيـادة الحزب كان لينين هومحرك عملية التعلم هذه.'النظرية يا صديقي، رمادية ولكن شجرة الحياة الخالدة خضـراء' هكذا كتب لينين مدينا هؤلاء "البلاشفة القدامى" الذين لعبوا اكثر من مرة بالفعل أدوارا مؤسفة جدا في تاريخ حزبنا عن طريق ترديد صياغات محفوظة عن ظهر قلب دون فهم، بدلا من دراسة السمات الخاصة للواقع الجديد ولحى وكون أن لينين بدا من موقع عزلة بادية، استطاع بسرعة شديدة أن يكسب الحزب لموقفه، يعود جزئيا إلى مكانته الشخصية العظيمة، ولكنه يعود أيضا إلى انه كان يعبر نظريا عـن آراء العمـال المتقـدمين الـذين ينـدفعون نحوالحزب كالسيل. لقد توافقت حملات لينين على البلاشفة القدامى مع الضغط القادم من مناطق المصانع. علـى مدى١٩١٧، كرر لينين التعليق بأن على الحزب أن يتخلص من لجنته المركزية وعلى الجماهير أن تتخلص من الحزب وحتى عندما انتصر لينين من حيث المبدأ في مؤتمر إبريل فقد استمرت أقسام من الحزب في التـأرجح. وقد ظهر ذلك جليا فيما يتعلق بمسألة الانتفاضة المسلحة. شكل كامينيف وزينوفييف ونوجين وميليوتين وريهوف مجموعة داخل القيادة معارضة تماما للقيام بانتفاضة مسلحة كان كامينف وزينوفييف، بعد لينـين، أقـوى قـادة الحزب نفوذا ومع ذلك فقد ترددا في اللحظات الحاسمة احتاج الأمر لشهر من الطرق من جانب لينين، بمـا فـي ذلك التهديد بأنه سيستقيل ويقوم بحملة بين قواعد الحزب، لكي يتم التغلب على هذا الموقـف وإخـراج اللجنـة المركزية من قصورها الذاتي. وعندما طلبت مجموعة زينوفييف- كامينيف، بعد الاستيلاء على السلطة مباشرة. أن يدخل البلاشفة ائتلافا مع المناشفة والاشتراكيين والثوريين، هدد لينين مرة أخرى بالانشقاق (الانشقاق النزيـه والمفتوح أفضل كثيرا جدا من التخريب الداخلي وإحباط قراراتنا والإخلال بالنظام والإنهاك') وأعلن انه إذا كانت المعارضة لها أغلبية في الحزب. فعليها أن تشكل حكومة ائتلافية. أما هوفسوف يذهب للمارة.

أن تأرجح أقسام من الحزب البلشفي، وفى بعض الأوقات ككل، بهذه الطريقة، لا يبطل بالطبع المبادئ التـي بنى عليها فلم يحدث قبل ولا بعده أن تصرف حزب عمالي بطريقة افضل في ظل حالة ثورية. ولكن هذا التارجح يعنى أن تنظيم الحزب على أسس لينينية ليس في حد ذاته ضمانه للنجاح إنه ليس مفتاحا تنظيميا يفتح جميع أبواب التاريخ. لا يوجد غنى عن الحزب الثوري ولكن حتى أكثر الأحزاب ثورية يكون عرضـة لعناصـر روتينيـة محافظة ببساطة لان عليه أن يكون منظمة مستقرة دائما. وبالمثل فان مجرد خلق الحزب كهيئة متميزة يتضـمن خطر أن يعزل الحزب نفسه عن الطبقة. أن ميزة الحزب اللينيني كانت قدرته على تخفيض هذه المخـاطر إلـى الحد الأدنى، إن لم يستطع أن يلغيها تماما كانت عظمة لينين في الثورة الروسية هي انه رجل الحزب بامتيـاز- تجاوز حزبه في التحليل الأخير لقد كان قادرا، إذا جاز القول، أن يصل من فوق الحزب إلى جمـاهير العمـال والجنود الروس، ليس مخاطبا إياهم بقدر ما كان مستجيبا لهم، وبذلك كان قادرا علـى إجبـار الحـزب علـى الاستجابة أيضا. إذا شئنا التعبير عن هذه الفكرة في صورة تعميم نظري فيستطيع المرء أن يقـول أن بالنسـبة للينين، رغم أن الحزب كثيرا ما كان عليه أن يحافظ على درجة عالية من الاستقلالية إزاء الطبقة العاملة ككـل. ورغم قوة ادعاءات الحزب وانضباطه، إلا أن الحزب ظل في التحليل الأخير خاضعا ومعتمدا عليها.لا تتضـمن النظرية اللينينية بأي حال من الأحوال فيتشية الولاء الحزبي التي اتسمت بها الاشتراكية الديمقراطية ثم اتخذت بعد ذلك اكثر الأشكال والأبعاد شذوذا في الأحزاب الشيوعية الرسمية في الاتحاد السوفييتي والعالم.

٦- الحزب العالمي الواحد:

لقد جادلنا بان نظرية لينين حول الحزب اكتملت تماما. في سياساتها مع بداية١٩١٧. والآن ومع برهنـه ثورة أكتوبر على صحة النظرية، أمتلك لينين النفوذ والتأثير السياسي اللازمين لخلق الاستنتاج المنطقي لهذه النظرية أي الأممية الشيوعية.

افتتح المؤتمر الأول للأممية الشيوعية في موسكوفى٢مارس١٩١٩. إلا أن ذلك في الواقع لم يكن سـوى غرسا لراية وإعلانا لنية لم يحضر سوى ٣٥مندوبا وكان أغلبهم من الأمم الصغيرة التي كانت رسميا جـزءا من الإمبراطورية الروسية ولم تتخذ الأممية الجديدة شكلا محددا كمنظمة نضالية جماهيرية، إلا في المـؤتمر الثاني في يوليو١٩٢٠، والذي حضر ٢١٧٥ مندوبا كانت قيادة الأممية الشيوعية. بـالطبع عمـل أشـخاص كثيرون. وكثيرا ما اتخذ لينين مقعدا خلفيا كان زينوفييف رئيسها وتولى تروتسكي كتابه العديـد مـن أهـم بياناتها ومع ذلك فمن المشروع تماما تناول عمل الأممية الشيوعية في دراسة لنظرية لينين حـول الحـزب. حيث انه كان في الوقت ذاته المبادر بإنشائها واكثر أنصارها حماسة (في بعض الأحيان في مواجهة مؤيديه) كما انه يقينا الهم أووافق على جميع قراراتها الاستراتيجية الأكثر أهمية.

ستكون المناقشة هنا شديدة الاختصار والنقص. ويعود ذلك لسببين: أولا: أن التناول الملائم لجميع مسائل الاستراتيجية والتكتيكات والتنظيم التي تناولتها الأممية في سنواتها الأولى القليلة يقتضي كتابا علـى الأقـل؛ وثانيا: إننا معنيون أساسا بتطور نظرية لينين حول الحزب. وقد اشتمل عمل الأممية بالأساس على تطبيـق أفكار ناقشناها بالفعل. وبالتالي، فالخطوة العامة الأساسية فقط سيشار إليها هنا مع التركيز على تلك الجوانب من الكومنترن التي مثلت بطريقة ما انعطافات جديدة.

الفارق الأكثر لفتا للنظر بين الأمميتين الثانية والثالثة، كمنظمات. تمثل في كون الأولى اتحـاد فضـفاض لأحزاب وطنية مستقلة، في حين أن الأخيرة كان مقدرا أن تكون ممركزة بشكل صارم. وكمـا جـاء فـي القوانين التي اقرها المؤتمر الثاني: ينبغي أن تكون الأممية الشيوعية،في الواقع وبالفعل، حزبا شيوعيا واحدا للعالم كله. الأحزاب العاملة في البلاد المتخلفة ليست سوى الأقسام المنفصلة لهذا الحزب.'أعطيـت السـلطة العليا للمؤتمر العالمي الذي يلتقي دوريا مرة كل سنة، أما بين المؤتمرات فتتولى قيادة الأممية لجنتها التنفيذية المنتخبة، والتي منحت سلطات واسعة تتولى اللجنة التنفيذية إجمالي عمل الأممية الشـيوعية بـين مـؤتمر وآخر... وتصدر تعليمات إجبارية على جميع الأحزاب والمنظمات المنتمية للأممية الشيوعية. على اللجنـة التنفيذية للأممية الشيوعية أن تطرد المجموعات والأشخاص الذين يسيئون إلى الانضباط الأممي؛ كما أن لها أيضا الحق في طرد تلك الأحزاب التي تنتهك قرارات المؤتمر العالمي.

مثل هذا الفهم للأممية كحزب عالمي ممركز يمثل تقدما كبيرا. جزئيا، كان مصمما لمنع أي تكرار للتجزؤ الوطني الذي دمر الأممية الثانية في ١٩١٤. وبشكل أكثر إيجابية، كان يستهدف خلق هيئة أركان عامة لمـا افترض انه هناك ثورة عالمية وشيكة. لقد لخص تروتسكي بدقة التفكير الكامن وراء هذا الشكل التنظيمي.

أممية لينين ليست صيغة فارغة لتحقيق التجانس بين المصالح الوطنية والأممية،إنها تعتبر كوكبنا، الـذي يسكنه ما يسمى بالإنسانية المتحضرة، ساحة معركة واحدة تتنازع فيها أمم وطبقات اجتماعيـة عديـدة لقـد اقتضت ساحة المعركة الواحدة جيشا واحدا وقيادة عالمية واحدة. لقد كان مقدرا للأممية الشيوعية أن تكـون، بكلمات لوكاش" الحزب البلشفي-مفهوم لينين عن الحزب على نطاق عالمي'.

ولتحقيق هذا الهدف، كان من الضروري رعاية النموالسريع لأحزاب ثوريـة أصـيلة فـي جميـع الـبلاد الرأسمالية الأساسية. ولكي يفعل ذلك، عمل الكومنترن على تجميع المجموعات والتيارات الشـيوعية القائمـة وتوحيدها في أحزاب مستقرة. كما عمل على كسب أكبر نسبة ممكنة من قواعد الأحزاب الاشتراكية الأوروبية (خاصة الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني المستقل والحزب الاشتراكي الإيطـالي والحـزب الاشـتراكي الفرنسي). في هذه العملية كان العدوالأساسي هو"الوسطية" حيث كان يتعين القضاء على مصـداقية الزعمـاء الوسطيين من أجل التمكن من كسب مؤيديهم. كما كان يتعين منعهم من دخول الأممية ونقل العدوى إليها لقـد كان الضغط الذي مارسته القواعد لصالح الأممية هوما جذب الإصلاحيين إليها وخلق هذا الخطر الأخير. فـي المؤتمر الثاني. حذر لينين من أن الأممية الشيوعية أصبحت إلى حد ما الموضة... وقد تواجه خطر التميع من خلال تدفق المجموعات المتذبذبة وغير الحاسمة التي لم تمارس بعد قطعا مع أيديولوجية الأممية الثانية،.

وكما أصر لينين في ١٩٠٣ على الفقرة ١ من أحكام الحزب كسلاح ضد الانتهازية فقد وضـع الآن ٢١ شرطا للقبول في الأممية الشيوعية. كانت هذه الشروط شديدة الصرامة نص الشرط الثاني على أن أية منظمة تريد الانضمام إلى الأممية الشيوعية عليها أن تعزل بشكل ثابت ومنتظم الإصلاحيين والوسطيين عن مواقـع المسئولية في حركة الطبقة العاملة.، وأصر الشرط الرابع على الدعاية والتحريض المنتظمين..... في القوات المسلحة، كما طالب الشرط الرابع عشر بان تجرى الأحزاب الشيوعية فـي الـبلاد التـي يسـتطيع فيهـا الشيوعيون أن يعملوا بشكل شرعي تطهير دوري لعضويتها (إعادة تسجيل) بهدف تخليص الحزب بانتظـام من العناصر البرجوازية الصغيرة التي تتسرب إليه حتما،.

تلخيصا للشروطالـ ٢١، أعلن زينوفييف "بمثل ما انه ليس سهلا على الجمل أن يمر خلال ثقب الإبرة فإنني آمل ألا يكون من السهل على أنصار الوسط أن يمروا خلال الشروط الـ ٢١". لقد حضر المؤتمر قادة بـارزون مـن الوسط، كريسبيان وديتمان من الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني المستقل وسيراتى من الحـزب الاشـتراكي الإيطالي. إلا أن لينين دحض اعتراضاتهم بقوة بوصفها" كاوتسكية الأساس.... ومتشربة بروح برجوازية'.

بموازاة الصراع مع الوسطية، كان هناك جدال مع عدة تيارات ثورية ولكن يسارية متطرفة أونقابوية. وقد جرت هذه الجدالات بطريقة ودية أكثر كثيرا. لقد تم رد أخطاء اليسار بالأساس إلى شبابهم' وقلة خبـرتهم كـان بعـض اليساريين، وخاصة بستانيا من النقابويين الأسبان وتانر من الحركة النقابية القاعدية البريطانيـة، سـاخطين علـى انتهازية الأحزاب الاشتراكية الديموقراطية إلى درجة انهم رفضوا بالكامل الحاجة لحزب بروليتاري.في ردهم على ذلك، شرح لينين وتروتسكي وزينوفييف بصبر ألف باء النظرية اللينينية حول الحزب، مؤكدين على الاختلاف بين الحزب الاشتراكي الديمقراطي والحزب الشيوعي. ومما يجدر ملاحظته انه لم تكن هناك حملات ضد الاقتصادوية ولا ذكر لإدخال الاشتراكية إلى الطبقة العاملة من الخارج' جاء في الأطروحات التي تبناها المؤتمر أن:

النقابويين الثوريين كثيرا ما يتحدثون عن الدور الكبير الذي يمكن أن تلعبه أقليـة عازمـة ولكـن هـذا هوالحزب الشيوعي- أقلية عازمة فعلا من الطبقة العاملة، أقلية شيوعية، تريد أن تعمـل ولـديها برنـامج، وتسعى لتنظيم صراع الجماهير'.

أما الجدال الأكثر صعوبة والأكثر إفادة فكان مع أولئك الذين قبلوا بالحاجة لحزب ثوري ولكنهم رغبوا في انتهاج سياسة نقية تتمثل في عدم المساومة، وعدم إجـراء المناورات،وعـدم الاشـتراك فـي البرلمانـات البرجوازية أوالنقابات الرجعية- كان هذا هوخط مجموعة منشقة عن الحزب الشيوعي الألماني، وبورديجـا في إيطاليا، وجورتر وبانيكوك في هولندا، وجلاشر وسلفيا بانخورست في بريطانيا. بالنسبة للينين، كان كـل ذلك هراء قديماً ومعروفاً، إلا أن رده "الشيوعية اليسارية انحراف طفولي" المكتوب خصيصا للمؤتمر الثاني، كان واحدا من اشمل وأوضح عروضه لاستراتيجية وتكتيكات الحزب الثوري. روى لينين بعض القصـص غير المعروفة جيدا في تاريخ البلشفية.مجادلا بأنه من الضروري البقاء في النقابات مع القيام بعمل شـيوعي داخلها بأي ثمن "وبأنه مادمت تفتقد القوة اللازمة للتخلص من البرلمانات البرجوازية وسائر أنواع المؤسسات الرجعية، فعليك أن تعمل داخلها. لقد كتب أن المهمة الملقاة على عاتق الشيوعيين في إقناع العناصر المتأخرة والعمل بين هذه العناصر وعدم عزل أنفسهم عنها بشعارات يسارية مصطنعة وطفولية. كان لينين معنى بالا يعتبر الشيوعيون أن ما هوعديم الجدوى بالنسبة لنا هوشئ عديم الفائدة بالنسبة للطبقة وبالنسبة للجماهير.

الصورة التي قدمها لينين للحزب في الشيوعية اليسارية صورة عصابة من الدوجمائيين محدودي الأفـق السائرين في اتجاه واحد فقط-إلى الأمام- وإنما صورة منظمة شديدة الوعي والحنكة السياسية قـادرة علـى المناورة وفى بعض الأحيان على المساومة والتراجع.بحيث لا تفقد أبدا الصلة بالطبقة التي تسعى لقيادتهـا. ومع ذلك فهي قادرة" خلال جميع المحطات الوسيطة وجميع المساومات.... أن ترى بوضوح الهدف النهائي وتسعى على الدوام لتحقيقه" بالطبع لن يكون من السهل دائما التمييز بين المساومات الضرورية وتلك الخائنة ولكن سيكون من العبث صياغة وصفة أوقاعدة عامة(لا مساومات) تناسب جميع الحالات.

جدال لينين بان المطلوب هوتحليل الوضع الملموس:

إنها في الواقع إحدى وظائف التنظيم الحزبي والقادة الحزبيين الذين يستحقون هذا الاسم أن يكتسبوا مـن خلال الجهود الممتدة والدورية والمتنوعة والشاملة لجميع ممثلي الطبقة الذين يستخدمون عقولهم أن يكتسـبوا المعرفة والخبرة وبالإضافة إلى المعرفة والخبرة- الحس السياسي الضروري للحل السريع والسليم للمشكلات السياسية المعقدة"

أثناء ١٩١٩و١٩٢٠.كان التركيز الأساسي داخل الكومنترن على الصراع ضد الانتهازية في حين ينظـر إلى اليسارية المتطرفة على أنها انحراف اقل خطورة كثيرا ولكن في ١٩٢١ تغير ذلك على امتداد أوروبـا. حدث شقاق داخل حركة الطبقة العاملة وطرد الانتهازيون والوسطيون من الأممية – والآن تحـول التركيـز إلى مواجهة اليسارية' كان السبب الأساسي في ذلك هوتغير الوضع الموضوعي فقد شهدت فتـرة مـا بعـد الحرب مباشرة موجة دولية من الصراعات الثورية المباشرة وأصيبت البرجوازية بالـذعر كـان منظـور الأممية هوثورة عالمية آنية ولكن في بلد بعد آخر انهزمت الطبقة العاملة واستعادت البرجوازية الثقـة فـي جميع الحالات فشلت الأحزاب الشيوعية الجديدة بشكل لافت للنظر في كسب تأييد غالبية الطبقة العاملة.

كان المحفز المباشر لإعادة توجيه استراتيجية الكومنترن هوالعمل المأساوي للحزب الشيوعي الألماني في مارس ١٩٢١.ففي مواجهة العمل المستفز بشكل معتمد المتمثل في احتلال البوليس لمناجم فحم مانسفيلد، بالغ الحزب الشيوعي الألماني في رد فعله حيث حاول قادته. بدون استعداد ودون تأييد الأغلبية، أن يدعوا لإضراب عام وان يحولوه إلى انتفاضة وعندما لم يستجب العمال، أمره أعضاء الحزب بإجبارهم على النزول إلى الشارع وتم استخدام العاطلين عن العمل، الذين كان للحزب قاعدة كبيرة بينهم، في احتلال المصانع ضد إرادة العمال. كانت النتيجة هي صراع شديد بين العمال الشيوعيين وغير الشيوعيين، وهزيمة نكراء للشيوعيين في هذا الصراع، هلاك الكثير من أعضاء الحزب(انخفضت العضوية بحوالي الثلثين) وحيث أنها لم تكتف بذلك، فإن القيادة اليسارية" للحزب الشيوعي الألماني حاولت تعميم هذه المغامرة السخيفة في نظام يحمل اسم " نظرية الهجوم".

كان واضحا أن الوقت مناسب لطلب وقفة.أعلن لينين أنه إذا كان " منظروالهجوم" يشكلون تيارا محددا. فمن اللازم شن صراع لا هوادة فيه ضد التيار، فبدون ذلك لا توجد أممية شيوعية. تبنى المؤتمر الثالث للأممية في يونيو- يوليو١٩٢١ شعارا "للجماهير" وأعلن أن المشكلة الأكثر أهمية أمام الأممية الشيوعية اليوم هي كسب تأثير مهيمن على غالبية الطبقة العاملة" أصبحت تعطى عناية خاصة الآن للصراعات الجزئية والمطالب الجزئية.إن مهمة الأحزاب الشيوعية هي توسيع وتعميق وتوحيد هذا الصراع من أجل مطالب ملموسة...إن هذه المطالب الجزئية المتشكلة في ضوء حاجات أوسع الجماهير، يجب أن ترفعها الأحزاب الشيوعية بطريقة لا تقود الجماهير للصراع فقط، وإنما بحكم طبيعتها ذاتها تنظيم أيضا. كانت النتيجة المنطقية لهذا الخط الجديد هي سياسة الجبهة المتحدة. التي أقرتها اللجنة التنفيذية للأممية في ديسمبر ١٩٢١ وصدق عليها المؤتمر الرابع ١٩٢٢. كانت فكرة الجبهة المتحدة هي انه يجب أن يقترح على زعماء الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية إقامة جبهة متحدة على أساس برنامج مشترك يتضمن مطالب اقتصادية وسياسية أساسية تنبع من الحاجات المباشرة للطبقة العاملة إذا قبل الاشتراكيون الديمقراطيون. فستتوفر للأحزاب الشيوعية فرصة أن يظهروا عمليا تفوقهم بوصفهم المدافعين عن البروليتاريا. وإذا رفض الاشتراكيون الديمقراطيون الاقتراحات. فستقع عليهم اللوم فيما يتعلق بأي في صفوف العمال ولكن إلى جانب كونها سلاحا غير مباشر ضد الاشتراكيين الديمقراطيين. فقد كان مقصودا من الجبهات المتحدة أيضا التوفيق بين وجود أحزاب شيوعية منفصلة وحاجة الطبقة العاملة للوحدة في صراعها اليومي ضد الصناعيين والدولة.

ولكي تكون أحزاب الأممية قادرة بشكل أكثر فاعلية على القيام بهذا التحريض اليومي حول مطالب مباشرة وعلى إعطائه طابعا ثوريا. ولكي تكون أفضل استعدادا للفرص الثورية في المستقبل. فقد ساد الظن بأن من الضروري عليها أن س ليس فقط أيديولوجيتها واستراتيجيتها وتكتيكاتها. وإنما أيضا تفاصيل تنظيمها ووسائل عملها. لقد ناقشنا في وقت سابق الفروق بين تنظيم الحزب البلشفي قبل الثورة وذلك التنظيم الذي كان سائدا في الأحزاب الاشتراكية الديموقراطية الأوروبية فى١٩٢١.كانت أحزاب الشيوعية كثيرة لا تزال تعمل على أساس النموذج الاشتراكي – الديمقراطي ولكي يتم إصلاح ذلك تبنى المؤتمر الثالث أطروحات

حول تنظيم وبناء الأحزاب الشيوعية "كان على كل قسم وطني أن ينفذها إلى جانب الملاحظات العامة حـول المركزية الديموقراطية. أكدت الأطروحات على ضرورة أن يعمل جميع الأعضاء وعلى الـدور الرئيسـي لخلايا المصانع والنقابات وعلى أهمية كتابة تقارير عن جميع الأنشـطة وعلـى ضـرورة وجـود شـبكة اتصالات،كما أعطت الأطروحات تعليمات عن كيفية الاستعداد للاجتماعات والعمل في فروع النقابات.

إن تنظيم ملايين العمال في حزب عالمي واحد، الأممية الشيوعية أثناء سنواته الأولى القليلة يمثل من نواحي كثيرة أعلى نقطة وصلت إليها الحركة الثورية الماركسية ومع ذلك فقد كان هذا فشلا أيضا ليس فقط من حيـث انه لم يثمر ثورة عالمية فورية. وإنما أيضا من حيث أن الكومنترن توقف عن أن يكـون قـوة ثوريـة علـى الإطلاق خلال سنوات قليلة من إنشائه واصبح أداة خاضعة للسياسة الخارجية الروسية.كانت السيطرة الروسية هي الصخرة التي تحطمت عليها الأممية الشيوعية لقد كان بالطبع حتميا أن يتم بالاستماع باحترام لزعمـاء أول ثورة عمالية ناجحة وفضلا عن ذلك فقد كان هذا في البداية عاملا إيجابيا حيث أن الزعماء الـروس وخاصـة لينين وتروتسكي كانوا متفوقين بوضوح في النظرية والخبرة العملية على أي شخص في الأحزاب الأوروبيـة الجديدة اعترف لينين صراحة بواقع القيادة الروسية ولكنه افترض أنها ستكون مؤقتة فقط أن القيادة في الأممية البروليتارية الثورية ذهبت لفترة ليست قصيرة بلا شك للروس كما كانت في فترات عديدة من القـرن التاسـع عشر في أيدي البريطانيين ثم الفرنسيين ثم الألمان طالما أن الثورة الفرنسية ربطت مصيرها بنجـاح الثـورة دوليا،فإن سيطرة الزعماء الروس ساعدت الأممية ولكن متى تم التخلي عن هذا التوجه تحطمت الأممية.

هناك عاملان يفسران الخضوع السلبي المستمر للأحزاب الشيوعية الأجنبيـة للتوجـه الروسـي الأول هوسلسة الهزائم التي تعرضت لها حركة الطبقة العاملة الدولية. احتفظ الروس فقط بالمكانة المرموقة التـي كفلها النجاح وعلى أساس لاشيء سوى النكسات لم يطور أي حزب آخر الثقة أوالنفـوذ للازمـين لتحـديهم والسبب الثاني هوفشل البلاشفة في التوصيل أوبمعنى آخر فشل الأحزاب الأجنبية فـي الـتعلم لقـد وجـد شيوعيوألمانيا وإيطاليا وفرنسا...الخ. أنفسهم دائمي التعرض للنقد والتصحيح أولا من اليسار ومـن اليمـين خلال هذه العملية يبدوانهم لم يستوعبوا المنهج اللينيني ككل والذي كانت التصـحيحات تقـوم عليـه وإنمـا استوعبوا فقط فكرة أن موسكوكانت دائما على حق وبالتالي. فلم يطوروا أبدا القدرة على التحليل الملمـوس المستقل التي اعتبر لينين من وظائف الحزب غرسها في قادته في خطابه الأخير أمام الأممية الشيوعية فـي نوفمبر ١٩٢٢. بدا أن لينين بدأ التصارع مع هذه المعضلة وان كانت الفرصة لم تتح له لتطوير أفكاره:

في المؤتمر الثالث في ١٩٢١. تبنينا قرار حول البنية التنظيمية للأحـزاب الشـيوعية وحـول وسـائل ومضمون نشاطها القرار ممتاز ولكنه روسي تماما تقريبا. أي كل شئ فيه يقـوم علـى أسـاس الظـروف الروسية هذه النقطة الجيدة في القرار ولكنها أيضا سر فشله إنها سر فشله لأنني واثق أن الأجنبي لا يستطيع قراءته..... وإذا استطاع أجنبي بشكل استثنائي أن يفهمه فانه لا يستطيع تنفيذه... إننا لم نتعلم كيف نعـرض خبرتنا الروسية للأجانب... أن أكثر الأشياء أهمية بالنسبة لنا الرفاق الروس والأجانب كذلك هـوأن نجلـس وندرس... أننا بالمعنى العام أما هم فعليهم أن يدرسوا بالمعنى الخاص.لكي يتمكنوا من أن يفهموا حقا البنيـة التنظيمية للعمل الثوري ووسائله ومضمونه.

إن فشل الأممية وتحولها إلى أداة لبيروقراطية الدولة الروسية الصاعدة لا يحط من شأن مفهوم الحـزب العالمي المركز حيث أن ذلك المفهوم كان انعكاسا للطابع الدولي للصراع الطبقي. ولكن هذا الفشل يظهر أن خلق أممية لا يكثف فقط المزايا وإنما أيضا المخاطر الكامنة في خلق أي حزب.كان من شأن وجـود أمميـة صحية أن يوازن بقوة عملية الانحطاط الجارية في روسيا لقد أثبتت الأممية أن في الواقع كانت سندا ودعامة للبيروقراطية الستالينية. إن ما تبقى من السنوات الأولى للأممية الشيوعية كان بكلمات تروتسـكي. ميراثـا برنامجياً لا يقدر بثمن ويستطيع المرء أن يضيف إلى ذلك أن وثائقها وأطروحاتها وجدالاتها ومـن بعـض النواحي ممارساتها تعطينا الصورة الأكثر اكتمالا لتطبيق النظرية اللينينية حول الحزب في قمة تطورها.

٧- جوهر نظرية لينين:

من النقاش السابق يتضح أن نظرية لينين حول الحزب كانت شديدة التعقيد ومتعددة الأوجه وقد جادلنا بان الفهم الكامل لهذه النظرية يقتضى تعقب تطورها بالمشاكل العملية والنظرية التى أفرزتها لقد حاولت أن نفعل ذلك وعلى هذا الأساس من الممكن أن نجازف بتخليص موجز لجوهر النظرية.

هناك تيمتان أساسيتان فى نظرية لينين حول الحزب: أولا؛ التنظيم المستقل تماما للعمال المتقدميين والذى يتمسك بصلابة بالمصالح الكلية للطبقة العاملة وجميع المستغلين وبالهـدف النهـائى المتمثـل فـى الثـورة الاشتراكية العالمية وثانيا: أوثق علاقة ممكنة مع جماهير العمال والتى يتم الحفاظ عليها من خلال توفير قيادة عملية فى كل صراع يشارك فيه العمال أويؤثر على مصالحهم يعنى العنصر الأول التمسك الثابت بالمبـدأ، للقبول لفترة بوضع الأقلية الصغيرة والتى تبدومنعزلة وشن صراع لا بهذا داخل الطبقة العاملة ضد جميـع مظاهر الانتهازية ويعنى العنصر الثانى المرونة التكتيكية القصوى والقدرة على استغلال كل الطرق للحفـاظ على الصلة بالجماهير.

هذان العاملان ليسا منفصلين بل انهما مرتبطان جدليا وبينهما اعتماد متبادل بدون مبادئ صارمة وتنظيم فاما أن الحزب سيكون غير قادر على تنفيذ التحولات التكتيكية المفاجئة الضرورية. أوأن هـذه التحـولات ستخرجه عن خطة وبدون مشاركة عميقة فى صراعات الطبقة العاملة. سيكون الحزب غير قادر على تشكيل انضباطه والحفاظ عليه وسيصبح عرضة للضغط من الطبقات الغريبة إذا لم يكن الصراع اليـومى للطبقـة العاملة مرتبطا بالهدف النهائى المتمثل فى الإطاحة بالرأسمالية فانه فى تحقيق هدفه وإذا لم يستطيع الحـزب أن يربط الهدف النهائى بالصراعات الآتية فانه سيحط إلى طائفة غير مفيدة كلما كان النشاط العفوى للعمـال متطورا. كلما احتاج إلى تنظيم ثورى واعى تجنبا للهزيمة الكارثية. إلا انه يمكن الحفاظ على التنظيم الثورى وتجديده إلا إذا حصل على إمداد بالدم الجديد من الثورة العفوية للجماهير.

أن جميع الأشكال التنظيمية التى تتسم بها البلشفية..الرقابة الوثيقة على حـدود الحـزب التـزام جميـع الأعضاء بالنشاط الانضباط الصارم. الديموقراطية الداخلية الكاملة الدور الأساسي لخلية مكان العمل. الجمع بين العمل الشرعى وغير الشرعى. مستقرة من الحاجة للجمع بين هذين العنصرين الحزب اللينينى هوالتعبير الملموس عن التوليف المارهى للحتمية والإرادية فى الممارسة الثورية:

على امتداد حياة لينين الثورية كان الجانبان المشار إليهما هنا موجودين. ولكن فى الفترات المختلفة كـان أحد الجانبين يميل إلى أن يزداد أهمية على الآخر فى اهتماماته فى ١٩٠٣ و١٩١٤ وفى المؤتمرين الأولـين للأممية الشيوعية كان استقلال الحزب هوالمسيطر وفى ١٩٠٥ وفى المؤتمرين الثالث والرابع للأمميـة دان الجانب المسيطر هوالعلاقة بالجماهير في ١٩١٧. اندمج العاملين تماما بالتحديد لان الثورة عبرت عن اندماج المطالب الآتية للطبقة العاملة مع مصالحها التاريخية أن جزءا من عبقرية لينين الفريدة كان قدرته على الحكم على الجانب الذى ينبغى التأكيد عليه وأماله" العصا نحوه فى وقت محدد.

لقد كتب لينين: لا ينبغى ×

من بين جميع الماركسيين لا شك أن لينين صنع الإسهام الأكبر والأكثر أهمية فى تطور نظرية الحـزب لقد عبرت أفكاره تنظيم استراتيجية وتكتيكات حركة الطبقة العاملة الروسية أولا ثم العالمية تمثل هذه الأفكار المعيار الذى يمكن بواسطة تقديم جميع باقى الإسهامات فى نظرية الحزب بما فى ذلك إسهام ماركس كما أنها تمثل إلى حد كبير الإطار الذى تدرس داخله هذه الإسهامات.

الفصل الرابع

وجهة النظر البديلة لروزا لوكسمبورج

لقد كان هناك الكثير من المنتقدين لنظرية لينين للحزب من خارج وداخل حركة الطبقة العاملة ولكن كانت أهم هذه الانتقادات هى انتقادات روز الوكسمبورج الاشتراكية الثورية التى دافعت بعمق عن وجهة نظر بديلة للحزب.

١- المجادلات ضد لينين – عفوية الجماهير:

كانت روزا لوكسمبورج ثورية بولندية أمضت أعوام حياتها القائدة النظرية لاقصـى يسـار الاشـتراكية الديموقراطية الألمانية. وظهرت فى١٨٩٩، بكتيبها إصلاح اجتماعى أم ثورة كالمعارضة الرئيسية للتحريفية البرنشتينية ومنذ تلك اللحظة اكتشفت بشكل متزايد وحاربت جمود ومحافظية الوسط الكاوتسكى.ولكـن كـان اهتمامها الشديد بتطور الحركة الاشتراكية الروسية السبب فى أنها كونت وجهة نظرها المميـزة عـن دور الحزب الثورى وعلاقته بالطبقة العاملة فلما أزعجها انقسام ١٩٠٣فى الحزب الروسى وما اعتبرته"الوسـطية المتطرفى للينين قررت أن ترد على لينين فى كتيبها الشهير المكتوب فى١٩٠٤'مشاكل تنظيمية للاشـتراكية الديموقراطية الروسية.

فى هذا العمل بدأت. كما ينبغى أن يفعل الماركسى بوضع مسألة تنظيم الحزب بقوة فى إطـار المهمـات الخاصة والمشاكل التى تواجه الحركة البروليتاريا ككل فى روسيا. لأنه تجادل روزا. روسيا لم تحقق ثـورة برجوازية بعد وما تزال تعانى من سيطرة ملكية مطلقة فان البروليتاريا لم تنتفع بعد بالتعليم والتنظيم السياسى الذين يأتيان حتميا مع الديموقراطية البرجوازية لذا ففى روسيا لكتب روزا:

يجب أن تصنع الاشتراكية الديموقراطية بجهودها فترة تاريخية كاملة يجب أن تقود البروليتاريا الـروس من حالهم البحر الأحمر الذى ××× الاتوقراطى. إلى تنظيم طبقى يساعدهم على أن يصبحوا واعين بأهدافهم التاريخية ويحضرهم للنضال لتحقيق عدة الأهداف يجب أن يخرجوا هذا التنظيم من العدم. مثل الآلة الجبـار لوجاز التعبير.

فى هذا الإطار من النضال ضد النوادى المنفصلة والمجموعات المحلية التى ميزت الفترة السـابقة فـى روسيا تجد هى انه من المفهوم لماذا يجب أن يكون شعار الأشخاص الذين يريدون أن يروا منظمـة قويـة هوالمركزية ولكنها تذكر أن المركزية لا تغطى تماما مسألة التنظيم بالنسبة للاشتراكية الديموقراطية الروسية لأنه رغم انه لا يمكن إنكار أن هناك ميل عضوى نحوالمركزية فى الحركة الاشتراكية الديموقراطية مصدره التكوين الاقتصادى للرأسمالية. فانه يمكن مدها لنقطة تعيق فيها التطور غير المكبل ومبادرة الطبقة العاملـة ذاتها.

أن الحركة الاشتراكية الديموقراطية هى الأولى فى التاريخ التى تقوم فى كل مراحلها ومـن خـلال ×× تحويلها على التنظيم × للجماهير لهذا السبب تخلق الاشتراكية الديموقراطية نوعا من التنظيم مختلف تمامـا عن المعروف فى كل انحرافات الثورية السابقة من حركات اليعقوبين والبلانكيين.

فلأن البروليتاريا تتعلم وتطور كلا من وعيها الطبقى وتنظيمها فى مسار النضال ذاته:

تجادل ورزا لوكسمبورج بان لينين قد نسى أوانه لا يقدر هذا الفرق الرئيسـى بـين تنظـيم الاشـتراكية الديموقراطية وبين تنظيم اليعقوبية أوالبلانكية وتكتب روزا ضـد رأى لينـين بـان الثـورى الاشـتراكى الديموقراطى ما هوإلا يعقوبى مندمج تماما فى تنظيم البروليتاريا التى أصبحت واعية بمصالحها الطبقيـة أن الحقيقية هى أن الاشتراكية الديموقراطية ليست ملحقة بتنظيم البروليتاريا أنها البروليتاريا ذاتها لذلك لا يجب بأى ثمن تقيدها بشكل تنظيمى متطرف – المركزية وتأديبى بل يجب السماح لها بالحريـة التامـة بـالتطور فالخطوة الكبرى للأمام من حيث التكتيك ووسائل النضال لا يخترعها القادة واللجنة المركزية ولكنها النـاتج العمومى للحركة التى تحتمر.

فبالنسبة للوكمسبورج كان فشل لينين فى تقدير هذا الميل المحافظ خطرا خصوصا فى ظـروف روسـيا حيث كانت الحركة البروليتارية شابة غير مكتملة النضج بعد فى تعديلها السياسى.

بالإضافة إلى هذه التحذيرات العاملة من مخاطر المركزية – المتطرفة للينين تتعامل لوكسـمبورج مـع قواعد الحزب والانتهازية مرددة مقولات تروتسكى (انظر الفصل الثانى) فهـى تـرفض فكـرة أن طريـق الانتهازية يمكن أن يسد بواسطة فقرات فى دستور الحزب' فالانتهازية هى نتاج تاريخى ومرحلة حتمية فـى الحركة وتعتقد لوكسمبورج: أنه من السذاجة تمنى إيقاف هذا التيار بواسطة معادلة موجودة فى دستور'.

وفى استخلاصاتها لنقدها الأطروحات لينين التنظيمية تعود لوكسمبورج للنقطة الأولى. واضعة الخـلاف فى مجمل تطور الصراع الطبقى فى روسيا وذلك فى فقرة بليغة خالدة.

وهكذا اعتبرت لوكسمبورج كل خطة لينين التنظيمية انحراف ذاتوى أوأدارى بلغة فلسفية مثـالى) عـن التوجه التاريخى المادى أنتجه خليط من حركة بروليتاريا غير ناضجة مع المهام الضخمة التى تواجهها وفى مواجهة تشديد لينين على دور الحزب وقيادته شددت هى على الدور المحافظ الكامن فى مثل هـذا الجسـم وباينت بينه وبين العفوية الثورية للجماهير فى نضالها.

طورت روزا هذه الأطروحات اكثر الإضراب الجماهيرى.. الحزب السياسى والنقابات العمالية" المكتوب في ١٩٠٦ ليشرح للطبقة العاملة الألمانية دلالة وأهمية أحداث ١٩٠٥ فى روسـيا يوضـح الكتيـب كيـف أصبحت الأفكار التى طرحت فى المسائل التنظيمية للاشتراكية الديموقراطية الروسية واقعا حقيقيا فى روسيا الانتفاضة الثورية ١٩٠٥ فوق كل شئ يعتبر الكتيب تقديرا لمبادرة وشجاعة الطبقة العاملة فى أيجاد حلـول لمشاكل استعصت على المنظرين لمدة عقود من الزمن.

أوضحت لوكسمبورج أن ١٩٠٥ كانت مجرد أعلى نقطة فى خمس سنوات من الغليـان قصـتها روسـيا مشتعلة بالإضرابات الجماهيرية كانت هذه الإضرابات هى التعبير الخارجى عن النضج الداخلى للثـورة ذاتهـا كثيرا ما بدأت تلك الإضرابات بدون تحضير أوحتى مجرد صناديق إضراب بل وعلى عكس كل السيناريوهات السابقة بدلا من تعقب الإضرابات وجود تنظيم نقابى سبقتها أعطتها دفعة قوية كثيرا أيضا مـا كـان السـبب المباشر مشكلة بسيطة فالإضراب الجماهيرى فى يناير ١٩٠٥ بسانت بطرسبورج والـذى أدى إلـى المسـيرة

لقصر الشتاء بدا بسبب الاستغناء عن عاملين فى مصنع أعمال بوتيلوف وجد كل تلك الأفعال عفويتها لم يكـن لديها أى خطة معدة مسبقا ولم يدع لها أي حزب أومجموعة من القادة كانت هذه الإضرابات ممكنة لان الثـورة أطلقت مبادرة وشجاعة وتضحية ذاتية من فى الجماهير بدرجة لم يكن يحلم بها من قبل وذكرت لوكسـمبورج أن محاولة اللجنة المركزية للحزب الاشتراكى الديموقراطى لروسي قرابة سياسة الحركة الدعوة إلى إضـراب جماهيرى فشلت بشكل مطلق أيضا كان من المركزى فى نقد لوكسمبورج للمفاهيم المسبقة المتفق عليهـا عـن الصراع الطبقى هجومها على الفصل الميكانيكى بين النضالات الاقتصادية والسياسية وهى ازدواجية موجـودة بوضوح فى كتاب ما العمل؟! ولم يمتثل العمال الروس لهذه التبويبات أيضا:

ولكن أن الحركة لا تتقدم من النضال الاقتصادى للسياسة ولا حتى العكس، أن كل فعل جماهيرى سياسى ××××× يصل إلى أعلى نقطة سياسية له. إلى عدد كبير من الإضرابات الاقتصادية وهذا لا ينطبق فقط على كل الإضرابات الجماهيرية العظيمة ××××××× ووضح وتعقد النظام السياسى لا يحدث فقـط أن النضـال الاقتصادى لا يتراجع بل يتسع وينتظم ويصبح مشتركاً على قدم المساواة بين ××××.

تتحول كل بداية جديدة للنضال السياسى وكل انتصار طازج له إلى قوة دفع هائلـة للنضـال الاقتصـادى والعكس صحيح، فظروف نضال العمال الاقتصادى المستمر ضد الرأسماليين تحافظ على طاقتهم القتالية فى كل فترة نضال سياسى. بالاختصار أن النضال الاقتصادى هوالتحول من مركز سياسى إلى آخر. النضال السياسى هوالإخصاب الثورى لمعركة النضال الاقتصادى السبب والنتيجة يتبادلان الأماكن هنا باستمرار. وهكذا يشـكل العامل الاقتصادى والسياسى فى فترة الإضراب الجماهيرى للنضال الطبقى للبروليتاريا في روسيا.

كما نرى فان كتيب الإضراب الجماهيرى جزء من الجدل ضد ليني فبالضبط كما كانت خطة لينين لتنظيمية ×× يعتبر ذاتوايين هؤلاء الذين يحاولون التخطيط للإضراب الجماهيرى أن الأطروحة الأساسـية للكسـمبورج فى عمليها المذكورين هى التحذير ضد المبالغة فى تقدير إمكانيات الحزب وبالتحديد قيادة الحزب:

٢- دور الحزب:

ما هى الاستنتاجات التى استخلصتها روزا لوكسمبورج حول دور وطبيعة الحزب الثورى بناء على هـذا التسديد القوى على الفعل الذاتى والمبادرة الخاصة بالطبقة العاملة هذا التشديد الذى سيطر على كـل فكرهـا وفعلها الثورى؟ للإجابة على هذا السؤال يجب أولا أن تكون الاستنتاجات التى لم تستخلصها روزا واضـحة لأنه كثيرا ما أساء من أدعوا تأييدها أومنتقدوها تصوير موقيت فى هذا الموضوع.

لم تطرح لوكسمبورج كما أكد البعض كثيرا نظرية عن الثورة عفوية نقية ليس الحزب الثـورى ولقيـادة السياسية مهمين فيها من السهل إثبات هذا لان كل تاريخها السياسى وما كتبته بالفعل يشهدان ضد هذا التأكيد فقد انضمت إلى حزب البروليتاريا البولندى وهى مازالت طالبة بالمدرسة وظلت طوال المتبقى من عمرهـا عضوا بحزب سياسى بالفعل كان الحزب الاشتراكى الـديموقراطى البولنـدى الـذى قـاده أقـرب رفـاق لوكسمبورج ليوجوشية(leo Jogiches) فى ظروف مشابهة لتلك فى روسيا حزبا غير مرة مركزى وتامرى كتبت فى مسائل تنظيمية للاشتراكية الديموقراطية الروسية أن الاشتراكية الديموقراطية كقانون مضـادة لأي مظاهر للمحلية والفيدرالية. أنها تسعى لتوحيد كل العمال وكل المنظمات العمالية فى حزب واحد،

خصصت روزا لوكسمبورج فصلا من كتيبها الإضراب الجماهيرى للدفاع عن الحاجة لفعل متحـد بـين النقابات العمالية والحزب الاشتراكى الديموقراطى فى ظل السيطرة العامة للحـزب وبعـد ١٩١٤ وانهيـار الأممية الثانية دافعت لوكسمبورج.مثل فعل لينين عن بناء أممية مركزية ضد فكرة الأممية الالفيدرالية وفـى نهاية كتيب جونيوس كتبت فى الملحق أطروحتها حول مهام الاشتراكية الديموقراطية الأممية:

أن مركز الجذب فى تنظيم البروليتاريا كطبقة هوالأممية فى وقت السلم التكتيكات التى تتخـذها الأقسـام القومية فى مسائل العسكرة. سياسة المستعمرات السياسة التجارية الاحتفال بأول مايووأخيرا التكتيك الجماعى الذى يجب اتباعه فى حالة الحرب.

يجب أن يكون لفرض تنفيذ قرارات الأممية الأولوية على كل شئ آخر الأقسام القومية التى لا تلتزم تضع نفسها بنفسها خارج الأممية.

من هذا يتضح أن روزا لوكسمبورج تنبهت للحاجة لان يقود حزب ثورى الطبقة العاملة فـى كـل شـئ بالضبط كما تنبه لينين أما الخلافات مع لينين فقد كانت فى المفهوم حول طبيعة هذا الحزب وماهية مهامـه. لقد رأت لوكسمبورج بسبب ثقتها المطلقة فى قدرات العمال فى النضال، أن المهام الأساسية للحـزب هـى القيادة السياسية وليس إصدار الدعوات للفعل والتنظيم الفعلى لهذا النضال.' بدلا من أن يحير الاشـتراكيون الديموقراطيون أنفسهم بالجانب التقنى أوميكانيزمات الإضراب الجماهيرى. فهم مدعون لتولى القيادة السياسية فى خضم الفترة الثورية.

هذه أساسا، رؤية دعاوية لمهام الحزب ولها تداعياتها على درجة المركزة والنظام الذى يتطلبـه التنظـيم الحزبى. فالنظام الصارم الذى طالب به لينين كان فوق كل شئ لتحقيق الوحدة فى الفعل. أن حزبا يحدد نفسه عموما بالدعاية ليس به حاجة لمثل ذلك النظام الصارم؛ يصبح هنا التفاعل الحر للأفكار أكثر أهمية واحد من افضل الأمثلة على الاختلاف بين لوكسمبورج ولينين فى هذا الموضوع هوالفرق بين رأيهـم فـى الـروتين والإدارة الحزبيين. كان لينين دائما مشتركا بشكل مكثف فى كل صغائر التنظيم الحزبـى. تمويـل وأعـداد المؤتمرات. ولكن لم تلعب لوكسمبورج أى دور، تقريبا، في هذه الأمور لا فى الحزب البولندى ولا الألماني يكتب مؤرخ حياتها، نيتل. يقول:

عند نقطة معينة تم التوصل لقرار حزبى رسمى فى الحزب الاشتراكى الديموقراطى انه يجـب إلا تشـغل لوكسمبورج نفسها بالمسائل التنظيمية أبدا. وبأنه يجب إلا تشترك فى أي من المؤتمرات والاجتماعات الرسمية.

أيضا، ولان عقلها كان منصبا على مهمة الدعاية، لم يهمها على الإطلاق مسألة التفريق بين عضوالحزب الخاضع لنظام تنظيم وبين المؤيدين والمتعاطفين مع الحزب، تلك هى المسألة التى كانت حيوية جدا بالنسـبة للينين ويتضح عدم اهتمامها هذا من تحذيرها ضد "إقامة تقسيم في الهواء" بين أعضـاء الحـزب و"مجـالهم الجماهيري المباشر". هكذا، في رأى لوكسمبورج. يجب أن يمارس تأثير الحزب فوق الروليتاريا أساسا مـن خلال أفكاره، برنامجه وشعاراته وليس من خلال سلطة تنظيمية أومبادرته بالفعل. بينما كان هذان العنصران أكثر توازيا عند لينين.

من المهم أن نبقى الخلافات بين لوكسمبورج ولينين، على الرغم من أهميتها، فى حدود معينة فقد وقعـت محاولة لاقتراح أن ابتعاد لوكسمبورج عن لينن فى مسألة طبيعة الحزب جعلها بطريقة ما منفصلة عن التيار الرئيسى للماركسية الثورية فى القرن العشرين – أنها مثلت نموذج ديموقراطى يكاد يكـون ليبرالـى مـن الماركسية معاكس لنموذج لينين الديكتاتورى. يكتب برترام د.وولف، أحد المدافعين الأساسـيين عـن هـذه الرؤية، فى مقدمه كتاب الثورة الروسية والماركسية واللينينية:

رغم انه يطلق على كليهما (لينين ولوكسمبورج) ثورى اشتراكى إلا أن مزاجيهـا المختلفـين وارائهمـا المتباينة حول طبيعة القيادة الاشتراكية والفعل الذاتى للطبقة العاملة، كل هذا جعلهما قطبين منفصلين.

المراد قوله هنا هوأن اعتراضات لوكسمبورج على الوسيطة – المتطرفة للينين كانت جوهرية بينما كـان اتفاقهما كاشتراكيين ثوريين شئ سطحى وعرضى إلا أن هذه مغالطة ضخمة يروح لها من اجل قيـد روزا لوكسمبورج فى المعركة الأيديولوجية للحرب الباردة أن هذه مغالطة تجد نفيها التام فى ذات الوثيقـة التـى يستخدمها وولف كدليل الإثبات الرئيسى، الثورة الروسية.

لقد اثبت البلاشفة انهم قادرون على كل شئ يمكن أن يقدمه حزب ثـورى ضـمن حـدود الإمكانيـات التاريخية... أن الأمر ليس هذه أوتلك المسألة الثانوية التكتيكية. بل هوقدرة البروليتاريا على الفعـل. قوتهـا على الفعل هوإرادة الوصول للاشتراكية فى هذا الأمر كان لينين وتروتسكى وأصدقاؤها فى المقدمة. هـؤلاء هم أصحاب السبق فى تقديم المثل لبروليتارية العالم. وما يزالوا هم الوحيدون حتى الآن الذين يستطيعون أن يصرخوا بأعلى صوت لقد جرؤنا على الفعل'.

هذه هى السياسة البلشفية الجوهرية والباقية وبهذا المعنى خدمتهم الخدمة التاريخية الأبدية هى السير على راس البروليتاريا العالمية بالاستيلاء على السلطة السياسية والإحلال العملى لمسألة تحقيق الاشتراكية وفـى المبادرة بجلال على تصفية حساب راس المال والعمل المأجور فى العالم كله يمكن فقط طرح المسـألة فـى روسيا ولكن لا يمكن حلها فى روسيا وبهذا المعنى يكون المستقبل فى كل مكان للبلشفية.

الأكثر من ذلك انه فى غضون شهور من كتابة هذه السطور كانت لوكسمبورج منخرطة فى اكثر شـكل ملموس للتضامن مع لينين باشتراكها فى تأسيس الحزب الشيوعى الألماني كانت روزا لوكسمبورج مفكـرة ذات شأن واستقلال عظيمين لهذا اختلفت مع لينين فى الكثير من نقاط النظرية والتطبيق؛ إلا أن اشتركت فيه مع لينين- الإخلاص التام للماركسية الثورية والصراع الطبقى العاملى للبروليتاريا –كان أكثر جوهرية. لقـد تجادلا بعنف، أجل ولكن داخل إطار مشترك. وليس أبدا بنفس الطريقة التى حاربا بها برنشتاين وكاوتسـكى المخضرم. يمكن فقط على أساس فهم هذا الإطار المشترك، نقطة انطلاقهمـا الواحـدة اسـتيعاب وتقـدير خلافاتهما طبيعة ودور الحزب بشكل سليم.

٣- خلفية أفكار لوكسمبورج:

لوكان لينين ولوكسمبورج، كما جادلنا، قد انطلقا من نفس المقدمات الجوهرية. فكيف أذن تفسر خلافاتهما حول مسألة الحزب؟ أن التفسيرات المبينة على مزاج لوكسمبورج لن تفيدنا في شئ. فأيا كانـت اختلافاتهـا المزاجية التي شعرت بها تجاه أساليب لينين فقد كانت ثورية منضبطة بالقدر الكافي للتغلب على مشـاعرها الشخصية لووجدت في ذلك ضرورة سياسية، بالضبط كما فعل تروتسـكى فـي ١٩١٧. والأضـعف مـن التفسيرات المزاجية هوإرجاع اختلافها مع لينين إلى أي ضعف نظرى عانت منه لأنه لـم يكـن هنـاك أي مبالغة حين وصفها فرانزميهرنج بأنها "أكثر العقليات عبقرية من بين كل الورثة العلميين لماركس وإنجلز.

تكمن الجذور الحقيقية لاختلافات لوكسمبورج مع لينين بالتحديد فى الظروف التاريخية المختلفة جدا التـى كان الاثنان يعملان فى إطارها. فعلى الرغم من أن المسائل التنظيمية للاشـتراكية الديموقراطيـة الروسـية والإضراب الجماهيرى قد عالجا الحركة العمالية الروسية كموضوعهما إلا أنه من الواضح أن لوكسـمبورج كانت تكتب وهى تضع نصب عينها الظروف الألمانية والتجربة الألمانية. هذا التوجه فى الكتابة صريح فـى الإضراب الجماهيرى، ولكن حتى فى العمل الأول نجد أنها عندما تريد مثل ملموس على مخاطر المركزيـة المفرطة والاتجاهات المحافظة للقيادة فأنها تستشهد بمثل الاشتراكية الديموقراطيـة الألمانيـة وتكيفهـا مـع البرلمانية ففوق كل شئ كانت الظروف الألمانية هى التى شكلت مفهومها عن الحزب؛ ولم يكن بالإمكـان أن تكون شروط تواجد الحركتين العماليتين الألمانية والروسية أكثر تباينا مما كانتا عليه.

فى المقام الأول: عند وصولها لألمانيا انضمت لوكسمبورج لحزب جماهيرى موجـود بالفعـل – أكبـر وانجح اشتراكى عرفه العالم حتى ذلك الوقت – يضم مئات الألوف من الأعضاء، الآلاف مـن المنظمـات الإقليمية، حوالى٨٠ جريدة يومية وعدة عقود من النضال كتاريخ. كان على لينين، على العكـس، أن يبنـى حزبا من لا شئ.هكذا بينما كان على لينين التعامل بمنتهى الجدية مع كل المسائل العملية(وبالتالى النظريـة) للتنظيم والكفاءة والاحتراف، تعاملت لوكسمبورج مع تلك المسائل كامر مفروغ منه فلم يكن موضوع كيفيـة تنظيم الحزب بالضبط أمرا مطروحا فى الحزب الاشتراكى الديموقراطى أبدا.ولا يوجد دليـل مطلقـا علـى روزا فكرت بجدية فى تفاصيل التنظيم من هذه الزاوية لم يمكن أبدا أن يكون التباين مع لينين أكثر اكتمالا.

فى المقام الثانى نجد حقيقة أن الحزب الاشتراكى الديموقراطى الألماني والنقابات العمالية المرتبطـة بـه كان قد وصلا إلى مرحلة متقدمة من البقرطة فى ما كان وطن البيروقراطية والنظام كما أشرنا من قبل فـى هذه الدراسة فقد حافظت الحركة العمالية الألمانية على شريحة ضخمة مـن المـوظفين الثـابتين أصـحاب الامتيازات يخدم تنظيم بوجوده كحجة مستديمة من أجل تجنب الفعل. إما أن التنظيم لم يصل بعد للقوة الكافية للفعل أوأن الفعل سيعرض التنظيم للخطر. أكتشفت روزا لوكسمبورج هذه الحقيقة بوضوح وقبل أى ماركسى آخر. وبالتأكيد قبل أن يراها لينين بزمن. وتعاملت برد فعل عنيف ضدها لقد حثت بقوة على ضرورة الإبداع العفوى للجماهير من أجل إيجاد مخرج من مملكة الموظفين المحافظة.

الأكثر من ذلك العفوية والنضال كانا هما بالتحديد الناقصين فى الحركة العمالية الألمانية. لقد كـان مسـتوى الإضراب عند الطبقة العاملة الألمانية فى الأعوام الأولى من هذا القرن منخفضا جـدا. فـى السـنوات السـت بين١٩٠٠و١٩٠٥ كان هناك١١٧١ إضراب فى السنة تضمنت ١٢٢٦٠٦ مضرب في السنة (مما يجعل معـدل رقم العمال فى الإضراب الواحد ١٠٤ عامل فقط). قارن هذا المعدل بأرقام روسيا حيث كان هنـاك ٨٧٠٠٠٠ مضرب في ١٩٠٣ مع الأخذ فى الاعتبار أن قوة العمل الروسية كانت اصغر بكثير. وكـان هنـاك٢٨٦٣٠٠٠ مضرب في ١٩٠٥ (١٨٤٣٠٠٠ منهم اشتركوا في إضرابات سياسية و٥٥٠٠٠٠ مضرب سياسي فـى ١٩١٢ من هذا يمكن رؤية أن الحركة العمالية الألمانية، رغم حزبها الاشتراكى العظيم وتنظيماتها الرائعة، كانت ضعيفة وغير فاعلة نسبيا فى الصراع الطبقى البسيط ضد الرأسمالية. بينما حارب العمال فى روسيا، حيث لم يكن هناك حزب جماهيرى وحيث كان التنظيم النقابى غير موجود فعليا. معارك عظيمة ضد كل من الرأسماليين والدولـة. لقد كان من طبيعة ثورية مثل روزا لوكسمبورج،بالضبط كما كان من طبيعة لينين، أن تركز على ما كان يبدوانه العنصر الغائب فى الوضع- والذى كان بالنسبة لها العفوية والفعل الجماهيرى من أسفل هكذا أمكن للينين، الـذى انطلق من وجود العفوية بالفعل، أن يكتب:"أعطونا عفوية الجماهير وسيكون عندنا ثورة".

بالإضافة لهذه العوامل العامة كانت لوكسمبورج متأثرة أيضا بالوضـع المحـدد داخـل الحـزب الاشـتراكى الديموقراطى الألماني. كانت الخطوة الأولى المنطقية نحوبناء حزب ثورى حقيقى فى ألمانيا هى تكوين تكتل داخـل الحزب الألماني. إلا أن هذا كان صعباً جدا لأنها كانت ستجد تأييد قليل جدا لأراءها – حتى لينين لم يكن ليؤيد مثل هذه الخطوة قبل أغسطس ١٩١٤. فالسلطة الأدبية لأعظم قائدين للحزب، كاوتسكى كمنظر وبيبل كمـنظم عملـى كانت هائلة – أعظم بكثير من سلطة بليخانوف. الشخصية الوحيدة التى يمكن مقارنتها بهما فى روسـيا- فالتـأثير الذى حظيت به روزا فى الحركة الألمانية كان يرجع، على الأقل جزئيا، إلى احتمال كاوتسكى كان يسـتمع إلـى آراءها حتى ١٩١٠. بالإضافة إلى كل ذلك كانت تحتاج لحاف مع وسط الحزب لمحاربة خطر البرنشتاينية.

أخيرا، كانت هناك حقيقة أن تكوين تكتل سيطرح بالتأكيد مسألة الانفصال الأمر الـذي عارضـته تمامـا لوكسمبورج، من المحتمل أنها كانت متأثرة في رأيها هذا بالقدر الذي حاق بـالحزب الاشـتراكي المسـتقل وهوكبيرة نسبيا من الثوريين انفصلوا عن الحزب الاشتراكي الـديمقراطي الألمـاني فـي ١٨٩١ متهمينـه بالإصلاحية. عاش هذا الحزب حياة قصيرة جدا قبل أن يختفى تماما.حتى يناير ١٩١٧ كانت لوكسمبورج ما تزال تجادل ضد فكرة الانفصال:

رغم وجاهة ومعقولية نفاذ الصبر والمرارة التى تدفع الكثير جدا من افضل العناصر إلى تـرك الحـزب اليوم فان الهروب يظل هروب انه خيانة للجماهير التى بيعت للبرجوازية وتختنق مـن السـيطرة المحكمـة لشيدمان وليجين يمكن للفرد أن ينسحب من الفرق الصغيرة حينما تكف عن مناسبة حتى يؤسس فرقا جديـدة أنها محض فارنتازيا غير ناضجة حين يريد البعض تحرير جماهير البروليتاريا من القبضة الثقيلة والفظيعـة للبرجوازية بانسحاب بسيط معتبرا هذا مثل شجاع. أن التخاص من بطاقات العضوية كوهم التحرر هومحض توهم مقلوب أن القوة تكمن فى بطاقة عضوية الموقفان هما قطبان مختلفان للوسـيطة التنظيميـة. المـرض الدستورى للاشتراكية الديموقراطية الألمانية القديمة.

٤- نقاط القوة والضعف فى موقفها:

لقد أوضحنا كيف أن تركيز لوكسمبورج على العفوية ومفهومها لدور الحزب كانا مشـروطين بوضـعها التاريخى المحدد. ولكن التفسير ليس تبرير من الضرورى أيضا أن نقوم بتحليل آرائها حيث أنها قد استبعدت كثيرا من الماركسيين ببساطة بناءا على سلطة ما العمل؟ كانت روزا العمال أنفسهم فى خضم المعركة لقـد اثبت هذا مرة بعد الأخرى على النطاق التاريخى مع الخلق العفـوى لنـوع جديـد مـن الدولـة(كوميونـة باريس؛السوفيتات الروسية؛ وبطريقة مماثلة فى احتلالات المصانع واختراع وسـيلى الـ flying picket (عمال المناجم وعمال البناء الإنجليز في١٩٧٢).

كانت محقة في أن الصراع الطبقي في أقصى قوة دفعة لا يسمح بالفصل الميكـانيكى بـين الاقتصـادي والسياسي، وبعض النقاط التي تطرحها لوكسمبورج حول هذه المسألة في الإضراب الجماهيري اكثر جدليـة من بعض الأطروحات المجردة في ما العمل؟ ومرة أخرى توضح لنا الإضرابات الحديثـة للطبقـة العاملـة الإنجليزية هذا بشكل رائع. لقد كان وجود قانون العلاقات الصناعية (الذي أصدره حزب المحـافظين) مـع تجميد الأجور في أوائل السبعينات يعنى النزاعات النقابية، الاقتصادية الخالصة مثل نضال عمال التفريغ ضد نظام ميكنة التفريغ في ١٩٧٢، الإضراب من أجل الاعتراف بالنقابة في مصنع كـون- مـيخ فـي ١٩٧٣ وإضراب عمال المناجم في ١٩٧٤ أن تحول نفسها إلى معارك سياسية جماهيرية ضد القـانون والحكومـة بالفعل نظرا لان الحكومات الرأسمالية الحديثة مدفوعة اليوم أكثر وأكثر للتدخل في الصناعة ولجعـل تقييـد الأجور هومحور كل استراتيجيتها فان النضال السياسي والاقتصادي للطبقة العاملة هوأكثر اختلاطا مـن أي وقت مضى وهذا الوجه من فكر روزا لوكسمبورج قد أصبح مهما بشكل متصاعد. كانت لوكسمبورج محقـة في تحذيرها من الميل المحافظ الكامن في قيادات الأحزاب الاشتراكية وحتى في الأحزاب عموما، هذا الميل الذي ينتج عن الانعزال عن القوة الدينامية التي تعمل دون أن تلاحظ في أعماق حركة الطبقة العاملـة. لقـد جرب لينين نفسه مثل هذا الموقف في ١٩٠٥و١٩١٧. ويشرح ماركسي معاصر دنكان هـالاس، بوضـوح كيف يمكن أن يحدث هذا في داخل الموقع ذاته:

يحدث أحيانا أن يجد حتى افضل المناضلين أنفسهم مسبوقين بالأحداث ومحتلين موقعا على يمين العمـال الذين كانوا خاملين في الماضي وذلك لفترة تطول أوتقصر. أن مثل هذه التجربة معروفة جيدا لدى النقـابيين القاعدين النشطين فالشعارات والمطالب التي كانت بالأمس مقبولة فقط لدى الأشخاص الأكثر وعيا يمكـن أن تغدوفجأة محدودة جدا بالنسبة للأغلبية عندما يتطور نضال ما ويتعدى نقطة متوقعة حتميـا تولـد التجربـة والمعرفة الأكبر لدى النشطين حذرا معينا، هوعموما مناسب. ولكنه أن يصبح أحيانا في ظرف يتغير بسرعة إلى عائق حقيقي للتقدم.

لقد كانت محقة أيضا في معارضة مفهوم لينين عن تقديم الاشتراكية إلى الطبقة العاملـة "مـن الخـارج" بمفهومها عن الدور والإنجازات الرائعة للعفوية. الحزب ليس نبع كل حكمة ولا المدير المعصى من الخطـأ للصراع الطبقي، وهناك عنصر من الحقيقة في الاتهام بان لينين كان يلوى العصا أكثر من اللازم وفى اتجاه الإرادوية (إلا أنه كما أوضحنا أن هذا أيضا وبمعنى ما كان إنجازه العظيم).

هكذا ففي عدة نقاط كانت روزا لوكسمبورج أقرب إلى تحليل ماركسي سليم مـن لينـين ١٩٠١-١٩٠٤ ولسوء الحظ عانت رؤاها من نقاط ضعف حاسمة وضحت من خلال مجرى التاريخ. من السهل وضع أيدينا على أحادية آراءها حول عفوية الإضرابات الجماهيرية. فبينما يمكن أن تحدث مثل هذه الإضرابات بشـكل عفوي، وهذا يحدث كثيرا، فليس هذا هوالحال بالضرورة كما انه ليس ميزة دائما ويوضح الإضراب العـام الإنجليزي في ١٩٢٦ هذا بشكل جيد. فلقد جاءت كل القوى والطاقة والمبادرة للإضراب من أسـفل، ولكـن كان الإضراب مخططا له ومدعوا إليه بواسطة قيادة المجلس العام لاتحاد نقابات بريطانيـا. الأكثـر أهميـة هوأن نفس القيادة هي التي أفشلت الإضراب في اللحظات الحرجة في الشهور التي سبقت الإضراب أعـدت الطبقة الحاكمة البريطانية نفسها سياسيا وعسكريا بعناية كبيرة من أجل المواجهة. الأكيد انه في تلك الحالة لم يوجد النقد الماركسي لفكرة انه يمكن التخطيط للإضراب بل ضد المجلس المركزي لفشـله فـي التخطـيط والإعداد بشكل كافي عندما كان معروفا أن العدوينفعل ذلك ألا أن هذا كـان خطـأ صـغيرا نسـبيا. أمكـن للوكسمبورج بسهولة أن تصححه الأكثر من هذا الخطأ هوأن استراتيجيتها فشلت في الاختبار الأكثر أهميـة على الإطلاق – الثورة الألمانية ذاتها.

في الثورة الألمانية ١٩١٨- ١٩١٩. والتي طال انتظارها. أثبتت عصبة سبارتاكوس (التي كونت أسـاس كتكتل داخل الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني في ١٩١٦) أنها القوة الوحيدة الثورية بثبات في ألمانيا. رغم ذلك كانت اضعف في العدد والخبرة والتماسك التنظيمي من أن تؤثر بحسم في الأحداث. لـذا مضـت العصبة في العاصفة الثورية مثل الريشة تطيح بها الرياح في كل الاتجاهات. غيـر قـادرة علـى صـياغة استراتيجية منسجمة إلا الدعوة المتكررة من اجل الفعل الجماهيري وكل السلطة للجان العمال والجنـود لقـد كتب راديك، والذي يعمل كمبعوث للدولة السوفيتية. في تقريره انه عند بدء الثورة لم يكن هناك إلا عضـوا منظما لعصبة سبارتاكوس في برلين، وحتى في المؤتمر الذي أسست فيـه عصـبة سـبارتاكوس الحـزب الشيوعي الألماني شعر راديك انه مضطر للتعليق: "ولكنى لم اشعر أنني كنت في حضور حزب".

حتى اعنف مؤيدي روزا لوكسمبورج واقلهم نقدا لها، بول فروليخ. يؤكـد علـى هـذه الصـورة مـن الضعف(رغم انه لا يعترف بآثارها الضارة على الاستراتيجية): عندما أتت الثورة كانت عصبة سبارتاكوس عبارة عن تجميعه للمجموعات الإقليمية موجودة في كل المدن الكبيرة. ولم تتحول بعد إلى حـزب سياسـي بالإضافة إلى ذلك فقد عانت العصبة من كل المشاكل البدائية التي تعانى منها أي منظمة شابة وجـدت روزا وبقية اللجنة التنفيذية في أقلية ضئيلة في المؤتمر التأسيسي للحزب الشيوعي الألماني عند التصـويت علـى مسألة الاشتراك في انتخابا ت الجمعية الوطنية(لقد تخلص البلاشفة من مثل هذا التطـرف اليسـاري عشـر سنوات قبل ثورة ١٩١٧). ومع عدم قدرتها على إحداث أي تغيير يذكر داخل اللجـان العماليـة اضـطرت عصبة سبارتاكوس إلى الدخول في تحالف غير مستقر مع الاشتراكيين الديمقراطيين المستقلين (انشقاق عـن الحزب الاشتراكي الديمقراطي عام ١٩١٧) وعمال العنابر الثوريين ثم تخلص نفسها من هذا التحالف عندما بدأت هذه العناصر في التأرجح في النهاية، وعلى الرغم من انه جاء ببرنامجها: "إن عصبة سبارتاكوس لـن تحاول الوصول للسلطة السياسية أبدا إلا عندما يتماشى ذلك مع الإرادة الواضحة والبينة للغالبية العظمى من

الجماهير البروليتارية بألمانيا فقد أربكتها الأحداث ودفعت للقيام بانتفاضة مسلحة يائسة غير ناضجة أسفرت عن تحطيم الثورة ومقتل لوكسمبورج وليبنخت. كانت لوكسمبورج واعية بدون شك انه كانت هناك أخطاء ترتكب إلا أنها كانت عاجزة عن منعها. هكذا كلفها فشلها في صهر العمال المتقدمين في حزب طليعي مستقل منضبط حياتها في نهاية الأمر. ربما جاء عدم بدئها تنفيذ هذه المهمة كما فعل لينين في ١٩٠٣ نتيجة لعوامل تاريخية لم يكن بالإمكان تجنبها. ولكن عدم القيام بها فيما بعد جاء نتيجة جزئيا نتيجة قرار واعي.

يسجل نيتل أن: 'قادة سبارتاكوس قرروا عن وعى عدم القيام بأي محاولة جادة لخلق تنظيم في ١٩١٨. لقد كانوا مقتنعين بان الإمكانيات الثورية جعلت هذا إضاعة غير ضرورية للمجهود.'

الخلل الآخر الرهيب في استراتيجية لوكسمبورج كان تقليلها من قدرة القادة الإصلاحيين على لجم وتضليل الطبقة العاملة. رغم أنها كانت الأولى التي استوعبت الدلالات النظرية للبرنشتاينية وخمول الوسط الكاوتسكي إلا أنها. على كل حال. فشلت في رؤية الأثر المثل التقسيمي الذي يمكن أن تحدثه هذه الاتجاهات في الطبقة العاملة حتى في غمار الفعل الجماهيري الذي طالما انتظرته. كتبت في ١٩١٣: 'القادة الذين سيتخلفون للوراء ستزيحهم جانبا الجماهير العاصفة'.

ولكن. لم يثبت الواقع أن الأمر بهذه السهولة فبدلا من حدوث ذلك. استطاع الاشتراكيون الديمقراطيون استغلال الارتباط التاريخي لملايين العمال بهم لتخريب الثورة وبسبب فشلها في استيعاب هذه المشكلة في وقت مبكر لم تر لوكسمبورج الحاجة لمحاربة الانتهازية تنظيميا- أي من خلال النصوص في دستور الحزب. من خلال الانشقاق.... الخ- إلى جانب الجدال السياسي.

٥- الجذور النظرية لأخطائها:

لقد أبرزنا الخلفية التاريخية لأفكار روزا لوكسمبورج ويستطيع المرء أن يرى كيف أن كلا من نقاط قوتها وضعفها كانا مشروطين تاريخيا. ولكن ماذا عن الجذور التاريخية لأخطائها؟ يجب أن نلجأ في بحثنا عن مصدر تلك الأخطاء في موقعين متشابكين مع بعضهما البعض في فكرة : تحليلها للعملية التي تطور بواسطتها البروليتاريا وعيها الثوري. ومفهومها عن دينامية الثورة ذاتها.

بالنسبة للتيار الأساسي في الاشتراكية الديمقراطية يتطور الوعي من خلال عملية منسجمة من التراكم التدريجي بدون تناقضات وبدون نقلات نوعية. تركيز لوكسمبورج على عفوية الجماهير وضعها ابعد من كل الماركسيين الغربيين عن هذه الرؤية. إلا أنها لم تكسر تلك الحلقة تماما. لم يكن الأمر هوأنها بالغت في تقدير المستويات التي قد يصل إليها العمال عفويا ولكن أنها بالغت في تقدير التكافؤ الذي تحدث به هذه العملية.من المؤكد أنها كانت تعرف أن بعض العمال اقدر وأشجع من البعض الآخر وان لديهم مستوى أعلى من الوعي الاشتراكي من البعض الآخر،الذي لم تستوعبه بشكل كامل هوانه يوجد تناقض ما بين العامل الثوري الذي يريد التخلص من الرأسمالية وبين العامل الأقل تقدما الذي يريد تحسين ظروفه في ظل الرأسمالية(وهو ليس تناقض لا يمكن حله). وانه على أساس هذا التناقض تنشأ أحزاب تدعى أنها أحزاب طبقة عاملة، ولكنها في الحقيقة تعمل كعملاء للبرجوازية داخل الحركة العمالية. بسبب هذه الفجوة في نظريتها فشلت أن ترى

ضرورة تنظيم العمال الثوريين المتقدمين منفصلين ومستقلين من اجل زيادة تأثيرهم داخـل الطبقـة ككـل. ولتسليحهم من اجل النضال ضد التأثيرات الانتهازية والإصلاحية على الطبقة أن تقليلها من شأن التـأثيرات السلبية للقادة السيئين ينبع أيضا من هذا المصدر. لأنه إذا تثورت الطبقة العاملة ليس فقط بعفوية ولكن أيضا بتكافؤ إذن بالفعل فان القادة الذين سيتخلفون للوراء سيزيحهم جانبا الجماهير العاصفة'.

أما بالنسبة لمفهوم لوكسمبورج عن الثورة فهنا يصلح تعليق توني كليف كنقطة بداية لنا:

إن السبب الرئيسي وراء مبالغة لوكسمبورج في تقدير عامل العفوية وتقليلها من شأن عامل التنظيم يكمن تقريبا في الحاجة للتركيز على العفوية كخطوة أولى في كل الثورات وذلـك فـي النضـال المباشـر ضـد الإصلاحية ومن هذه المرحلة في النضال البروليتاري عممت لوكسمبورج اكثر من اللازم لتتضمن النضـال ككل.

يمكننا أن نطور هذا بالقول أن لوكسمبورج مالت لمساواة الإضراب الجماهيري (والذي كثيرا ما يصاحب الانفجار العفوي للثورات)بذروة الثورة ذاتها في الإضراب الجماهيري كتبت التالي:

اليوم عندما تتعرف الطبقات العاملة على هدف النضالات الثورية، عندما يجب أن يجمعوا قواهم ويقودوا أنفسهم، عندما تتوجه الثورة ضد الاستغلال الرأسمالي مثلما ضـد سـلطة الدولـة القديمـة يبدوالإضـراب الجماهيري كالأداة الطبيعية لتجنيد أوسع الشرائح البروليتارية من اجل النضال. كما أنه يبدوفي نفس الوقـت كأداة لتقليص وللتخلص من سلطة الدولة القديمة واستئصال الاستغلال الرأسمالي....

إن الشكل الأساسي للثورات البرجوازية السابقة حرب المتاريس، الصراع المفتوح مع القـوة العسـكرية للدولة هي، في ثورة اليوم مجرد نقطة بلوغ النهاية(هنا بمعنى تحصيل حاصل) مجرد لحظة في عملية نضال طبقة البروليتاريا.

ولكن في الواقع، فان الإضراب الجماهيري، أيا كان حجمه أوقوته أوراديكاليته – يطـرح فقـط مسـألة السلطة – انه لا يحل هذه المسألة ولا يمكن أن يحلها. يمكن تحطيم سلطة الدولة من خلال الانتفاضة أن تحل هذه المسألة والانتفاضة لا بد أن تكون بسبب طبيعتها منظمة: لابد أن تكون فعل موحد ومتـوازي للأجـزاء الحاسمة من البروليتاريا. معد لها مقدما وفى سرية ومحدد لها موعد معين. إن تنفيـذها إذن يتطلـب حلقـة مؤسسة بعناية من القيادة ذات التأثير والسلطة بعرض الطبقة كلها بعبارة أخرى يمكن أن تنظم الانتفاضة كما وضح من تحليلنا لثورة أكتوبر في الفصل الثالث. فقط بواسطة الحزب – وليس أي نوع مـن الحـزب بـل حزب محارب منضبط قادر على التحرك كوحدة واحدة.

ليس صحيحا القول بان روزا لوكسمبورج لم تتعامل أبدا مع مسألة الانتفاضة (فقد كتبت كتيبا عنهـا فـي يناير ١٩٠٦) ولكن تذكر هذه المسألة فقط بشكل عرضي في الإضراب الجماهيري ولا يوجد أي دليل علـى أنها تعاملت مع المسألة بشكل متكامل أوأنها فكرت بعناية في دلالتها بالنسبة لطبيعة الحزب. لوكانت فعلـت ذلك لكانت اضطرت لمراجعة رؤيتها الدعائية لدور الحزب (لأنه بالتحديد عندما يتم التعامـل مـع مسـألة الانتفاضة يتحول التوازن بين الدعاية والفعل في عمل الحزب بحسم لصالح الأخير) وأيضا لمراجعة آرائهـا عن الانضباط والمركزية.

ترتبط مسألة الانتفاضة والحزب أيضا بعدم التكافؤ في وعى البروليتاريا بطريقة تتعلق بالـذات بمصـير روزا لوكسمبورج في الصورة الألمانية. الوجه الآخر لنفس العملة التي تسبب تأخر بعض أجـزاء الطبقـة خاف أجزاء أخرى (واستمرار ارتباطها بأحزاب إصلاحية)، هوقوة الدفع التي تعطيها الثورة للعمال المتقدمين لكي يحاولوا الاستيلاء على السلطة بتسرع هذا ما حدث بالضبط في الثورة الروسية في أيام يوليـو' وفـى الثورة الألمانية مع انتفاضة يناير. في روسيا كما ذكرنا في الفصل الثالث، استطاع البلاشـفة أن يعارضـوا بوضوح المغامرة، أن يمنعوا أن تحدث تدميرا ذا شأن أن يحافظوا على تنظيمهم ويعدوا للجولة التاليـة فـي المعركة،في ألمانيا أطاحت الأحداث بعصبة سبارتاكوس إلى الكارثة. يكمـن الفـارق لـيس فـي 'ذكـاء' أو'واقعية' لينين المعاكسين لـ 'الثورية الرومانسية' لروزا لوكسمبورج، بل في وجود حزب فـي روسـيا صقلته التجربة وأكسبته السلطة بين العمال المتقدمين وغياب مثل هذا الحزب في ألمانيا.

ماركس، لينين، ولوكسمبورج:

يجب بالضرورة أن يكون ماركس ولينين هما المرجعين الذين نستخدمهما لأي حكم عام على نظرية روزا لوكسمبورج حول الحزب في أوجه كثيرة كانت روزا لوكسمبورج اقرب من ماركس عن لينين تميزت بنقاط القوة عند ماركس، معارضته للانفصالية وتركيزه على الفعل الجماهيري للطبقة العاملة. تميزت أيضا بنقـاط الضعف عند ماركس: رؤية مبالغة في التفاؤل وقصيرة النظر عن العملية التي تتحول من خلالها الطبقة من طبقة في ذاتها إلى لذاتها – الافتراض بان الوحدة الاقتصادية الموضوعية للطبقة العاملة تؤدى عفويـا إلـى وحدتها السياسية كمنتهى. بالتالي شاركت روزا ماركس في ميله إلى القدرية في مجال التنظيم. لقد سـبق أن ذكرنا أنها لم تكن مخطئة تماما في جدالها مع لينين في ١٩٠٤، ولكن استطاع لينين، مـن خـلال تجربـة ١٩٠٥، أن يصحح أحادية صياغاته المبكرة وبالتالي يحقق تفوقه الحاسم على ماركس، بينمـا لـم تسـتطع لوكسمبورج أن تفعل ذلك لوعاشت لتستوعب وتتفهم تجربة الثورة الألمانية، ربما كان ممكنا، بـل محـتملا جدا، أن تحقق هذا التصحيح.

كما هي تظل نظرية روزا لوكسمبورج عن الحزب وعلاقته بالطبقة العاملة سلاحا مفيدا في حركة عمالية عانت لعقود من السيطرة البيروقراطية للاشتراكية الديموقراطية والستالينية على حد سواء إلا أنها فوق كـل شئ سلاح مفيد فقط بالقدر الذي تدمج في إطار اللينينية.كبديل لينينية يجب أن نحكم على اللوكسمبورجية بأنها غير صحيحة.

الفصل الخامس

الإرث المزدوج لتروتسكي

هناك وجهان لإضافة تروتسكي للنظرية الماركسية عن الحزب الثوري. أولا. يوجد، دفاعه أساسا من خلال المعارضة، عن الرؤية اللينينية للحزب ضد الهجوم النظري والعملي الذي شقه عليه ستالين والبيروقراطية الستالينية.

ثانيا : هناك محاولته التي انتهت بتأسيس الأممية الرابعة. لإيجاد بديل ماركسي أصيل للأممية الشيوعية التي انحطت. على الرغم بالطبع من الاستمرارية بين هذين الوجهين من حيث أن الأخير نتج منطقها من الأول. إلا أن هناك فارقا نوعيا بينهما.

في فترة المعارضة اليسارية واجه تروتسكي سياسة ستالين الانتهازية بسياسة ثورية متماسكة. مع مجهود بناء أممية رابعة.أصبح تروتسكي مضطرا الآن لاحتواء سياسته في منظمة خاصة به. بسبب هذا الفارق يبدومنطقيا أن نتبع دراستنا لنظرية تروتسكي عن الحزب إلى جزأين : الدفاع عن اللينينية، والأممية الرابعة.

أ- الدفاع عن اللينينية:

افترق تروتسكي مع ستالين والغالبية الرسمية للحزب الشيوعي السوفيتي حول مسألتين أساسيتين : الانحطاط البيروقراطي للدولة الروسية والنظرية الستالينية " الاشتراكية في بلد واحد " كانت المسألتان، بالطبيعة. مرتبطتين ببعضهما البعض. لقد صعدت البيروقراطية من خلال إنهاك وتشتت البروليتاريا الثورية كنتيجة للمعاناة المتراكمة للحرب العالمية الأولى والحرب الأهلية. والانهيار الاقتصادي والمجاعة وفقدان ٤ مليون روسي في كل هذا. أرادت هذه البيروقراطية المتكونة في معظمها من طموحين. إداريين موروثين من النظام القديم. مناشفه سابقين وعمال فقدوا الصلة بطبقتهم منذ أمد طويل. فوق كل شئ إنهاء الاضطرابات. وتسيير الأمور بشكل طبيعي.

لم يكن لهم أي مصلحة فيما كان يبدولهم أنه المغامرة الرومانسية والخطرة للثورة العالمية. هكذا لم تكن نظرية الاشتراكية في بلد واحد مجرد اختراع ستاليني على العكس، " لقد عبرت بدقة عن مزاج البيروقراطية "عندما تحدثوا عن انتصار الاشتراكية كانوا يعنون انتصارهم هم".

كان هذا إذن خلاف حول أساسيات. في نفس الانقسام بين الشيوعية والاشتراكية الديمقراطية. خلاف احتوى على رؤيتين مختلفتين ومتعارضتين تماما عن الاشتراكية. في رأى تروتسكي. مثل ماركس ولينين. كانت الاشتراكية هي مجتمع لاطبقي. بدون دولة يحكم ذاته بذاته. مؤسس على التوفر برخاء لسلع المادية. مجتمع يكون فيه " التطور الحر لكل فرد هوشرط التطور الحر للجميع"

كانت الديكتاتورية، تخطيط الدولة، النموالاقتصادي والكفاءة، الانضباط الحديدي.. الخ، هي الوسائل لهذه الغاية، وسائل لم يتخلى عنها تروتسكي أبدا). ولكنها لم تكن غايات في حد ذاتها، في رأى ستالين، كانت مهمة بالنسبة للبيروقراطية والتي كان ممثلها الرئيسي. كانت الاشتراكية تعرف بالتحديد على أنها التأميم، تحكم الدولة والنموالاقتصادي والعسكري لروسيا لتصبح قوة عالمية من الدرجة الأولى، من وجهة نظر تروتسكي، لم يكن من الممكن تجنب درجة ما من البقرطة، ولكنها ظلت خطرا عظيما يجب مراقبته عن قرب والتخلص منه بأسرع ما يمكن، من وجهة نظر ستالين، كانت هذه هي جوهر الأساس لنظام جديد، لذا اعتبرت إمكانية تحقق رؤية تروتسكي في بلد واحد – في روسيا المتخلفة بالتحديد – يوتوبيا رجعية، واعتبرت رؤية ستالين الوحيدة العملية والواقعية.

ولأنه كان خلافا حول الأمور الجوهرية، اتسع هذا الصراع بالضرورة حتى وصل إلى الحد الذي أصـبح يؤثر فيهما على كل حدث وكل سياسة في حياة حركة الطبقـة العاملـة، متضـمنا بـالطبع طبيعـة ودور واستراتيجية وتكتيك الحزب الثوري والأممية الثورية، ويمثل التعامل مع خلافات تروتسكي مع ستالين حول النظرية اللينينية للحزب، من أجل الوضوح تحت عنوانين : الديمقراطية الحزبية في الحزب الشيوعي للاتحاد السوفيتي، واستراتيجية الأحزاب الشيوعية العالمية.

١ - الديمقراطية الحزبية:

طرحت البقرطة التدريجية للدولة السوفيتية في غياب طبقة عاملة نشطة وفعالة سياسيا، بالضرورة مسـالة بقرطة الحزب الشيوعي وتحطيم الديمقراطية الحزبية الداخلية. لأنه على الرغم من وجود فصل شكلي بـين الدولة (السوفيتية) وأجهزة الحزب شكل البلاشفة في حقيقة الأمر حزب الدولة. بعد الحرب الأهليـة حـافظ الحزب على احتكار سياسي وسيطرة كاملة على كل المناصب الهامة. بالتالي فإذا كان جهـاز الدولـة فـي طريقه للتبقرط لحتم ذلك أن يكون له أثر على الحزب. الذي جعل هذا خطيرا جدا هـوأن الحـزب. طليعـة البروليتاريا المتضمنة للبلاشفة القدامى الذي لا يمكن إفسادهم. بتراثه الثوري. بمكاسـب حكمـه الضـخمة وانضباطه الشديد. كان يعتبر عموما الدرع الأساسي ضد البيروقراطية.لوهوى الحزب أواستسلم. فـي ظـل غياب فاعلية العمال. لما تبقى هناك أي خط دفاع آخر.كان الوقت هو١٩٢٣ عندما شـعر تروتسـكي بـان الموقف أصبح خطيرا جدا. ويتطلب شن نضال علني من أجل الديمقراطية داخل الحزب بدأه بمجموعة مـن المقالات في برافدا أسماها " الطريق الجديد ".

إن نبرة الطريق الجديد حذرة وبعض الصياغات مترددة. ولكن من زوايا عديدة هي عرض يستحوذ على الإعجاب دفاعا عن الديمقراطية داخل الحزب الثوري.لا يعرض تروتسكي مسالة الديمقراطية كحق مجرد بل يحدد ضرورتها لتطور الحزب والمرحلة التاريخية الجديدة التي كانت علـى الأعتـاب. فهـوأولا. يختبـر العلاقات بين الجيل القديم والجديد (ما قبل وما بعد أكتوبر) من أعضاء الحزب. " لقد أعقب الاستيلاء علـى السلطة نموسريع. حتى غير طبيعي للحزب ".

"انضمت للحزب أعداد غفيرة من العمال غير المتمرسين ذوى القليل فقط من الوعي وعناصر غريبة من الطبقة العاملة. وموظفين ومتسلقين. " وفى هذه الفترة الفوضوية استطاع (الحزب) أن يحافظ علـى طبيعتـه البلشفية فقط بفضل الديكتاتورية الداخلية للحرس القديم الذي اختبر من قبل في أكتوبر.

ولكن منذ ذلك الحين تغير الوضع. الآن يجب جذب الجيل الجديد بفاعلية في الحياة السياسية وعملية صنع القرار داخل الحزب. من اجل مصلحة تطور الجيل الجديد ذاته ومن أجل مستقبل الحزب ككل. بعـد ذلـك ينظر تروتسكي للتركيب الاجتماعي للحزب موضحا كيف أدت الحاجة لملء الوظائف الإدارية بالعمال إلـى إضعاف "الخلايا الرئيسية للحزب "نواته في المصنع" وكيف كان هذا مصدرا مهما للبقرطة. يجادل تروتسكي من أجل تقوية القاعدة البروليتارية للحزب ومن اجل استخدام الطلبة والشباب كقوة ضد البيروقراطيـة عـن ضرورة الديمقراطية يكتب تروتسكي:

تمثل الميزة الجوهرية لحزبنا.والتي لا نجد لها مثيل في قدرته في كل لحظة على النظر للصناعة بـأعين الشيوعي والمدير الشيوعي والبائع الشيوعي. على تجميع تجربة كل هؤلاء العمال الذين يكملـون بعضـهم البعض. استخلاص نتائج منهم وبالتالي تحديد خطة في إدارة الاقتصاد عموما وكل مصنع خاصة انـه مـن الواضح أن مثل هذه القيادة يمكن الاعتماد عليها فقط على أساس ديمقراطية قوية وفاعله داخل الحزب.

هذه الملاحظات موجهه لحزب في السلطة وفي موقف محدد.ولكـن المبـدأ الـذي تتضـمنه ضـرورة الديمقراطية من اجل القيادة السليمة هوصحيح عموما.

تمثل الهم الثقيل لدى القيادة في ردها على نقد تروتسكي في دفاع بعنف عن التقاليد العظيمة للحرس القديم مع تركيز على الحاجة الملحة للوحدة الحزبية وعلى مخاطر التكتلات.ويشير رد تروتسكي إلى أن "التقاليد" لها وجه سلبي مثلما أن لها وجه إيجابي في الحركة الثورية. معددا الأمثلة ومن ضمنها موقف البلاشفة القـدامى ضد كتيب لينين "أطروحة إبريل" يجادل تروتسكي أن اكثر صفة تكتيكية جوهرية للبلشفية هي قدرتها التي لا تساويها قدرة على تكييف ذاتها بسرعة. وعلى تغير التكتيك بسرعة. على تحديث أسلحتها واستخدام وسـائل جديدة. بعبارة : قدرتها على اتخاذ تغيرات مفاجئة. وانه لا يوجد تقليد يقدم في حد ذاته ضمانات أكيدة عبـر تاريخه ضد الانحطاط.وحول مسالة التكتلات يعترف تروتسكي بالخطر الكبير للتكتلية في مثل ذلك الموقف. وبإمكانية أن تعكس الاختلافات التكتلية بسرعة ضغوط القوى الاجتماعية والطبقية المعادية للبروليتاريا. ولكن يؤمن تروتسكي بان نظاما حزبيا غير ديمقراطي هوفي حد ذاته سبب للتكتلية.

يجب أن تصغي الأجهزة القيادية في الحزب لصوت جماهير الحزب العريضة. لا أن تعتبر كل القضـاء تغير. وبالتالي يدفع الشيوعيين نحوالحفاظ على سكوت دائم أوتدفعهم أن يكونوا من أنفسهم تكتلا.

إن جوهر طرح تروتسكي في الطريق الجديد هوأن :

تطور الرأي العام للحزب:

في الوقت ذاته ظلت ادعاءات السلطة عن الموقف الموضوعي البالغ الصعوبة تمارس أثرا قويـا علـى تروتسكي.فرغم أنه طالب بديمقراطية حزبية داخلية بقى موافقا على أننا الحزب الوحيد في البلد. وفي فتـرة الديكتاتورية لا يمكن أن يكون هناك ترتيب آخر. وبفعله شارك تروتسكي في الممارسة السارية حينذاك فـي إضفاء صفة مبدأ عام على ما كان معتبرا في البداية مجرد ترتيب مؤقت نتج عن الظـروف غيـر العاديـة للحرب الأهلية. يرى ماكس شاختمان وهوأحد رفاق تروتسكي لفترة طويلة. في هذا الموقف تناقضا جوهريا.

لم يعط تروتسكي... أي دليل على انه استوعب أن حرمان من في خارج الحزب من الحقوق الديمقراطية لا يمكن أن ينفذ إلا من خلال حرمان أعضاء ذات الحزب. إن عاجلا أم آجلا من نفس الحقوق هـذا قـانون ثابت في السياسة. كل خلاف جاد في الرأي داخل حزب سياسي يسفر عن دعوة مباشـرة أوغيـر مباشـرة صريحة أوضمنية. مقصودة أوغير مقصودة لجزء أولآخر خارج الحزب.

هذه نقطة مهمة ولكنها لم تقال حقيقة من موقف تروتسكي في كليته. لا يوجد شك انه على المدى الطويل إن عاجلا أم آجلا ستؤدى ديكتاتورية حزب واحد إلى ديكتاتورية داخل الحزب. ولكن كما قـال تروتسـكي

كثيرا. الوقت هوعامل مهم في السياسة من وجهة نظر تروتسكي كان البلاشفة مشتبكين في عملية حفاظ غير عادية الصعوبة والحساسية : فبين " عاجلا" أو" آجلا" كانت هناك فرصة وصول الغوث من الثورة العالمية.

فكلما مد ستالين تحكمه الاستبدادي على الحزب والبلد وكلما افترقت سياسته اكثر عن الماركسية الثورية. كلما زاد إصرار الدعوات من اجل الديمقراطية الحزبية وكلما أصبحت المعارضة لأساليب ستالين التنظيميـة اكثر استحالة في الحل.

يتضمن بيان منبر المعارضة الموحدة لعام ١٩٢٧ الذي وقعته تروتسكي وزينوفييف و١١ عضوا آخـر في اللجنة المركزية تحذيرا من نظام الحزب :

شهدت الأعوام القليلة الماضية إلغاء منظم للديمقراطية الداخلية الحزبية في مخالفة لكـل تـراث الحـزب البلشفي في مخالفة القرارات المباشرة لسلسة من مؤتمرات الحزب أن الانتخاب الحقيقي للمسـئولين هـ وفي واقع الأمر مسالة تغنى وتختفي. يتم قاب المبادئ التنظيمية فى كل خطوة تتخذ. يتم بشكل منظم تغيير لائحة الحزب لزيادة حجم الحقوق في القمة وتقليل حقوق الآخرين في السفح.

تعتبر قيادة اللجان الإقليمية، اللجان التنفيذية الإقليمية. المجالس الإقليمية للنقابات الخ قيـادات فـي واقـع الأمر، لا يمكن استبعادها.. يعتبر حق كل عضوفي الحزب كل مجموعة من أعضاء الحـزب فـي طـرح اختلافاتها أمام محكمة كل الحزب. (لينين) أمرا في الواقع تم إلغاؤه. يتم دعوة المـؤتمرات والنـدوات دون نقاش حر مسبق (كما كان الحال بواسطة كل الحزب. وطلب مثل هذه المناقشـة يعتبـر خـرق للانضـباط الحزبي...

إن فناء الديمقراطية الحزبية الداخلية يؤدى إلى فناء الديمقراطية العمالية عموما، في النقابات. وفـى كـل المنظمات الجماهيرية الحزبية.

في بيان المنبر تبلور التحليل والتحذيرات والاقتراحات التي جاءت في سلسلة مقالات الطريـق الجديـد. وأصبحت مطالب برنامجيه : الإعداد للمؤتمر الخامس عشر على أساس ديمقراطية داخلية حزبية حقيقـة. أن يكون لدي كل رفيق أومجموعة من الرفاق الفرصة للدفاع عن وجهة نظرهم أمام

الحزب. تحسين التكوين الاجتماعي للحزب بالسماح فقط للعمال من المصـانع والأراضـي بالانضـمام للحزب.بلترة (نسبة إلى البروليتاريا) وتقليص هيكل وأجهزة الحزب. الإعادة الفورية للمعرضين المطـردين. إعادة بناء لجنة التحكيم المركزية باستقلالية عن هيكل الحزب. ولكن عن هذه المرحلة مازالت تعمل الإدانـة والمطالب داخل إطار من الولاء الكامل للحزب الشيوعي الروسي وقبول لاحتكاريته السياسية.

سنناضل بكل قوتنا ضد تكوين حزبين. فمن اجل ديكتاتورية البروليتاريا تتطلب كجوهرها الأساس حزب بروليتاري واحد.

بحلول ١٩٣٣، بعد شلل الكومنترن في مواجهة هتلر (انظر ما يأتي) والتصفية ومعلنا أن الحزب البلشفي للينين تم تحطيمه بواسطة الستالينية دعا تروتسكي لبناء أحزاب ثورية من جديد والتخلص من البيروقراطيـة

بالثورة السياسية. وفي ١٩٣٦ في عمله الضخم الثورة المغدورة استطاع تروتسكي أن يوضح بجـلاء آراءه عن الديمقراطية الحزبية.

كان النظام الداخلي للحزب البلشفي يتصف بوسيلة الديمقراطية المركزية.لا يوجد به أدنى تناقض. لقد كان الحزب متيقظا جدا ليس فقط لكي تبقى حدوده معرفة بدقة ولكن أيضا أن يستمتع كل من يدخل هذه الحـدود بالحقوق الفعلية لتعريف توجه سياسة الحزب. كانت حرية النقد والنضال الفكري مضمون لا يمكن التراجـع عنه للديمقراطية الحزبية. إن المقولة الحالية هي أن البلشفية لا تسمح بالتكتلات هي خرافة من خرافات حقبة التدهور.في الحقيقة أن تاريخ البلشفية هوتاريخ نضال التكتلات. وبالفعل كيف يمكن لمنظمة ثوريـة حقيقيـة تضع على عاتقها مهمة تغير العالم. وأن توجد تحت رايتها اكثر الناس جرأة والمحاربين والثوريين أن تحيـا وتتطور بدون صراعات فكرية، وبدون تجمعات وتشكيلات تكتيكية مؤقتة، لقد جعل بعد نظر البلاشـفة مـن الممكن تخفيف حدة الصراعات وتقصير زمن النضال التكتلي، وليس اكثر من ذلك. اعتمدت اللجنة المركزية هذا التأييد الديمقراطي الغالي. من هذا استمدت الجرأة لاتخاذ القرارات وإعطاء الأوامر. أعطـت الصـحة الواضحة للقيادة في كل المراحل الحرجة السلطة العليا والتي تعتبر راس المال الأخلاقي الذي لا يقدر بـثمن المركزية. وقف نظام الحزب البلشفي، خاصة قبل وصوله للسلطة، في تناقض تام مع نظام الأجزاء الحاليـة للأممية الشيوعية.بقيادتها الذين يعينون من أعلى، ويقومون بإجراء تغيرات كاملة في السياسة بكلمة واحـدة من القيادة، بهياكلها التي يتحكمون فيها، المتعجرفين في تعاملهم مع القاعدة، الخـانعين فـي تعـاملهم مـع الكريملين.

لا يعيد تروتسكي فقط الموقف البلشفي الأصلي من مسالة التكتلات بل يقطع من مقولـة دولـة الحـزب الواحد.

في البداية تمنى الحزب أن يحافظ على حرية النضال السياسي داخل إطار السوفيتات. أدخلـت الحـرب الأهلية تعديلات شديدة على هذه الحسابات. تم تحريم إضراب المعارضة واحد بعد الآخـر. اعتبـر القـادة البلاشفة هذا الأسلوب، الواضح تعارضه مع روح الديمقراطية السوفيتية. ليس كمبدأ ولكن كفعل دفاعي عـن الذات مؤقت.

يرفض تروتسكي المساواة بين ديكتاتورية الطبقة وديكتاتورية الحزب.

بما أن للطبقة "أجزاء" كثيرة بعضها ينظر للأمام وبعضها ينظر للوراء يمكن أن يعتمد حزبا ما في وجوده على أجزاء من طبقات مختلفة. لا يوجد مثل لحزب مرتبط بطبقة واحدة في كل مجرى التاريخ السياسـي – ويتوقف هذا بالتأكيد على أن لا تساوى بين المظهر البوليسي والواقع.

ويقول برنامج الأممية الرابعة ١٩٣٨ أن مقرطة السوفيتات مستحيلة بدون إعطـاء قانونيـة للأحـزاب السوفيتية. سيصل العمال والفلاحين بأنفسهم من خلال اختيارهم الحر إلى أي الأحزاب التي يعترفـون بهـا كأحزاب سوفيتية.

عندما يراجع المرء سجلات نضال تروتسكي من اجل ديمقراطية العمالية داخل الحزب الشيوعي الروسي والدولة الروسية، يجد انه من الواضح انه ارتكب أخطاء كثيرة. بفضل التدقيق يمكن للمرء أن يقول انه كـان يجب على تروتسكي أن يبدأ مقاومته مبكرا. انه كانت هناك أوقات جعل فيها تروتسكي من الضرورة فضيلة، انه كان عليه أن يحارب بنشاط اكثر وتماسك اكثر في ١٩٢٣-١٩٢٤، انه كان يجب عليه أن يلجـأ مبكـرا لقاعدة الحزب ولجماهير العمال أنفسهم، يمكن أن يكون مثل هذه الانتقادات سليمة نوعا مـا ولكنهـا أيضـا أحادية النظرة لأنها تتجاهل المصاعب الجمة للموقف الذي واجهه تروتسكي، بالذات الخمول العميق للعمـال الروس. ويتضمن ذلك جماهير أعضاء الحزب خلال تلك الفترة. أيضا اعتبر تروتسكي بقوة أن من واجـب الثوريين. في ظل غياب أي بديل موجود. أن يظلوا مخلصين لحزب الثورة حتى اللحظة الأخيرة الممكنة.لقد كان هذا اعتبارا موزونا.يسهل الكثر التخلي عنه في خضم النضال. يتحتم على أي رؤية متوازنة الاعتـراف بالإنجازات الضخمة لتروتسكي في الدفاع والحفاظ على التقليد الماركسي واللينينـي للديمقراطيـة الحزبيـة. والحزب كجسم جماعي وحي. ضد صعوبات وعواقب هائلة. دون السقوط كما فعل آخرون كثيـرون. فـي رفض اشتراكي ديمقراطي أوفوضوي للديمقراطية المركزية والحزب الطليعي.

٢- استراتيجية أحزاب الأممية الشيوعية:

أعلنت نظرية ستالين الاشتراكية في بلد واحد لأول مرة في خريف ١٩٢٤ في خرق تـام لكـل تـراث الماركسية. وجاءت معظم آثارها المباشرة ليس على روسيا ذاتها بل على الأممية الشـيوعية واسـتراتيجية الأحزاب الشيوعية في جميع أنحاء العالم. فطالما بقيت مسالة نجاة الثورة الروسية مرتبطة بتحقيـق الثـورة العالمية. بقيت الكثر أشكال التضامن من روسيا ملموسة والواجب الأول لكل حزب "أجنبي" هي تحقيق الثورة في بلاده. ولكن متى زعم انه يمكن بناء الاشتراكية في روسيا وحدها، أصبحت الثورة العالمية أمرا اختياريـا زائدا وليس ضرورة.واصبح دور الكومنترن في أعين موسكو. هوالتأكد انه لم يعوق أي شئ لعمليـة البنـاء "الاشتراكي". بهذه الطريقة تحولت الأحزاب الشيوعية من عوامل مساعدة لثورة الطبقة العاملة إلـى وكـلاء للسياسة الخارجية للبيروقراطية الروسية. حتم هذا التحول حدوث سلسلة من الابتعادات والتحريفات للتقاليـد اللينينية للسياسة الثورية. كان المدافع الرئيسي عن ذلك التقاليد هوليون تروتسكي.

من المستحيل أن نتناول هنا كل مسائل استراتيجية الحزب التي اصطدم عندها تروتسكي مع ستالين، ولكن ستكفى أربعة أمثلة لتوضيح إسهامات تروتسكي لنظرية الحزب في هذا المجال.

عارض تروتسكي من البداية سياسة ستالين في أن يخضع الحـزب الشـيوعي الصـيني نفسـه لحـزب الكومينتانج البرجوازي الوطني، الأمر الذي أدى للهزيمة الدموية للثورة الصينية في ١٩٢٧. أصر تروتسكي على طول الخط على المبدأ اللينيني في الاستقلال التنظيمي السياسي الكامل للحزب الثوري. كمـا عـارض تروتسكي التعاون مع قيادات اتحاد نقابات عمال إيطاليا من خلال اللجنة النقابية الإنجليزية السوفيتية، الأمـر الذي ضرب في مقتل استقلال الحزب الشيوعي البريطاني وتركه في موقف غير نقدي للقيادات " اليسارية " للنقابات العمالية الذين خانوا الإضراب العام في ١٩٢٦.

أيضا شن تروتسكي نقدا عبقريا وتنبئيا على السياسة الستالينية في ألمانيا بـين ١٩٢٩ – ١٩٣٣. اعتبـر الحزب الشيوعي الألماني، منطلقا من نظرية سـتالين "الفاشـية الاجتماعيـة" الاشـتراكيين الـديمقراطيين كالعدوالأساسي قال من خطر الفاشية. وضد هذه الاستراتيجية الكارثة أصر تروتسكي على الحاجـة الملحـة لجبهة متحدة من أحزاب الطبقة العاملة ضد هتلر.

أخيرا أوضح تروتسكي الضعف القاتل لاستراتيجية الجبهة الشعبية التي تم تبنيها في ١٩٣٤ والتي ربطت الطبقة العاملة وحزبها بالبرجوازية وأدت المزيد من الهزائم في فرنسا وأسبانيا. هذا النقد يعتبر مهما جدا في الحاضر لأن طرازا ما من سياسة الجبهة الشعبية هوسياسة معظم الأحزاب الشيوعية تقريبا في جميع أنحـاء العالم. ولقد رأينا مؤخرا كيف تكررت نتائجها التراجيدية كاملة في شيلى ١٩٧٠ – ١٩٧٣.

لونظرنا إليها في كليتها،فان الفترة الستالينية شكلت عملية قلب وتشويه منظمين لنظرية لينين حول الحزب إلى درجة تحولت فيها تلك النظرية إلى نقيضها. من نظرية فرز وتنظيم للطليعة الثورية للبروليتاريا أصبحت أسطورة معصومة تستخدم لتبرير كل شكل للتلاعب البيروقراطي والخيانة السافرة. نجحـت هـذه العمليـة لدرجة أن تساوت النظريتان اللينينية والستالينية للحزب، المختلفان جدا في الممارسة. واصـبح ينظـر لهـا عموما على انهما نفس الشيء. وبدون العمل الشاق لتروتسكي مرت تلك المساواة بدون تحدى فـي الحركـة الماركسية. ولدفنت اللينينية الأصيلة تحت جبل من الأكاذيب.

ب- الأممية الرابعة:

كان دفاع تروتسكي عن النظرية اللينينية للحزب. كجزء لا يتجزأ عن الماركسية واللينينية ككـل إنجـاز ضخم. ولكن لم يكن هذا الإنجاز كافيا لينام تروتسكي مرتاح البال. فمنذ مطلع القرن وتروتسكي يتطلع للثورة البروليتارية العالمية. وعندما اقتنع أن الأممية الشيوعية التي غيرتها وحولته الستالينية لم يعد بإمكانها تحقيق هذه الغاية. لم يكن لديه اختيار إلا محاولة بناء منظمة جديدة بنفسه. كان الانهيار التـام للحـزب الشـيوعي الألماني أمام هتلر وفشل مجرد واحدة من أجزاء الكومنترن في الاعتراض على الخط الرسمي هما الأمـران اللذان جعلا تروتسكي ينحى ذلك المنحى.

أن المنظمة لم تهتز بعاصفة الفاشية. منظمة تخضع بخنوع للأفعال الغاية في الفجاجة للبيروقراطية تعلـن إذن أنها ميتة ولا يمكن إحياؤها من جديد.

بالضبط كما أعلن لينين مباشرة بعد تسليم الأممية الثانية في ٤ أغسطس ١٩١٤ دعوته لبناء الأممية الثالثة. أطلق تروتسكي الدعوة في ١٩٣٣ لبناء الأممية الرابعة.

١- النضال من اجل الأممية الرابعة:

كان حجم التأييد لتروتسكي في ١٩٣٣ محدودا جدا. ولم يكن مطروحا على الإطلاق مسالة الشروع فورا في بناء الأممية الجديدة.بدلا من ذلك كان مفترضا أن تبنى بالتدريج. لسوء الحظ كانت الظروف الموضوعية لفعل ذلك غير مناسبة بشكل رهيب. فرغم أن لينين كان معزولا بشدة عند بداية الحرب العالمية الأولى فعلى الأقل كانت لديه قاعدة روسية صلبه في شكل الحزب البلشفي. رغم ذلك فقد استغرق الأمر عامين بعد انتصار الثورة الروسية ليتم تأسيس الأممية الثالثة. لم يكن لتروتسكي مثل هذه القاعدة. كما لم يكن مقدرا له أن يشهد انتصارا ثانيا للثورة البروليتارية أثناء حياته، على العكس، جاءت الثلاثينيات فترة هزائم ثقيلة للطبقة العاملة. بدأت بتهشيم البروليتاريا الألمانية (أقصى واشبع هزيمة لطبقة عاملة شجاعة وواعية سياسيا في التاريخ). تحكمت أنظمة فاشية وشبيهه بالفاشية في مجرى الأمور في وسط أوروبا ثم أعقب ذلك انتصار فرانكوفي أسبانيا. في الوقت ذاته وخلال الثلاثينيات، أنهك الركود والبطالة المزمنة قوة قتال العمال ومنظماتهم في كل مكان.

بالإضافة لهذه الصورة العامة للثورة المضادة السوداء كانت هناك عوامل محددة حالت دون نموالتروتسكية. فالخطر الفظيع للفاشية خلق ضغطا ضخما في صفوف العمال لتقريب الصفوف، للتوحد في مواجهة العدو، وضد انقسامات جديدة. واختلط بهذا الضغط من اجل التوحد شعور بالحاجة لحليف ما.قوة عسكرية عظيمة تقف ضد هتلر، وهذه بالطبع كانت روسيا السوفيتية. لذا كان التخلي عن جبروت ستالين من اجل القوة الشديدة الضالة كانت ضربا من المستحيل. بهذه الطريقة ساعد هتلر ستالين والستالينية داخل الحركة العمالية.

تأتى بعد ذلك حقيقة أن تروتسكي تعرض لقذف وسب لم يسبق لهما مثيلا في التاريخ داخل الحركة العمالية. إن الاتهام الذي وجهه لتروتسكي والمتهمين الآخرين في محاكمات موسكوعلى انهم عملاء لهتلر والميكادوالياباني هوبالطبع اتهام عبثي، ولكن كانت قوة الكذبة الكبرى بالدرجة التي صدقها بها الملايين من الناس في جميع أنحاء العالم. لم يكن الأمر فقط أن الشيوعيين المتحجرين قد وافقوا على اتهام تروتسكي بالتعاون مع الفاشية. بل الكثير من الفنانين والمثقفين الغربيين مثل رومان رولاند أضافوا أصواتهم لهذا الاتهام آخرون مثل برنارد شووأندريه مالرو. الشاعرين بضغط سياسة الجبهة الشعبية. وافقوا أوظلوا صامتين. هكذا كانت تلفيقة ستالين الكبرى ناجحة جدا في المدى القصير. في المقام الأول صمنت تلك التلفيقة أن الأشخاص ذوى القدرة الشخصية العالية على تحمل الإدانة والسب المستمرين. هم فقط الذين تمسكوا بالتروتسكية. ثانيا. خلقت مانعا هائلا بين التروتسكيين متضمنين أصحاب اكثر السجلات الثورية نصاعة. وبين العمال الواعين سياسيا حارمة إياهم من عرض صادق لرؤيتهم فالنقد بغض النظر عن مدى حسن تقديمه. يصعب أن يجد من يستمع إليه لواعتقد انه يأتي من عميل للفاشية.

أخيرا كانت هناك الحقيقة البسيطة انه كان من الصعب جدا إقناع الناس انه من الضروري البـدء مـن جديد مرة أخرى البدء من لاشيء بعد فترة قصيرة جدا من تأسيس الأممية الثالثة عبـر تروتسـكي عـن الوضع كما يلي:

نحن لا نتقدم سياسيا. نعم إنها حقيقة تعبر عن التحال العام للحركة العمالية فـي الخـص عشـرة سـنة الماضية... إن وضعنا الآن اصعب كثيرا بشكل لا يقارن بوضع أي منظمة أخرى في أي وقت مضى بسبب الخيانة العظيمة للأممية الثانية. وتطور انحطاط الأممية الثالثة بسرعة وبشكل غير متوقع لدرجـة أن نفـس الجيل الذي سمع عن تأسيسها يسمعنا الآن ويقولون ولكن "لقد سمعنا هذا من قبل".

كان تأثير هذا الوضع المتفاقم الصعوبة هووصف الحركة التروتسكية بثلاث صفات: أولا كانت صـغيرة جدا. تتكون من العديد من البلدان من عدد يحصى على أصابع اليدين. ثانيا. كانت في معظمهـا برجوازيـة صغيرة في تكوينها الاجتماعي. ثالثا. كانت على الأقل في صفوفها العليا -منظمة مبعدين- ليس بالضـرورة مبعدين عن بلادهم رغم أن هذه كانت حالة البعض، ولكن مبعدين عن وطنهم الذي تبنوه الحركـة العماليـة الجماهيرية. ونعرف أن المجموعات الصغيرة دائما تنقسم بسهولة اكثر وبوتيرة أسرع من الأحزاب الكبيرة، لأنه هناك القليل الممكن خسارته من هذا الانقسام. المثقفون البرجوازيين الصغار هم اكثر عرضـة وقابليـة للتكتلية والانقسامية عن العمال. "كل الناس من هذه النوعية" كتب الزعيم التروتسكاوي الأمريكي ج ب كانون لديهم صفة مشتركة واحدة : انهم يحبون مناقشة الأشياء بدون حد أونهاية. والعمل السياسي للمبعدين معروف بالفضيحة. في الواقع هذه الظواهر الانعزال عن القوة الانضباطية العظيمة للصراع الطبقي وحركة الأمميـة الرابعة عانت بشدة من كل تلك الأمور. منذ البداية أصـابت التروتسـكية بـداء الانقسـامية، بالانشـقاقات والانفصالية الشديدة.

حارب تروتسكي بأفضل ما يملك ليكسر هذا المناخ الميئوس منه وليجد طريقة حتى تصل هـذه الحركـة للعمال. في البداية وجه اتباعه نحومختاف فئات اليسار، المجموعات الاشتراكية الديمقراطية والوسطية (مثـل حزب العمال الأممي البريطاني وحزب العمال الاشتراكي الألماني) المستقلة عن الأمميتين الثانيـة والثالثـة على أمل أن يسفر ذلك عن زيمر فالد جديدة. ثم وجههم نحودخولية القصيرة المدى في الأحزاب الاشـتراكية الديمقراطية الجماهيرية، وخرج بهم مرة أخرى في ١٩٣٩ اقترح تروتسكي على حزب العمـال الاشـتراكي الأمريكي طرد الأعضاء البرجوازيين الصغار الذين فشلوا في اجتذاب عمال للحزب.

ولكن لم يسفر كل ذلك عن أي شيء. تسبب كل تكتيك جديد في انقسامات جديدة وفشلت كل منهـا فـي تحقيق هدفها. لم تنجح الحركة التروتسكية أبدا في استقطاب عدد معقول من العمال أوفي أن تصبح جزءا من الحركة العمالية.

السؤال الذي يجب أن نسأله الآن هو: ماذا كان اثر تلك الظروف على نظرية تروتسكي للحزب؟ فرغم انه من الممكن للمنظر أن يقاوم الأثر المحيط للظروف الصعبة بالتمسك بقوة للمكتسبات النظرية للماضي وللنقاط العالية السابقة للحركة مثلما فعل لينين أثناء رجعيه مستولين بعد ١٩٠٥، ومثلما فعل تروتسكي فيما بعـد إلا انه من المستحيل أن تبقى النظرية غير متأثرة على الإطلاق بالممارسة. كان هذا هوالحال مـع تروتسـكي. أدت الفجوة الكبيرة بين المتطلبات الضخمة للموقف وبين القوة الضعيفة جدا التي كان من الممكن أن يوظفها تروتسكي لمقابلة تلك المتطلبات فقط إلى المبالغة في فاعلية وقوة منظمته الصغيرة جدا بل أخطأ أيضـا فـي تقديره النظري المبالغ فيه للدور الذي يمكن أن تلعبه قيادة أممية منفصلة عن الجماهير، وفى إحلال برنـامج الحزب، الذي كتب من هامش الصراع الطبقي، محل الحزب ذاته كتجسيد للطليعـة الحقيقيـة للبروليتاريـا كالمعمم لتجارب الطبقة العاملة في خضم الأحداث الكبرى، يمكن توضيح هذه النقاط بجلاء من خلال اختبار القرار الذي اتخذه في ١٩٣٨ ليؤسس فعليا الأممية الرابعة والآفاق التي صاحبت هذا القرار.

٢- الأسس النظرية للأممية الرابعة:

نجد الصفة المباشرة الوضوح للأممية الرابعة هي الاختلاف بينهما وبين الأمميات الثلاثة الأولـى. جـاء المؤتمر التأسيسي اجتماعا هزيلا مقارنة بالاجتماعات التأسيسية للسابقين.عقد سرا في بيت صديق تروتسكي القديم ألفريد روزن في فرنسا واستمر مدة يوم واحد فقط وحضره ٢١ مندوب فقط. أدعى هؤلاء المنـدوبون تمثيل ١١ منظمة في ١١ بلد. إلا أن معظم هذه المنظمات كانت من أصغر الحلقات، بل أن "القسم الروسـي" لم يكن إلا مجرد وهم مثله عميل للمخابرات الروسية يدعى ايتان، فقط جاء " ماكس شـاختمان " المنـدوب الأمريكي من قسم ضم أكثر من ٢٠٠ عضو، في ١٩٣٥ أدان تروتسكي فكـرة أن التروتسـكيين يريـدون الأممية الرابعة " يوم الخميس القادم " وأطلق على تلك الفكرة " نميمة غبية " إذن لماذا، رغم عـدم حـدوث تطور معتبر في الحركة. مضى تروتسكي على أية حال وأطلق الإعلان؟

تقع الإجابة في نظرية تروتسكي " أزمة قيادة " البروليتاريا. اقتنع تروتسـكي أن كـلا مـن الرأسـمالية والستالينية وصلنا لطريق مسدود مستحيل. واعتمد النجاح على هذه الأزمة على بروز قيادة ثوريـة جديـدة. ففي المواقف الثورية التي تقترب بحتمية اعتبر العامل الحاسم هونوعية القيادة الثورية، وهكذا يصبح بالإمكان في تلك المواقف أن تكسب منظمات صغيرة بسرعة جماهير واسعة وتمارس أثرا حاسما على الأحداث.

ويفتتح البرنامج الذى تم تبنيه فى المؤتمر التأسيسى، الرأسمالية ومهمات الأممية الرابعة كالتالي:

يتصف الموقف السياسى العالى ككل أساسا بأزمة تاريخية فى قيادة البروليتاريا... لـم " تنضـج " فقـط الشروط المسبقة الضرورية للثورة بل لقد بدأت بشكل ما تتعفن. بدون ثورة اشتراكية، فى الفتـرة التاريخيـة القادمة، تهدد كارثة كل ثقافة الإنسان وحضارته. الدور الآن على البروليتاريا أى علـى طليعتهـا الثوريـة أساسا. لقد غدت الأزمة التاريخية للإنسانية أزمة القيادة الثورية.

كانت نظرية " أزمة القيادة " تقطيرا للتجربة الثورية لحقبة بأكملها، من المثل الايجابى لأكتوبر ١٩١٧ إلى الأمثلة السلبية للمجر ١٩١٩، إيطاليا ١٩٢٠، ألمانيا ١٩٢٣ – ١٩٣٣، الصـين ١٩٢٥ – ١٩٢٧، أسـبانيا ١٩٣١ – ١٩٣٧. ولكن هذه "الصحة" العامة للنظرية لا تغطى المشكلة كلها. لم يدع تروتسكي ولوللحظة أن القيادة تخلق أو"تصنع" الثورة (كما يقترح، على سبيل المثال، بعض الجيفاريين)، بل إنها مجرد وصلة حاسمة في سلسلة الأحداث، حيث المكونات الأساسية الأخرى للسلسلة هي الأزمة الاقتصادية والسياسية الموضوعية للرأسمالية، الانتفاض الجماهيري للطبقة العاملة " وجود حزب ثوري معد بشكل جيد. ولكن بدون هذه الحلقة ستكون "القيادة" معزولة، معلقة فى فراغ وعاجزة نسبيا، وموقفها سيكون أسوأ طالما عندها صورة خاطئة عن قدراتها الذاتية وأهميتها. كانت المشكلة بالنسبة لتروتسكى هى أنه عندما أسس الأممية الرابعة فـى سـبتمبر ١٩٣٨ (الحزب العالمي للثورة الاشتراكية). لم تكن توجد وصلات رئيسية فى الحلقة. لم يوجـد لا انتفـاض للطبقة العاملة ولا حزب ثورى مؤسس بصلابة داخل الطبقة فى أى مكان بالعالم.

من الطبيعي أن تروتسكى كان واعيا بشدة بهذا."حل" تروتسكي المشكلة بسلسلة من التنبؤات توقـع فيهـا البروز الحتمي للوصلات المختلفة فى السلسلة الثورية فى المستقبل القريب.

أولا : كان تروتسكى مقتنعا أن الرأسمالية كانت قد دخلت أزمتها الأخيرة. " لقد حقق الشـرط المسـبق الاقتصادى للثورة البروليتارية عموما أعلى درجة فى النضج يمكـن الوصـول إليهـا فـى ظـل الرأسمالية. لقد ركدت قوة إنتاج البشرية ". لم يكن الموقف يحتمل الحديث عن إصلاحات اجتماعية منظمة ورفع مستويات معيشة الجماهير. ونتيجة ذلك فان الاشتراكية الديمقراطية ستهاجم فى مقتل.

ثانيا : اعتبر تروتسكى الحرب العالمية التى كانت تقترب كسابقتها، بل أكثر، موجة ثورية ضخمة : عادة ما يكون الميلاد الثانى أسهل من الأول. فى الحرب الجديدة لن يكون مـن الضـرورى الانتظـار عامين كاملين حتى الانتفاضة الأولى.

ثالثا : كان تروتسكى مقتنعا بشدة اهتراء النظام الستالينى فى روسيا -مثل الهرم المثبت على قمته- غير قادر على تحمل هذه الحرب. "اولم تشله الثورة فى الغرب، ستكنس الإمبريالية النظام الذى خـرج من ثورة أكتوبر". وبينما أيد تروتسكى الدفاع عن الاتحاد السوفيتي، لم يفشل تروتسكي في التعامل مع حقيقة أن التخلص من مثل هذا النظام سيوجه ضربة قاتلة لما اعتبره القـوة المضـادة للثـورة الرئيسية فى الحركة العمالية.

رابعا : بالانسجام مع رؤية لينين فى الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية ومع نظريته هوعن الدائمة اعتقد تروتسكى أن المستعمرات لن تتمكن من الحصول على استقلالها بدون صراع مباشر متصل ضـد الإمبريالية وبما أن البرجوازية الوطنية ستعجز عن خوض هذا الصراع، فسيكون علـى حركـات التحرر الوطني الصاعدة اتخاذ طريق الثورة الاشتراكية. "بالفعل صارت راية النضال مـن أجـل تحرر الشعوب المستعمرة وشبه المستعمرة، أى حوالى نصف البشرية، فى أيدى الأممية الرابعـة". وشكل هذا كله لدى تروتسكى منظور يبدوفيه:

"إن الحقبة... التى تشرف على البدء بالنسبة للبشرية الأوروبية لن تترك أثرا فى الحركة العمالية لكل مـا هومبهم ومتعفن... ستترك أقسام الأمميتين الثانية والثالثة المسرح بدون أحداث صوت، واحدة تلـ والأخرى. من المحتم حدوث إعادة تجميع جديدة وضخمة لصفوف العمال وستحصل الكوادر الثورية الشابة على لحـم ودم".

كانت هناك أدلة كافية على احتمالية وقوع كل التنبؤات المكونة لهذا الأفق، ولكن بقيت حقيقة أن التـاريخ أثبت عدم صحة كل واحدة منها. بدأت الاستعدادات للحرب تخرج الرأسمالية من الركود، وتحولـت الأزمـة الأخيرة للرأسمالية، كما شخصها تروتسكى، إلى أكثر انتعاشات النظام قوة وعظمة. لم يسقط نظام ستالين فى الحرب بل خرج منتصرا وأقوى مما سبق، وبسط سيطرته على كل أوروبا الشرقية. وبدلا مـن أن "تتـرك المسرح بدون إحداث صوت " اكتسبت الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية والشـيوعية، علـى أسـاس هـذه التطورات، صك حياة جديد فى جميع أنحاء أوروبا. استطاعت الإمبرياليـة عمومـا، أن تمـنح الاسـتقلال للمستعمرات من خلال صفقة مع برجوازيات المستعمرات، وهكذا قطعت الربط بين التحرر الوطنى والثورة البروليتارية. وهكذا الأممية الرابعة معلقة فى السماء.

لقد تنبأ تروتسكى :

"خلال العشر سنوات القادمة سيصبح برنامج الأممية الرابعة مرشدا للملايين. وسـتعرف هـذه الملايـين الثورية كيف تدك السماء والأرض".

ولكن، عندما انعقد المؤتمر العالى الثانى للأممية الرابعة بعد عشر سنين فى ١٩٤٨ كانت الأممية الرابعة مازالت تمثل مجموعات صغيرة جدا.

أن ثبوت خطأ تنبوءات تروتسكى جعلت من نظريته السليمة فى المجرد، " أزمة القيادة " غير ذات أهمية للأغراض العملية :

ولكن لنفترض أن الرؤية، في أساسياتها، كانت قد أثبتت صحتها، هل كان كل شئ سيكون على ما يـرام؟ هل كان سيكون بمقدور الأممية الرابعة الصغيرة الوصول لقيادة العملية الثوريـة العالميـة المنبثقـة بثقـة وترشدها نحوالانتصار؟ بالطبع لا يمكن الإجابة بالقطع على مثل هذا السؤال، كما هوالحال بالنسبة لكل أسئلة "كان يمكن أن يحدث". إلا أن الواضح هوأنه كانت تبرز مشكلتان كبيرتان من قرار تأسـيس الأمميـة أولا، كانت المجموعات التروتسكية صغيرة، ضعيفة جدا (أضعف بكثيـر، مـثلا، مـن البلاشـفة فـى ١٩٠٣، أوالسبارتكوسيين فى ١٩١٤، أومجموعة تروتسكى، ميزرا يونتس، فى ١٩١٧) بحيث يصبح من الصعب جدا عليها أن تجعل أحدا يشعر بها وسط انتفاضة ثورية عظيمة. أجل يمكن لحزب صغير أن ينموبشكل رائع فى وقت ثورة. ولكن يجب أن يمتلك فى البداية حجما وفاعلية معقولة على الأقل وإلا عصفت به الأحداث. هـذه هى نقطة أهم مسألة عملية بناء الحزب الطويلة المرهقة فى فترة قبل الثورة. آمل تروتسكى فى التغلب على هذه الصعوبة بواسطة نظام من المطالب الانتقالية يمكن المجموعة الصغيرة من الارتباط وقيادة الجمـاهير. كتب :

تتكون المهمة الاستراتيجية للفترة القادمة... فى التغلب على التناقض بين الشروط الموضـوعية وعـدم نضج البروليتاريا وطليعتها... من الضرورى مساعدة الجماهير فى عملية النضال اليومى لخلق الجسر بـين المطالب الحالية وبين البرنامج الاشتراكى للثورة يجب أن يتضمن هذا الجسر نظاما من المطالـب الانتقاليـة ينبع من ظروف اليوم والوعى الحالى للشرائح الواسعة من الطبقة العاملة. نظـام يـؤدى بوضـوح ودقـة نحواستنتاج نهائى وحيد استيلاء البروليتاريا على السلطة.

ولكن لأن تروتسكى قرر إعلان الأممية بدون أن يكون لديه قاعدة الطبقة العاملة مدفوعا لاقتـراح هـذه المطالب الانتقالية صياغتها فى نظام ثابت بمعزل عن وبشكل يتقدم النضالات الجماهيرية. كان هذا أسـلوبا خاطئا. لا يمكن ببساطة أن تستخلص المطالب التى تنبع حقيقة من "الوعي الحالي" وتؤدى فعليا إلى الاستيلاء على السلطة من رأس منظر. مهما كانت عبقريته، ولكنها يجب أن تكون تعبير وترجمة لنضالات الجماهير. لهذا الغرض يجب أن يوجد حزب ذوجذور ليعمل كهمزة اتصال وتفاعل بين العمال والقيادة. ولكـن كانـت الأممية الرابعة أضعف كثيرا من أن تستطيع لعب هذا الدور. لقد تم قبـول برنـامج تروتسـكى الانتقـالى. "الرأسمالية ومهمات الأممية الرابعة". بدون تعديلات وتقريبا بدون نقاش، ولكن لم يحدث أبدا أن تبنى العمال مطالب البرنامج – من أجل سلم متصاعد للأجور، من أجل فتح ملفات الشركات الكبيرة. مـن أجـل تـأميم البنوك، من أجل ميليشيا عمالية.

كما أنه ليس من الممكن، مثلما ظن تروتسكى، التوقع بدقة والتخطيط المسبق لبرنامج الثورة – من الممكن رؤية الخطوط العريضة لمعركة، ولكن ليس الأشكال الخاصة للنضال، وعلى هذه الأشكال الخاصة يتم تحديد المطالب المعينة. فلكى يقودوا الثورة الروسية كان على البلاشفة أن يراجعوا كلية برنامجهم، وحتى شعارات أساسية مثل "فلتسقط الحكومة المؤقتة" وكل السلطة للسوفييتات كان لابد من سحبها فى أوقات وإعادة طرحها بعد ذلك.

المشكلة الثانية كانت ستتكون أن رؤية تروتسكى تضمنت "إعادة" تجميع جديدة وضخمة لصوف العمال. لم يكن من الممكن حدوث ذلك إلا من خلال انشقاقات فى الأحزاب الاشتراكية الديموقراطية ومن خلال ظهـور الكثير من المنظمات الثورية وشبه الثورية. إلا أن تروتسكى، بتأسيسه للأممية قبـل حـدوث أى مـن هـذه التطورات أوحتى بدء حدوثها، كان يحاول أن يقرر مسبقا وبشكل محدد الشكل التنظيمى الذى ستأخذه عمليـة إعادة التجميع. فى هذه الظروف كان الوجود المسبق لأممية تتكون من مجموعات صغيرة جدا. ذات عادات حلقية، والتى كان سيجب على المنظمات والحركات الجديدة أن تنضم إليها، سيشكل فى الغالب عقبة صـعبة أمام خلق أممية حقيقية لجماهير العمال.

فى فحصنا لمسألة الأممية الرابعة ونظرية تروتسكى عن الحزب يكون من المفيد الإشارة إلـى كلمـات كتبها هوفى ١٩٢٨ (وجهها ضد السياسة الستالينية فى اللجنة النقابية الإنجليزية-الروسية) :

انه أسوأ وأخطر شئ لواتخذت مبادرة من الرغبة الانتهازية نافذة الصبر للقفـز فـوق تطـور الحـزب ولتخطى المراحل الضرورية فى تطوره (انه هنا بالتحديد حيث يجب عدم تخطى أوالقفز فوق أى مرحلة).

من المحتمل أن إعلان الأممية لم يكن انتهازية. إلا أنه كان بالقطع محاولة للقفز على تطور الحزب. فـي الأساس كانت خطوة ضخمة رفعت فيها راية ثورية عالية فى فراغ. أدت هذه الخطوة، إلى جانب بقية عمـل تروتسكى، دورها فى الإبقاء على شعلة الماركسية غير المشوهة فى وقت كادت تنطفئ، فيـه هـذه الشـعلة تماما. إلا أن هذه الخطوة أعطت، أيضا، لحركة التروتسكية رؤية خاطئة عن دور وطبيعة القيادة الثوريـة، أعطتها عددا من الرؤى الخاطئة عن البرنامج والمطالب الانتقالية وكم من الأوهام حول مدى قوتها وأهميتها.

٣- انحطاط الأممية الرابعة:

يجب هنا أن نتطرق باختصار لما حدث للأممية الرابعة بعد موت تروتسكى. لأنه حينذاك ظهرت أخطـاء السنوات الأخيرة من حياة تروتسكى بوضوح كامل. كان تروتسكى قد كتب فى ١٩٣٨ :

لوكانت أمميتنا مازالت ضعيفة من حيث العدد. فهى قوية فى الفكر. البرنامج. التراث فى الصلابة التى لا تقارن لكوادرها ومن لا يعتقد ذلك اليوم فلندعه ينتحى جانبا فى الوقت الحاضر. غدا. سيصبح الأمـر أكثـر تأكيدا ووضوحا.

أثبتت بقية " القيادة الأممية " والتى لم يكن لديها أى خبرة حقيقية فى الحركة العمالية وبدون أى إنجـازات نظرية مستقلة. أنها غير قادرة على تكييف ذاتها فى عالم متغير. انه لأحد عيوب أممية بدون قاعدة أنه يمكن لرؤيتها " العالمية " أن تبتعد أكثر فأكثر عن الواقع بدون أن تخضع لاختبار ودروس الممارسة، وهذا بالضبط ما حدث. على الرغم من كل الأدلة المعاكسة، تمسكت قيادة الأممية الرابعة ببرنامجها وأعلنت تحقق رؤاهـا وتوقعاتها. فى أوقات صارت هذه العملية " كوميديا ". مثلما كتب جيمس ب.كانون. زعـيم حـزب العمـال الاشتراكى الأمريكي بعد ستة أشهر من نهاية الحرب العالمية الثانية :

توقع تروتسكى بأن مستقبل الاتحاد السوفيتي سيتحدد فى الحرب يظل هذا هواقتناعنا الراسخ فقـط نحـن نختلف مع هؤلاء الذين يعتقدون، بدون تفكير، أن الحرب قد انتهت... الحرب لم تنته، والثورة التى قلنا أنهـا ستخرج من الحرب فى أوروبا مازالت على الأجندة.

فى مناسبات أخرى كان العمى عن رؤية الواقع أكثر خطورة. مثلا عندما كتـب أرنسـت مانـدل فـى ١٩٤٦:

لا يوجد أى سبب على الإطلاق يدعونا أن نعتقد أننا نشهد حقبة جديدة من الاستقرار والتطور الرأسمالى، على العكس. لقد عمقت الحرب من عدم التوازن بين زيادة إنتاجية الاقتصاد الرأسمالى وبين قـدرة السـوق العالمية على استيعابها.

فى مثل تلك الحالة كان من المحتم حدوث انشقاقات وانقسامات فى الحركة. المسألة التـى أحـدثت هـذه الانقسامات ودمرت الأممية كانت "المسألة الروسية" وبالتالي مسألة أوروبا الشرقية. من وجهة نظر تروتسكى بقيت روسيا دولة عمالية بسبب علاقات ملكيتها المؤممة، ولكن دور البيروقراطية الستالينية رجعيا فى الداخل ومضاد للثورة على الصعيد العالمى. هذا الافتراض الأخير كان فى الحقيقة التبرير التاريخى لوجود الأمميـة الرابعة. لم يكن هناك وجود على الإطلاق للاستيلاء الشيوعى على أوربا الشرقية فى هذا التحليل، ولكن متى حدث هذا الاستيلاء ظهرت مسألة لم يكن ممكنا تجاهلها ولا الإجابة عليهـا بالإشـارة ل " البرنـامج " مـا هوالطابع الطبقى للدول الأوربية الشرقية الشيوعية؟ هنا وجدت الحركة التروتسكية ذاتها في وسط أمر محير للغاية. فلوكانت أوروبا الشرقية دولا عمالية لما أبطلت وسخفت هذه الحقيقة فقط مـن الـرأي القائـل بـأن الستالينية كانت مضادة للثورة، بل ولكانت ناقضت أيضا النظرية الماركسية عن الثورة الاشتراكية لأنه تقريبا في كل الحالات لم تلعب الطبقات العامل لأوربا الشرقية أي دور في تحررها. لوبقيت دول الشرقية رأسمالية أذن كيف يتم تفسير التطابق والتماثل التام بين بنيتها الاقتصادية والسياسية مع بنية الاتحاد السـوفيتي؟ كـان المنطق الوحيد المتماشى والمنسجم مع الماركسية الثورية هوالتخلى عن توصيف روسيا كدولة عمالية، ولكن هذا سيعنى مراجعة صريحة للبرنامج المقدس.

بدلا من ذلك راوغت الأممية الرابعة وانقسمت. في البداية حاولت المحافظة على موقف اعتبار هذه الدول دول فصل ما تزال رأسمالية، ثم بعد ذلك وتحت تأثير انفصال ستالين – تيتوفى ١٩٤٨ ذهبت الأممية الرابعة لوجهة النظر المؤيدة للستالينية ضمنيا... خلق الجيش الأحمر، خلق سلسلة من الـدول العماليـة المشـوهة. صاحب ذلك التحول محاولة انتهازية لمغازلة المارشال تيتو، ثم بعد ذلك، وتحت قيادة ميشيل بـابلو، تحـول ضخم نحوالستالينية بلغ ذروته فى نظرية أن هناك حربا عالمية أخرى تقتـرب ستضـطر فيهـا الأحـزاب الستالينية أن تجذر من مواقفها. من هذا استخلص بابلوالنتيجة المنطقية أن الأحزاب التروتسكية يجب أن تحل نفسها وتستأنف اتخاذ مواقف يسار الأحزاب الشيوعية. صاحب كل تلـك العمليـة عـدد لا يحصـى مـن الانقسامات والطرد، ولكن حدث هنا انقسام ضخم. اعترضت أجزاء كبيرة من الأممية تحـت قيـادة حـزب العمال الاشتراكى الأمريكي على هذه السياسة التصفوية وقاطعت القيادة : لكن لم ترفض هـذه الأجـزاء إلا استنتاجات بابلووليس مقدمات وتحليل بابلو. صارت الحركة الأممية التى أسسها تروتسكى حطـام – نظريـا وسياسيا وتنظيميا.

أن نتيجة هذه القصة الحزينة هى أنه توجد اليوم أربعة منظمات تدعى أنها الأممية الرابعة والعديـد مـن المنظمات التى تحاول إعادة بناء الأممية الرابعة. يوجد الآن فى بريطانيا أكثر من عشر مجموعات تروتسكية " أرثوذكسية " تدعى كلها الالتزام بـ"أسفار" برنامج ١٩٣٨.

بالطبع لم تنتج النظرية اللينينية فى التنظيم، والتى دافع عنهـا تروتسـكى طـويلا، مـن آثـار انحطـاط التروتسكية. فبينما تلتزم كل المجموعات التروتسكية بكلمات النظرية حرفيا، تعرضت "روح" النظرية لنوعين من التحريف. يمكن وصف النوع الأول بالحلقية الدوجماتية المتطرفة. فى هذا النوع تعلن المنظمة وتطالـب حق قيادة الطبقة العاملة، مهما كان صغر حجم المنظمة وعدم أهميتها. تعرف نفسها أنها الحزب الثورى ليس على أساس دورها فى الصراع الطبقى بل على أساس امتلاكها "النظرية السليمة" و"الخط السليم". أساسا ينظر للحزب على أنه منفصل ليس فقط عن الطبقة العاملة ككل بل أيضا عن العمال الطليعيين.

ولوكان الحزب بالنسبة للينين هومعلم وتلميذ فى ذات الوقت، ففى هذه النسخة مـن التروتسـكية يحـاول الحزب لعب دور ناظر المدرسة على الطبقة العاملة. داخليا تميل تلك المنظمات للشمولية والعقابية بل وأحيانا لعبادة القائد. خارجيا تعيش تلك المنظمات أوهام خاطئة عن العظمة والأهمية وتتصف بالبارانويا وعدم القدرة على النظر فى وجه الحقيقية.

النوع الثاني من تلك المنظمات يمكن وصفه بالانتهازية البرجوازية الصغيرة. فعلى الرغم من أنها تـؤدى طقوس الطاعة فى المناسبات لـ"دور الطبقة العاملة" إلا أن الفشل في تحقيق قاعدة في الطبقة العاملـة، فـي الممارسة، تقبل كأمر واقع طبيعى ويتم البحث عن بدلاء. يتراوح هؤلاء البدلاء من الحركات المتضامنة مـع العالم الثالث، للطلبة الثائرين، للراديكاليين السود (سلطة السود)، لتحرر المرأة. ولكن هذا النوع من المنظمات التروتسكية يتميز بالآتي: أ- البقاء داخل والتكيف مع مناخ برجوازى صغير، ب- التأجيل للمسـتقبل غيـر المحدد للمهمة المركزية لاختراق وتنظيم الطبقة العاملة الصناعية. هكذا تصبح المجموعة الصـغيرة تشـبه مجموعة نقاش أكاديمية تهتم بالحذاقة النظرية، وهوالجوالذى لا يمكن أن يستريح فيه العمال.

يعتمد كل من هذين النوعين من "التروتسكية" بثقل في نظريتهما عن الحزب على نظرية لينين قبل ١٩٠٥ وهي أن الاشتراكية يجب تقديمها إلى الطبقة العاملة من الخارج، أن كلا من هذين النوعين يسـتخدمان هـذه الفكرة كعذر وتبرير لعزلتهما عن الطبقة العاملة. فى واقع الأمر، وباسم لينين وتروتسـكى، وصـلت تلـك المنظمات إلى صنع كاريكاتير تام من النظرية اللينينية التروتسكية عن الحزب.

بالطبع أنه من غير المعقول تحميل تروتسكى مسئولية كل الحماقات التى ارتكبها ويرتكبها متبعوه ولكـن على الرغم من ذلك، يوجد نوع ما من الاستمرارية بين الأخطاء فى رؤاه عن الأمميـة الرابعـة وتطورهـا اللاحق وإذا استخدمنا صورة بلاغية لتروتسكى ذاته يمكن القول بأن الخدش فى نظريته عن الحزب، الـذى نتج عن الظروف اليائسة فى الثلاثينات، قد تلوث وتضخم وأدى فى النهاية لغرغرينة التخلـى عـن رؤيـة الحزب الثورى كتنظيم العمال المتقدمين.

الفصل السادس

جرامشي والأمير الحديث

في الوقت الذي ناضل فيه تروتسكى لتطبيق نظرية التنظيم اللينينية قضى أنطونيوجرامشى إحدى عشـر عاما فى سجن فاشى طور فيهما أفكارا جديدة وأصيلة فى الإستراتيجية الثورية. كان نتـاج هـذا المجهـود الضخم مفهوم جديد عن دور ومهام الحزب الثورى ويعتبر هذا المفهوم محـور الاسـتراتيجية الجرامشـية والإضافة الجوهرية الوحيدة لنظرية التنظيم الماركسية منذ لينين. استطاع جرامشى تحقيـق هـذه الإضـافة النظرية أساسا بسبب منظوره الفلسفى الفريد الذى تناول من خلاله مسألة الحزب وبالتـالى فـان أى تحليـل لنظرية الحزب عند جرامشى لبد أن يبدأ بتناول الأسس الفلسفية التى بنيت عليها.

١- فلسفة الممارسة:

وصل جرامشى إلى الماركسية، كما فعل جورج لوكاتش (الفيلسوف الماركسى البارز الآخر فى فترة مـا بعد الحربين)، عن طريق هيجل. أى طريق الفلسفة. كان لبنديتوكروس وأنطونيولابريولا التأثير فى تكـوين جرامشى الثقافى. كان كروس فيلسوفا مثاليا يرى أن الهدف الأساسى للفلسفة هوفهم التاريخ ولذا أطلق علـى نفسه تسمية مؤرخ مطلق. اعتبره جرامشى أعلى تمثيل للثقافة البرجوازية الإيطالية واحد أبـرز المتحـدثين باسم الليبرالية فى العالم. كان كروس ناقدا للماركسية وعلى الرغم من ذلك كان جرامشى يـرى أن أعمالـه كانت على مستوى ثقافى أرقى من الأعمال الماركسية الفجة والوضعية المنتشرة فى إيطاليا ما قبل ١٩١٤، لذا تماثل علاقة جرامشى بكروس تلك العلاقة بين ماركس وهيجل. فى البداية وقع تحت تأثيره ثم اعتبره بعد ذلك فأكثر كشخصية أساسية لابد من تحديها وتخطيها من خلال مزيج نظرى جديد. أن ما أخذه جرامشى من كروس وطوروه هورفض الحتمية الاقتصادية والوضعية كما أخذ منه أهميـة القـوى الأخلاقيـة السياسـية أوالأيديولوجية فى التاريخ.

قدم انطونيولابريولا الجسر بين الماركسية والمثالية الكروسية حيث يعد مؤسسس الماركسية الإيطالية فى أواخر القرن التاسع عشر. كان لابريولا أستاذ فلسفة فى جامعة روما، جاء إلى الماركسية فى فترة متـأخرة فى حياته بعد أن كان أبرز قيادات المدرسة الهيجلية الإيطالية. كان لابريولا أول من قدم مصـطلح فلسـفة الممارسة والذى استخدمه جرامشى كمصطلح بديل للماركسية فى " مذكرات السجن " لتخطى رقابة السـجن. كان جرامشى يكن له احتراما كبيرا وقدر بالذات تركيزه على الوحدة بـين النظريـة والتطبيـق واسـتقلال الماركسية عن كل الاتجاهات الفلسفية الأخرى. فى مذكرات السجن وصفه جرامشى بأنه " الرجـل الوحيـد الذى حاول بناء فلسفة الممارسة عمليا ".

وضح الاتجاه الذى تسير فيه أفكار جرامشى فى المقال الذى استقبل به الثورة الروسية، الثورة ضد رأس المال والذى مدح فيه البلاشفة لرفضهم أن يتقيدوا بالقوانين التاريخية الحديدية. وعندما أصبح جرامشى بعـد الحرب العالمية ماركسيا ناضجا وشيوعيا، كانت ماركسيته مختلفة تمام عن المادية العلمية التقليدية التى كانت تميز الأممية الثانية وتهيمن بدرجة كبيرة على الأممية الثالثة أيضا باستثناء لينين الذى كان قد غيـر موقفـه الفلسفى فى ١٩١٤.

بالنسبة لجرامشى الناضج فى مذكرات السجن كانت فلسفة الممارسة هى التأريخ التـام والعلميـة التامـة والمادية التامة للفكر والإنسانية التامة للتأريخ. هذه الفلسفة تتعارض كليا مع جميع أشكال الميتافيزيقا سـواء كانت ميتافيزيقا لطبيعة إنسانية مجردة أم الإنسان بشكل عام التى نجدها فى الدين والفلسفات المثالية المشـتقة من الدين أم كانت ميتافيزيقا تؤسس نفسها على أساس قوانسن موضوعية.

يميز جرامشى نفسه، من خلال تعريفه للماركسية بشكل تاريخى / أنساني لـيس فقـط عـن بوخـارين وكاوتسكى والكانطيين الجدد. بل أيضا عن بليخانوف المعلم الفلسفى لكل الماركسيين الروس. يؤدى به هـذا إلى نقد التصور السائد لمسائل فى غاية الأهمية لنظرية الحزب " الحتمية التنبؤ العلمى، الحتمية الاقتصادية.

تؤدى التحليلات الحتمية للماركسية، كما أشرنا كثيرا من قبل. إلى عرقلة فهم الحزب ولذا يعتبـر أعظـم إنجازات لينين هوفصل نفسه عن الفهم الحتمى للتنظيم فى الأممية الثانية. ولكن ما يميز جرامشى عن لينـين وتروتسكى ومعارضين آخرين للحتمية أن هؤلاء لم يواجهوا الحتمية أبدا على هذا المستوى الفلسـفى. فقـد تجنبوا المسألة الأساسية وتناولوا الحتمية كعنصر زمن. فيقولون أنه بالطبع على المدى الطويل تكون وحـدة البروليتاريا وانتصار الاشتراكية... الخ أمورا حتمية، ولكن السؤال هوكيف نسرع هذه العملية، مـا العمـل الآن؟ وبهذه الطريقة يتم الالتفاف حول الآثار السلبية للحتمية ولكن بسبب التنازل للحتمية فى النهاية لم يـتم نبذها بشكل كلى. أما بالنسبة لجرامشى فعلى الرغم من فهمه لدور المفيد تاريخيا الذى تلعبه الحتمية لكنه لـم يقع فى هذا اللبس : " لابد من ملاحظة كيف أن العنصر القدرى والحتمى والميكانيكى هوبمثابة عطر يخرج من فلسفة الممارسة شبيه بالدين والمخدرات. (فى تأثيره السلبى).

فى فترات الهزيمة تكون الفكرة الحتمية أن التاريخ على جانبنا مصدر للقـوة والمقاومـة ولكـن تكـون البروليتاريا تلعب الدور الرئيسى فى التوجيه الفعلى للأحداث (فى الثورة مثلا) تصبح الميكانيكية فى لحظـة معينة خطر وشيك. أن القوة الكبيرة التى تمتلكها الماركسية بالنسبة للماركسى الحتمـى أمـام الأيـديولوجيا البرجوازية هى قدرتها على قراءة المستقبل بسبب كشفها لقوانين التاريخ. أما جرامشى فيرى :

فى الواقع لا يمكن التنبؤ إلا بالصراع وليس الظروف الملموسة للصراع والتى لا يمكنه أن تكون إلا نتاج لقوى متناقضة فى حركة مستمرة لا تقلل أبدا إلى كميات محدودة، ففيها يتحول باستمرار الكم إلى كيف فـى الواقع نستطيع التنبؤ بالدرجة التى نمارسها أى بالدرجة التى نبذل بها جهد تطوعى. وبذلك نشـارك بشـكل ملموس فى خلق النتائج المتنبأ بها. يكشف التنبؤ نفسه ليس كعملية معرفة علمية ولكن كالتعبير المجرد للجهد المبذول. الوسيلة العملية لخلق إرادة جماعية.

إذا كانت القدرية بالنسبة لجرامشى شبيهة بالدين فان الحتمية للاقتصادية كانت بالنسبة له ليسـت أفضـل كثيرا من الخرافة وتشويه فج للماركسية ولمواجهة هذه الحتمية الاقتصادية كمنهج تاريخى يرجع جرامشـى إلى الشهادة الأصلية لماركس. مؤلف أعمال سياسية وتاريخية ملموسة.

يرى جرامشى الاقتصادوية أوالنقابية كاتجاه فى حركة الطبقة العاملة يجد أصوله فى الليبرالية البرجوازية (الحركة الحرة للقوى الاقتصادية) وليس فى الماركسية والتى تهدف إلى تطويع القـوى الاقتصـادية لإرادة الإنسان من خلال السياسة. النقابية هى نظرية طبقة مضطهدة " وتمنعها هذه النظرية من أن تصـبح طبقـة مسيطرة ".

يربط جرامشى بين الامتناع اليسارى المتطرف فى الانتخابات والـرفض المطلـق للتنـازلات والعـداء للتحالفات وبين الاقتصادية فى أنها كلها مبنية على اقتناع بأن القوانين الاقتصادية (خاصة فى وقت الأزمـة الرأسمالية) ستؤدى فى حد ذاتها إلى الاشتراكية. كانت هذه الرؤية لـدور الأزمـات الاقتصـادية بالنسـبة لجرامشى " روحانية تاريخية " انتظار معجزة مضيئة من نوع ما. على العكس من ذلك لا تـؤدى الأزمـات الاقتصادية المباشرة فى حد ذاتها إلى أحداث تاريخية جوهرية : بل تحدث بيئة أكثر ملائمة لنشر أفكار معينة ووسائل معينة لطرح وحل مسائل متعلقة بالتطور اللاحق للحياة القومية ككل.

أن التحليل الماركسى الأصيل لموقف ما بالنسبة لجرامشى ربد أن يكون دراسة ملموسة لعلاقات القوى بالنظر إلى تغييرها. أن تحليل مثل هذا لابد أن يشتمل على الأقل المستويات الثلاثة التالية :

علاقات القوى الاجتماعية وثيقة الارتباط بالبنية الموضوعية المستقلة عن الإرادة الإنسانية والتى يمكن أن تقاس بأساليب العلوم الطبيعية. على هذا الأساس نستطيع أن نكتشف إذا كان يوجد فى مجتمع معين الظروف الضرورية والكافية لتحويل هذا المجتمع.

علاقات القوى السياسية، تقييم لدرجة التجانس والوعى الذاتى والتنظيم التـى وصـلت إليهـا الطبقـات الاجتماعية المختلفة.

علاقات القوى العسكرية.

كتب جرامشى " أن التطور التاريخى يتأرجح بشكل مستمر بين المستوى الأول والثالث بواسطة المستوى الثانى " يهتم جرامشى بشكل خاص بهذا المستوى الثانى الوسيط أى المستوى السياسى.

يعطى جرامشى أذن للفلسفات والتصورات عن العالم وللأفكار التى يتبناها الناس دور مهم وفعال فى خلق التاريخ. بالطبع يفتح هذا عليه باب الاتهامات بالإرادية والمثالية (كانت هذه الاتهامات توجه إليه بشكل متكرر فى الصراعات الداخلية للحزب) فى الواقع لا يهتم جرامشى بالفلسفة فى المجرد ولكن بـالتطور التـاريخى الملموس لفلسفات معينة وخاصة تأثيرها على التفكير اليومى والوعى الدارج للجماهير.

أن يستطيع جمهور من الناس التفكير بانسجام وبشكل وحدوى فى الواقع الحاضر هوحدث فلسـفى أكثـر أهمية وأصالة من عثور عبقرية فلسفية ما على حقيقة جديدة تبقى ملكا لمجموعات صغيرة من المثقفين.

يصر جرامشى على أن كل شخص فيلسوف ولكن بطريقته الخاصة وبشكل غير واعى. ولكن من الضرورى تحويل ما هوضمنى ومتناقض ومفك فى الجماهير إلى وعى منظم ونقدى من الممكن أن ينتج عنه تكوين إرادة فعل جماهيرية جماعية. ولكن النظرة الكونية هذه لا يمكن أن تنموبشكل عفوى فى أفراد منعزلين. أن تكوين إرادة جماعية يستلزم نقطة انطلاق ونقطة انتشار. لابد أن توجد قوة تعمل على تطويره من الناحية النظرية والعملية.

لذا أدت فلسفة الممارسة عند جرامشى بتركيزها على الفاعل الإنساني الواعى فى التاريخ ونبذها للحتمية الميكانيكية والجامدة بشكل مباشر إلى مسألة الحزب الثورى وجعلته متمكنا لدرجة كبيرة فى التعامل مع هذه المسألة ولكن بالتعمق الفلسفى وحده لم يكن جرامشى ليستطيع تطوير نظرية الحزب بشكل ملموس. كان هناك شرط آخر لظهور نظرية الحزب عند جرامشى وهوالاشتراك بشكل متعمق فى الفعل السياسى فى حركة الطبقة العاملة والتحليل الملموس لها.

٢- التجربة الإيطالية – الثورة والهزيمة:

كانت التجربة السياسية الفاصلة فى تكوين فكر جرامشى هى انتفاضة عمال إيطاليا بقيادة بروليتاريا تورينوفى ١٩١٩ و١٩٢٠. أن تدخل جرامشى فى هذه الأحداث من خلال المجلة الأسبوعية " النظام الجديد " جعلته قريبا جدا من عمال تورينو. يتذكر جرامشى أنه :

فى ذلك الوقت لم نتخذ أى مبادرة لم تكن قد اختبرت فى الواقع... وأخذ رأى العمال بشكل كامل فى الموضوع. لهذا لا سبب ظهرت مبادرتنا كتفسير لحاجة ملموسة وليس أبدا كتطبيق بارد لنموذج ثقافى.

كان إنجاز جرامشى العظيم فى " النظام الجديد " هوترجمة فكرة السوفييتات الروسية إلى إيطاليا وذلك من خلال تطوير اللجان الداخلية للمصانع كأساس لدولة جديدة. فى نص مهم كتب فى ١٩٢٠ لخص جرامشى تصوره للشيوعية كالتالى :

تؤكد لذلك على التالى : أن الثورة ليست بالضرورة بروليتارية وشيوعية إذا طرحت ونفذت عملية الإطاحة بالدولة البرجوازية، ولا تكون بروليتارية وشيوعية إذا طرحت ونفذت عملية تدمير المؤسسات التمثيلية والجهاز الإداري الذى تمارس من خلالها الحكومة المركزية السلطة السياسية للبرجوازية، لم ولن تكون بروليتارية وشيوعية حتى إذا وضعت موجة الانتفاضة الشعبية السلطة فى أيدى أشخاص يسمون أنفسهم (ويكونوا بصدق) شيوعيين. تكون الثورة بروليتارية وشيوعية فقط بالدرجة التى تحرر بها قوى الإنتاج البروليتارية والشيوعية، قوى كانت تتطور بداخل المجتمع المحكوم بالطبقة الرأسمالية. تكون بروليتارية وشيوعية بالدرجة التى تدفع إليها وتشجع نموونتظيم القوى والبروليتارية والشيوعية القادرة على بدء العمل الصبور والمنهجى الضرورى لبناء نظام جديد فى علاقات الإنتاج والتوزيع.

أن هذا التأكيد على الجانب الخلاق والبناء للثورة العمالية وليس على الجانب التدميرى. الإطاحة بالرأسمالية ظل كخيط أساسى فى فكر جرامشى. كانت هذه التجربة أيضا سلبية فى أنها فضحت الضعف الشديد للحزب الاشتراكى الإيطالي ولتراث الاشتراكية الإيطالي ككل. فشلت التيارات الرئيسية للاشتراكية الإيطالية تماما فى تقدير أهمية مجالس المصانع واعتبرتها تهديدا لنظام النقابات القائم وتركت البروليتاريا فى تورينولتناضل وحدها. وفى اللحظة الحاسمة، ظل الحزب الاشتراكى الإيطالي مشلولا بالبيروقراطية غير قادرا أوراغب فى تقديم قيادة واضحة للحركة الثورية الصاعدة، وكنتيجة لذلك فقدت المبادرة وفتح الطريق أمام الثورة المضادة الشرسة والتى وصلت إلى قمتها فى تقدم موسولينى إلى روما. كان رد فعل جرامشى لهذه الخيانة هونقد مدمر بعنوان " نحوتجديد الحزب الاشتراكى " والذى أدان فيه قيادة الحزب لفشلها فى خلق حزب نضالى متجانس مطهر من العناصر الإصلاحية وغير الشيوعية وفشلها فى اشتراك الحزب فى نشاط الأممية الثالثة ونقص المعارضة الثورية فى الاتحاد العام للعمل وارتباطها بالديموقراطية البرلمانية وامتناعها عن شن هجوم على السلطة. توصلت هذه الأطروحات، والتى نالت تأييد لينين، إلى أن :

وجود حزب شيوعى على درجة عالية من الانضباط والتماسك وله خلايا فى المصانع والنقابات والجمعيات ويستطيع من خلال لجنته المركزية التنفيذية تركيز وتنسيق الفعل الثورى البروليتارى كله. هوالشرط الجوهرى والذى ل يمكن الاستغناء عنه لأى تجربة سوفييتات.

لذا لم يكن موقف جرامشى الفلسفى فقط ولكن أيضا تجربته العملية هوالذى أدى به إلى مسألة الحزب. ولكن فى البداية لم يكن إبداعه ظاهرا ولم يكن يستطيع تبنى سياسة مستقلة. تسبب فى هذا جزئيا ضغوط الأحداث اليومية والقمع الفاشى وأيضا الموقف الذى وجد نفسه فيه بداخل الحزب الشيوعى الإيطالي حديث التأسيس. كان الحزب منقسما بين الشخصية المهيمنة لاماديوبورديجا اليسارى المتطرف وجناح يمينى انتهازى بقيادة انجليلوتاسكا.

اختلف جرامشى بعمق مع بورديجا ولكنه كان يقدر قيمة وجوده فى قيادة الحزب ولم يرغب فى تحديه خوفا من أن يقع الحزب تحت سيطرة تاسكا. لم تكن الفرصة متاحة لجرامشى لتطوير وإيضاح أفكاره حتى اعتقاله فى ١٩٢٦. وفى ذلك الوقت كانت الأحداث على المسرح العالمى تشكل جزءا كبيرا من اهتمامه. أراد جرامشى أن يتعلم دروس هزيمة الموجة الثورية التى أعقبت الحرب ليس فقط فى إيطاليا ولكن فى جميع أنحاء أوربا. ورأى جرامشى فى نموالدولة الفاشية وظهور الفوردية فى أمريكا تطورات حديثة فى الرأسمالية تطرح مسائل استراتيجية جديدة أمام الحركة العمالية.

كانت هذه الخلفية التاريخية التى كون أثناءها جرامشى فى كتابات السجن مفاهيمه عن الحزب الثورى.

٣- الأمير الحديث والمنظور المزدوج:

تناول جرامشى مسألة فى مذكرات الحزب فى مذكرات السجن من خلال دراسة لكتاب الأمير لمكيافيللى. كانت أهمية مكيافيللى بالنسبة لجرامشى تكمن فى أنه يمثل تجربة رائدة فى إيطاليا فى إيضاح كيفيـة خلـق إرادة قومية جماعية من أجل تأسيس دولة جديدة (إيطاليا برجوازية موحدة).كان مكيافيللى " يعقوبى النزعة " وطرح من خلال الشخصية الأسطورية " الأمير " القيادة السياسية، الإستراتيجية والتكتيك الضرورين لتحقيق هذا الهدف. أن تأسيس دولة عمالية جديدة يتطلب مثل هذه القيادة السياسية – أمير حـديث – ولكـن يقـول جرامشى :

أن الأمير الحديث.. لا يمكن أن يكون شخصية حقيقية أوفرد ملموس. لا يمكن أن يكون الأكائن عضوى، عنصر مركب فى المجتمع بإرادة جماعية قد ظهرت من قبل واستطاعت لدرجة ما أن تثبـت نفسـها فعليـا وبدأت تأخذ شكلا ملموسا. لقد قدم لنا التاريخ هذا الكائن وهوالحزب السياسى – أولى الخلايا التى يتجمع فيها بذور إرادة جماعية تتجه نحوالكونية والكلية.

وكما يوضح مكيافيللى الخواص الضرورية لأمير ناجح، يمضى جرامشى، مستندا على أسـاس الموقـف الفلسفى الموضح أعلاه، لتناول الخواص الضرورية للحزب الثورى ولكن للأسف لا يفعل ذلك بشكل مـنظم بل من خلال سلسلة من الملاحظات الغنية جدا والمعقدة جدا، فيها درجة ما من التفكك والتى تتـداخل فيهـا مواصفات الحزب الثورى مع نقاط تحليلية عن الأحزاب بوجه عام. ولذا سيكون أي عرض مختصر نسـبيا لهذه الأفكار، كما هوالحال فى هذه الدراسة مضطرا إلى محاولة انتقاء الخيوط الرئيسية وإدخالها فـى بنيـة ليست موجودة (على الأقل ظاهريا) فى الأصل. لابد أن يكون فى هذه العملية بعض التعسـف ولـن تكـون مرضية بشكل كامل، ولكن لن يمكننا تجنب هذا.

يعارض جرامشى أى فصل ميكانيكى للمستويين وأى محاولة لعرضهما كمراحل متتالية، منفصلة زمنيا. أن عنصر القبول دائما موجود فى تطبيق القوة وعنصر القوة موجود دائما فـى كسـب القبـول. يلاحـظ محرروا كتاب مذكرات السجن أن :

من الممكن أن نرى هنا محاولة لتنظير الصراع الذى خاضه جرامشى فى الحزب الشيوعى الإيطالي ضد بورديجا من جهة وتاسكا من الجهة الأخرى. يمثل بورديجا فى هذا النموذج العـزل غيـر الجـدلى للقـوة والسيطرة ويمثل تاسكا عزلا متوازيا للقبول والهيمنة.

حول جرامشى أن ينظر وحده هذين المنظورين. ولكن كما هوصحيح أن فى الجدلية الثورية للهدم / إعادة البناء يركز جرامشى على جانب البناء ومع أنه لم يتغافل أبدا عن لحظة القوة فان اهتمامه الأساسى هوبمسألة القبول الجماهيرى وطور أبحاثه التالية على هذا الأساس. يعتبر السجال (الصراع ضـد البورديجيـة) سـببا جزئيا لهذا الاهتمام. ولكن السبب الرئيسى هوإعادة النظر العميقة التى قام بها جرامشى للمهام التـى تواجـه الأحزاب الثورية بعد هزيمة الحركة الثورية بعد الحرب وتطورات الرأسمالية الحديثة.

إذا كان لابد على الحزب الثورى تبنى المنظور المزدوج فهذا لأن الطبقة الحاكمة تبقى على نفسها بـ نفس الأسلوب أى بمزيج من الديكتاتورية والهيمنة والذين يتم تجسيدهم فى سلطة الدولة السياسية والمجتمع المدنى. ولكن سلطة الدولة القمعية ومؤسسات المجتمع المدنى لا يتطوران بشكل متكافئ ولا يقفان فى نفس المواقـع بالنسبة لبعضهما فى كل الأوقات وفى كل البلدان. لابد على الحزب الثورى أن يقوم بتحليل ملمـوس لهـذه العلاقة بين سلطة الدولة ومؤسسات المجتمع المدنى وأن يشكل استراتيجية على هذا الأسـاس. وقـد اعتقـد جرامشى أن فشل ما بعد الحرب فى الغرب كان نتيجة لاختلاف أساسى بين روسيا والغرب من هذه الناحية :

فى روسيا كانت الدولة كل شئ، وكان المجتمع المدنى متخلفا وغير متماسك. أما فى الغرب كانت العلاقة بين الدولة والمجتمع المدنى متوازنة فلما اهتزت الدولة ظهر فى الحال بناء صلب للمجتمع المدنى.

وأيضا :

فى حالة أكثر الدول تقدما... يصبح المجتمع المدنى بناء شديد التعقيد ويقاوم كارثـة الهجـوم المفـاجئ للعنصر الاقتصادى المباشر (الأزمات. الكساد،... الخ).

لذلك وقفت الدولة الرأسمالية فى روسيا معزولة فى وظيفتها القمعية غير قادرة على مواجهة هجوم أمامى سريع. ولكن فى الغرب حيث الرأسمالية أقدم ولها جذور أعمق كثيرا فى المجتمع هناك احتياج لاسـتراتيجية مختلفة، يستخدم جرامشى مصطلحات من الاستراتيجية العسكرية ليعرف الاتجاهين : حرب المواقع وحـرب المناورات. حرب المواقع هى الصراع طويل الأمد على الهيمنة الاستراتيجية التى يجب اتباعها فى الغـرب. حرب المناورات هى إستراتيجية الهجوم الأملمى المباشر والتى استخدمت فى الثورة الروسية. فـى أمـاكن أخرى من المذكرات يطرح جرامشى مسألة الانتقال من حرب المناورات إلى حرب المواقع بشكل مختلـف. ليس فى المقارنة بين روسيا والغرب ولكن فى المقارنة الزمنية. " فى العصر الحالى نفذت حرب المناورات سياسيا بين مارس ١٩١٧ ومارس ١٩٢١، أعقب ذلك حرب المواقع ".

على عكس حرب المناورات والتى تقدم إمكانية انتصار سريع، تعنى حرب المواقع عملية حصار متبـادل طويلة المدى وتحتاج إلى تركيز غير مسبوق للهيمنة. يجب على الحزب الثورى أن يناضل من أجل تقويض القبول الذى تناله سلطة الطبقة الحاكمة من الجماهير (والذى يتم من خلال ألف قناة مؤسسية وجماعية تخترق الفكر الدارج للجماهير) وأن يخل هيمنة جديدة وهذا على ثلاثة مستويات. أول هذه المستويات يتعلق بمسـألة التحالفات :

تستطيع البروليتاريا أن تصبح الطبقة القائدة والحاكمة فقط للدرجة التى تنجح فيها فى خلق نظام للتحالفات الطبقية يمكن من خلالها تعبئة غالبية الجماهير العاملة ضد الرأسمالية والدولة البرجوازية.

يوضح جرامشى أن مثل هذا التحالفات ستتضمن بالضرورة عنصر التنازلات. إذا كـان اتحـاد قـوتين ضرورى لهزيمة قوة ثالثة. تكون الإمكانية العملية الوحيدة هى التنازلات التكتيكية. يزعم جرامشى أن رفض اليساريين المتطرفيين المبدأ للتنازلات هونتاج للحتمية الاقتصادية :

إذا كانت الظروف المناسبة ستظهر بشكل حتمى... فمن الواضح أن أى مبادرة لتوجيـه وتخطـيط هـذه الظروف لن يكون غير مفيد فقط بل أيضا مضر.

أما جرامشى فقد وضع أهمية خاصة لاستراتيجية التحالفات لأن فى إيطاليا لم تكن الثورة ممكنة إلا علـى أساس تحالف بروليتاريا الشمال مع فلاحى الجنوب. كان تاريخ الاشتراكية الإيطالية فى هذه المسـالة سـئ جدا. أن التغلب على كل الاتجاهات الحلقية فى الحزب هو شرط اساسى لتحقيق الهيمنـه لـذا فلـيس مـن المستغرب أن جرامشى كان معاديا تماما للتكتيك الستالينى فى الفترة الثالثة. ولكن لم يكن هذا معروفا فى ذلك الوقت.

أما المستوى الثانى للنضال من اجل الهيمنه فهوعملية تثقيف ففى حرب المواقع لا يمكن الاعتماد فقط على تعبئة الجماهير العمال وراء مطالب مباشرة وشعارات. لابد أن يكتسبوا درجة من الوعى بـرؤيتهم الكونيـة ويندمجوا إلى قوة منظمة بشكل دائم ومستعدة على المدى الطويل لان توضع فى ساحة القتال فـى اللحظـة المناسبة. لإنجاز هذا لابد على الحزب :

إلا يتعب أبدا من إعادة طرح أفكاره (من خلال تقديم أشكال أدبية متعددة) فالإعادة هى افضـل الوسـائل التعليمية للعمل على العقلية الجماهيرية ولابد من العمل بشكل دائم لرفع المستوى الثقافى لشـرائح متناميـة باستمرار من الجماهير.

يتطلب هذا تعديل التوازن بين التحريض والدعاية لصالح الدعاية فعلى الحزب إلا يكون فقط تعبيرا عـن الطبقة بل أن يتفاعل بشكل نشيط معها ليطورها ويقويها ويوحدها أن الدوجمائية الحلقية فى النظرية خطيـرة جدا لمثل هذا العمل من اجل التغيير الثقافى والاخلاقى. وكان جرامشى دائما يعارض ظهور مـثلا معـاداة الدين الفجة فى الدعاية الاشتراكية. ولا يمكن رفع المستوى الثقافى للجماهير من خلال فرض دوجمـا، بـل يجب أن يأتي هذا من خلال فصل العناصر الصحيحة فى الفكر الدارج للجماهير عـن عناصـر التعصـب المرتبك.يحتاج هذا إلى منهج ماركسر عميق وغير اقتصادى.

أما المستوى الثالث والذى يشترط تواجده لانجاح العنصرين الآخرين فيمكن أن يسمى بالصراع من اجـل المثقفين، ولهذا الصراع جانبان : الولا، من الضرورى خلق شريحة من المثقفين العضوين للطبقـة العاملـة. ويستخدم جرامشى مصطلح المثقفين هنا ليس للإشارة للكاتب أوالفيلسوف أوالمفكر التجريدى... الخ. وإنمـا للعامل الذى يمتلك رؤية واضحة للعالم ولأهدافه ويشارك بشكل فعال فى الحياة العملية، مقنـع دائـم بشـكل العنصر الموجه فى الطبقة العاملة. وبكلمات أخرى، الجانب البروليتارى لمثقفى البرجوازيـة العضـوين – المهندسون الصناعيون، الاقتصاديون السياسيون، القضاة، المحامون،... الخ.

أن تشكيل نخبة من المثقفين من نوع جديد يخرجون بشكل مباشر من الجماهير ولكن يظلـون متصـلين بهم... هوبالفعل ما سيعادل من الصورة الأيديولوجية للعصر. ولكن جرامشـى لـيس طوبويـا فـى هـذا الموضوع. فهويدرك من تجربته الشخصية صعوبة العمل الثقافى والدراسة المنتظمة خاصة للعمال ويـدرك أن تشكيل العمال المثقفين عملية طويلة وبطيئة لا يمكن إتمامها إلا بعد الاستيلاء على سلطة الدولة.

من الضرورى أيضا العمل مع المثقفين غير البروليتاريين، ولكن هنا أيضا جرامشى واضحا حول حدود هذا العمل :

يتطور المثقفون ببطء، ابطأ بكثير من أي جماعة أخرى. وهذا بسبب طبيعتهم ودورهم التاريخى... من العبث الظن بأنه من الممكن لهذه النوعية أن تنفصل ككتلة عن الماضى كله من اجل أن تتضع نفسها بشكل كامل على جانب أيديولوجية جديدة. من العبث المثقفين ككتله وربما من العبث لكثير من الأفراد على الرغم من الجهود التى يقومون بها أويريدون القيام بها الآن، يهمنا المثقفين ككتلة وليس فقط كأفراد. من المهم والمفيد طبعا للبروليتاريا أن يقوم مثقف أوعدد من المثقفين الفرادى يتبنى برنامجها ومبادئها وأن يدمجوا أنفسهم مع البروليتاريا ويصبحوا جزء لا يتجزأ منها... ولكن من المهم ولا مفيد أيضا أن يحدث انقسام من النوع العضوى، بشكل تاريخى، داخل المثقفين ككل : أي أن يشكل، بشكل تكتلى جماعى تيار يسارى، بالمعنى الحديث للكلمة، موجها نحوالبروليتاريا الثورية.

أن ضرورة هذا لا تأتى فقط من اجل تقويض الهيمنه البرجوازية بشكل عام ولكن أيضا لان جرمشى يرى أن المثقفين يلعبون دورا هاما فى إبقاء نظام التحالفات التى تبنيها الطبقة الحاكمة مع الشرائح المقهورة ولذا بإمكانهم أن يلعبوا دورا مشابها فى نظام التحالفات ولابد أن يبنيها حزب البروليتاريا.

يحلل جرامشى، بالنسبة لإيطاليا، دور المثقفين فى الكتلة الزراعية الجنوبية والتى قاموا فيها بدور الوسطاء بين الفلاحين وكبار مالكى الأرض ويزعم أن خلق تيار يسارى بين هؤلاء المثقفين هوشرط مسبق لكسر هذه الكتلة وتامين التحالف بين الفلاحين والبروليتاريا. فى هذا الشان يعلق جرامشى انه كلما ازداد تطور الشريحة المثقفين العضويين للبروليتاريا زادت قدرة الحزب الثورى على جذب المثقفين بشكل عام وأن مثل هؤلاء المثقفين سينفروا إذا قدم لهم نموذج مادى فج للنظرية الماركسية.

٤- العفوية والقيادة:

أن الأساس الذى تبنى عليه نظرية الحزب عند جرامشى هوتصوره للعلاقة بين العفوية والقيادة الواعية والتى يمكن اعتبارها على الأقل جزئيا مساويا لتاك العلاقة بين الحزب والطبقة والتى تشكل المسالة الأساسية فى نظرية الحزب الماركسية. أن ما يعرضه فى هذه المسالة فيه تقدم واضح عما حققته روزا لوكسمبورج أوما حققه لينين فى البدايات وأيضا لوكاتش، ويطابق لدرجة كبيرة الموقف الناضج للينين. يبدأ جرامشى بنقد مفهوم العفوية النقية فى حد ذاتها.

لابد من التأكد على أن العفوية النقية لا وجود لها فى التاريخ فهى لن تختلف كثيرا عن الميكانيكية النقية. فى اكثر الحركات عفوية تكون المسالة ببساطة أن عناصر القيادة الواعية لا يمكن حصرها. ولا تترك وثائق يمكن الاعتماد عليها. يمكن القول أن العفوية إذا سمة الطبقات المقهورة وبالفعل لأكثر عناصرها هامشية... لذا يكون فى مثل هذه الحركات عناصر متعددة من القيادة الواعية ولكن لا يهيمن أحد منهم أويتخطى مستوى العلم الشعبى لشريحة اجتماعية معينه وعيها الدارج أوتصورها التقليدى للعالم.

يعارض جرامشى هؤلاء الذين يواجهون الماركسية بهذه العفوية ويعتبرونها منهجا سياسيا. أن أساس هذا الخطأ فى النظرية والتطبيق فى تناقض فج يفضح أسبابه الأصلية أي الرغبة المباشرة فى استبدال قيادة مـا بقيادة مختلفة.

ولكنه يعارض بنفس القوة الموقف المتعالى تجاه العفوية الجماهيرية :

أن إهمال أواحتقار الحركات المسماة بالعفوية. أي الفشل فى إعطائهم قيادة واعية أورفعهم إلـى مسـتوى أعلى من خلال إدخالهم فى السياسة، كثير ما يكون له عواقب وخيمة. كلما قامت حركة عفوية يصاحبها، فى كل الأحوال تقريبا، حركة رجعية للجناح اليمينى للطبقة الحاكمة ولأسباب مماثلة تؤدى الأزمة الاقتصـادية، مثلا، إلى سخط الطبقات المقهورة وإلى الحركات الجماهيرية العفوية من ناحية أومن ناحية أخرى إلى تـآمر الجماعات الرجعية المضادة للثورة التى تستغل فرصة الضعف الموضوعى للحكومة لمحاولة تنفيذ انقلابات. ومن الأسباب الهامة لهذه الانقلابات فشل الجماعات المسئولة فى إعطاء قيادة واعية للهبات العفوية أوتحويلها إلى عنصر سياسى إيجابي.

على الرغم من أن جرامشى يتبع هذا الإشارة إلى انتفاضة صقلية عام ١٢٨٢ غالبـا ليخـدع رقيـب السجن، من الواضح انه كان يقصد موقف الحزب الاشتراكى الإيطالي والبورديجيين من أحـداث ١٩١٩-١٩٢٠ كعامل من العوامل التى ساعدت على انتصار موسـولينى. استشـهد جرامشـى، كمثـال للعلاقـة الصحيحة بين العفوية والقيادة الواعية بعمل مجموعة النظام الجديد :

اتهمت حركة تورينوبأنها عفوية وارادويه فى نفس الوقت. هذا الاتهام المتناقض، إذا حللناه يبرهن على أن القيادة الحركة كانت خلاقة وصائبة. لم تكن هذه القيادة مجرد، لم تردد معادلات علمية ونظرية ولم تخلط بين السياسة، الفعل الحقيقى والخطاب النظرى. لقد اتجهت نحوأناس حقيقين، تشكلوا فى علاقـة تاريخيـة، لهـم مشاعر محددة وتصورات جزئية للعالم... الخ. والتى تكونت كنتاج لتركيبات عفوية لوضـع معـين للإنتـاج المادى مع التجمعات العرضية لعناصر اجتماعية متباينة. لم يتم إهمال أواحتقار عنصر العفوية بل تم تثقيفـه وتوجيهه وتطهيره من التلوثات الداخلية، كان الهدف هوتطويرها نحوممارسة النظرية الحديثـة الماركسـية ولكن بأسلوب حيوى وفعال تاريخيا. وقد تحدثت القيادات نفسها عن العفوية الحركة وكانوا محقين فى ذلك، كان هذا التأكيد منشطا كعنصر توحيدى فى العمق، وفوق كل شىء فقد نفت أن الحركـة كانـت اعتباطيـة أومغامرة مطبوخة على ضرورتها التاريخية. وقد أعطت الجماهير وعيا نظريا لكونهم خالقى ومؤسسى قـيم تاريخية، لكونهم مؤسسى دولة. هذه الوحدة بين العفوية والقيادة الواعية أوالانضباط تعبر عـن دقـة العمـل السياسى الحقيقى للطبقات المقهورة، طالما أن هذا العمل سياسى جماهيرى وليس مجرد مغامرة تقـوم بهـا مجموعة تزعم أنها تمثل الجماهير. يطرح جرامشى، كنتاج لهذا التحليـل : مـا يسـميه بالمسـالة النظريـة الجوهرية والتى تتعلق، من زاوية مختلفة بمنظور لينين فى " ما العمل " والذى يقضى بان الاشتراكية لابـد وأن تقدم إلى الطبقة العاملة من خارجها. يتسائل جرامشى :

هل يمكن للنظرية الحديثة (الماركسية) أن تكون متعارضة مع الحس المعنوى للجمـاهير (العفـوى هنـا بمعنى انه ليس نتاج لأي نشاط تثقيفى تقوم به مجموعة قيادية وعية. بل تشكلت من خلال التجربـة اليوميـة ينبرها الوعى الدارج أي التصور الشعبى للعالم).

يجيب جرامشى :

لا يمكن أن تكون معارضه لها فالاختلاف بين الاثنين هواختلاف فى الكم وليس فى الكيـف. ولابـد أن يكون التحويل المتبادل. أي الانتقال من هذا إلى ذاك والعكس ممكنا.

أن التباين بين رؤية جرامشى وتلك التى تبناها لينين (فى البدايات) ولوكاتش. لابد وأن يكـون واضـحا. يكشف جرامشى عن الارتباط والعلاقة المتبادلة (والتى ينفيها " ما العمل " و " التاريخ والوعى الطبقى ") بين الوعى والتجربة والممارسة الفعليين للطبقة العاملة والوعى الطبقى الاشتراكى الكامن. ويفعل جرامشى هـذا بدون السقوط فى الخطأ العفوية. لا يتناول جرامشى فقط المهام الاستراتيجية للحزب وكيف يجب أن تكـون علاقته بجماهير الطبقة العاملة. تتضمن مذكرات السجن عدد من الملاحظات حول التنظيم والحياة الداخليـة الضرورية لتمكن الحزب من القيام بدوره. يذهب جرامشى إلى حد القول بان الطريقة التى يؤدى بها الحزب عمله تعطينا معيار دقيق للحكم على الحزب ككل، عندما يكون الحزب تقـدميا يعمـل بشـكل ديمـوقراطى (المركزية الديمقراطية) وعندما يكون رجعيا بشكل بيروقراطى (المركزية البيروقراطية).

لا يوجد أيضا أي طوبوية فى تصور جرامشى عن الحزب وعضويته. فهويبدأ بالتأكيد على انه بـالرغم من أن التقسيم إلى قيادات وتابعين يجد اصله التاريخى فـى التقسـيم الطبقـى، فهوموجـود أيضـا فـى المجموعات المتجانسة اجتماعيا. وعلى هذا الأساس يقسم عضوية الحزب إلى ثلاث عناصر :

عنصر جماهيرى، يتكون من أناس عاديين تأخذهم مشاركتهم شكل الانضباط والولاء اكثر مـن أي روح إبداعيه أوإمكانيات تنظيمية. من الصحيح انه بدون هؤلاء لا يمكن للحزب أن يوجد ولكنه أن يوجد أيضا بهم وحدهم. فهم قوة طالما كان هناك من ينظمهم ويمركز جهودهم.

العنصر الرابط الأساسي، والذى يمركز ويعطى كفاءة وقوة لتركيبة معقدة من القوى لم تكن لتساوى شيئا أن تركت وحدها. هذا العنصر يتمتع بقدرات كبيرة فى التنظيم والانضباط وأيضا من الممكن أن يكون هـذا هوأساس القدرات الأخرى – يتمتع بقدرة على الإبداع.

عنصر وسيط يصل بين العنصرين الأول والثانى ويحافظ على العلاقة بينهما ليس جسديا فقط بل أيضـا أخلاقيا وثقافيا.

يرى جرامشى أن العنصر الثانى، القيادة، هواكثر العناصر الثلاثة أهمية :

من الصحيح أيضا أن هذا العنصر لا يستطيع تشكيل الحزب وحده ولكنه اكثر قدرة على ذلك من العنصر الأول. فنحن نتحدث عن جنرالات بلا جيوش ولكن فى الواقع أن تكوين جيش اسهل من تكوين جنرالات.

يوازن هذه الواقعية مبدأ آخر على نفس درجة الأهمية :

فى تشكيل القيادات... هل المقصود هوأن يكون هناك دائما حـاكمين ومحكـومين، أن الهـدف هوخلـق الظروف التى يصبح فيها هذا التقسيم غير الضرورى. وبما أن هدف جرامشى هوبالطبع هوالأخير فأن سلطة القيادة والانضباط لابد أن يكون على أساس :

قبول سلبى للأوامر أوتنفيذ ميكانيكى للتكليفات (والتى ستكون ضرورية فى مناسبات بعينها) ولكن علـى أساس استيعاب وضح وواعى للتوجهات التى يجب تنفيذها.

ما يجب تحقيقه فى الحزب هوإذا المركزية فى الحركة – اى تكيف دائم لمنظمة مـع الحركـة الحقيقـة وتوافق بين الدفع من اسفل والتوجهات من أعلى وإدخال مستمر لعناصر من عمق القاعدة إلى إطار الجهـاز القيادى. يقول جرامشى " أن إحداهم المسائل المتعلقة بالحزب السياسى هى قدرة الحزب على مواجهـة قـوة تأثير العادة ". تخلق الأحزاب من اجل التحضر لمواقف الأزمة ولتكون قادرة على الفعل فى لحظات التحول التاريخية ولكنها كثيرا ما تصبح روتينية وغير قادرة على التكيف مع المهام الجديدة وفى هذا المضمار يكون العدوالرئيسى هوالبيروقراطية :

أن البيروقراطية هى اعند واخطر القوى المحافظة، وإذا استطاعت تشكيل جسم متماسـك يقـف وحـده ويشعر باستقلاليته عن جمهور الأعضاء، يصبح الحزب منفصلا عن دوره التاريخى وفى لحظـات الأزمـة الحادة يخلومن مضمونه الاجتماعى ويصبح كأنه معلق فى الهواء.

يجب على الرغم من ذلك إلا ننظر لهذه القضية من جانب واحد لا غير. فمـع وجـود مشـكلة العـادة والروتين فان هناك حاجة للحفاظ على استمرارية العمل وخلق تراث :

من الصحيح أن هناك خطر البقرطة ولكن هذا الخطر موجود فى كل استمرارية عضوية ولابد أن يراقب ولكن خطر الانقطاعات والارتجال يكون اكبر لذا ففى الحياة الداخلية للحزب كما هوالحـال فـى المنظـور المزدوج والعلاقة بين الحزب والطبقة يرى جرامشى وحده جدلية بين الانضباط والمبادرة وبين الاستمرارية والتغيير.

٥- التقييم:

ماذا الزعم القائل بأن جرامشي هومنظر الثورة فى الغرب؟

أن اللينينية أثبتت نفسها فى روسيا وبذلك فتحت آفاقا جديدة ذات أهمية عالمية. كان جرامشي. من خـلال تحليله لتطور المجتمع المدنى وللجذور العميقة للهيمنة البرجوازية. هوالذى رأى بوضوح اكثـر مـن الكـل الفرق الأساسي بين روسيا والرأسمالية المتقدمة والذى يتطلب بذلك توسـيع الإطـار اللينيـى. بـدا لينـين وتروتسكى بحلول ١٩٢١ يلاحظون هذه المشكلة وكان جرامشى على علم بذلك ولكن لينين كـان منشـغلا بروسيا ومات بعدها بقليل، وتروتسكي كان يواجه صعوبات أخرى ولم يستطيع أن يطور أفكاره حـول هـذا الموضوع إلا على المستوى التكتيك. أما جرامشى فقد طور أفكاره واستنباعات تحليله لأقصى درجـة مـن

الدقة والوضوح الممكن في ظروف انعزاله فى السجن. وفضلا عن ذلك فقد اثبت التاريخ بأنه على جانب جرامشي في هذه المسالة فقد وضح أن الرأسمالية الغربية تمتلك قدرات على المقاومة والبقاء لم تكن في حسبان ماركسي الكومنترن الأوائل، ويكشف تحليل جرامشي لتوسيع السيطرة الاجتماعية للبرجوازية في دراسته "المنهج الأمريكي والفوردية". عن قدراته العظيمة فى التنبؤ بالاتجاهات الجديدة فى الرأسمالية.

فقد اثبت التاريخ أيضا صحة فلسفة جرامشى بعد نشر أعمال ماركس الأولية والجروندريس والدراسات الحديثة العديدة فى الفكر الماركسى. هل يستطيع اى ماركسى جاد اليوم أن يشكك فى الآثار السلبية للقدرية والحتمية الاقتصادية على الحركة الثورية؟ يتميز جرامشى عن الماركسيين اللاحقين الذين تناولوا بشكل اقل إبداعا مسالة بنية المجتمع الرأسمالي والفلسفة الماركسية. فى انه الوحيد الذى استطاع صياغة أفكاره فى استراتيجية ثورية واضحة على أساس تطوير نظرية الحزب. لذا يعتبر جرامشى الماركسى الوحيد الذى أضاف إضافات أساسية لنظرية لينين فى الحزب.

على الرغم من ذلك تظل هناك علامة استفهام حول مساهمات جرامشى. فلم تطبق أفكاره فى الواقع فى اى وقت. فهولم يكن فى وضع، كما لم يكن ميكافيللى من قبله، يسمح له بتغيير الواقع. لم يتسع إلا إظهار بشكل ملموس ما كان يجب على القوى التاريخية أن تفعله لتكون مؤثرة.

لم تجد أفكار جرامشى من يتبناها ويطبقها وفى الواقع لم يكن هذا ممكنا أصلا فاستراتيجية جرامشى تحتاج إلى وجود حزب لينينى كنقطة انطلاق. ولكن الآثار المشتركة للازدهار الرأسمالي الاقتصادى ما بعد الحرب والخراب الذى تسببت فيه الستالينية أدت إلى عدم ظهور مثل هذه الأحزاب. فمن الممكن فى حدود ضيقة جدا، للمبادئ الأساسية للبشلفة أن ترشد نشاط منظمة أومجموعة صغيرة ولكن الأمر ليس كذلك بالنسبة لأفكار جرامشى. من الممكن أن تشن حرب المناورات بقوات قليلة نسبيا ولكن حرب المواقع تحتاج إلى جيش جماهيرى. فبدون حزب جماهيرى تصبح التحالفات تعاونا مؤقتا بين مجموعات وليس تحالفا بين طبقات وكثيرا ما يؤدى هذا إلى إبهام الخلافات النظرية والبرنامجية. بدون قاعدة البروليتارية واسعة لن يؤدى تشكيل المثقفين العضويين وكسب المثقفين التقاديين إلى تقوية الهيمنة البروليتارية بل سيؤدى إلى الانحطاط إلى الثقافة المدرسية والأكاديمية. لابد وأن نتذكر أن جرامشي كتب فى وقت كانت فيه الأفكار الاشتراكية واسعة فى صفوف الطبقة العاملة وتأسيس الحزب الشيوعى الإيطالي بعضوية ٤٠٠٠٠ منهم ٩٨% عمال واقل من نصف فى المائة مثقفى (٢٤٥ مثقف). أن التصور بإمكانية نقل هذه الأفكار إلى وضع فيه الحركات الثورية محملة بالطلاب والبرجوازية الصغيرة وليس لها إلاجذور هزيلة فى الطبقة العاملة لابد وأن يكون تصورا خاطئا للغاية.

نحن لا نعرف كيف تكون حرب المواقع فى تفاصيلها العملية لذا سيكون اى حكم على نظرية جرامشى من الحزب حكما مبدئيا بالضرورة وإذا كنا مبهورين ومقتنعين بعمق ووضوح وحدة أفكار جرامشى فعلينا التمسك بأن اختيارها الحقيقى الحاسم سيكون فى المستقبل عندما تواجه الرأسمالية الغربية المتقدمة من جديد بأحزاب عمالية ثورية جماهيرية.

الفصل السابع

الحزب الثوري اليوم

نظرية الحزب منذ الحرب:

لقد تعقبنا تطور النظرية الماركسية حول الحزب منذ إدخال ماركس لفكرة حزب الطبقة العاملة، مـروراً بمفهوم لينين عن الحزب الطليعى. وتأكيد روزا لوكسمبورج على إبداع الجماهير. ودفاع تروتسكى المنفـرد عن اللينينية. وحتى تحليل جرامشى للصراع على الهيمنة. أصبحت الآن مناقشتنا مكتملـة بالأسـاس، فمنـذ تروتسكى وجرامشى لم يظهر إسهام كبير فى نظرية الحزب.

ليس من الصعب العثور على سبب هذا الركود. لقد سيطر على فترة ما بعد الحرب أطول انتعـاش فـى تاريخ الرأسمالية. مما أسفر بوجه عام عن الاندماج الاصلاحى للطبقة العاملة. وحيث أن الماركسية الأصيلة كانت مسحوقة بين السلبية النسبية لطبقة العاملة واليد الميتة للارثوذكية الستالينية. فقد أجبرت، إذا جاز القول، على العمل تحت الأرض أولئك القليلون الذين ظلوا ملتزمين بهدف الثـورة البروليتاريـة العالميـة. كـانوا بالضرورة مشغولين بالدفاع عن الأساسيات الماركسية (دور الطبقة العاملة، نظرية العمل فى القيمة، تناقضات الرأسمالية) كما كانوا مشغولين بالتغيرات الكبرى الجارية فى العالم (ظاهرة رأسمالية الدولة، اقتصاد السلاح الدائم، التغيرات فى الإمبريالية). لقد افتقدوا الخبرة العملية بالصـراع الثـورى واللازمـة لجعـل تطـوير الماركسية حول الحزب ممكنا أوملحا.

كانت تظهر مع ذلك عدة بدائل غير ماركسية للحزب العمـالى الثـورى، كوسـائل لتحقيـق الإطاحـة بالرأسمالية. شهدت فترة ما بعد الحرب صحوة لأشكال عديدة من الإرادية، والعفوية، والجبهوية الشعبية. إلا إنها فشلت جميعا فى الاختبار العملى. حصلت الارادوية على اقصى وأهم تعبير عنها فى النظرية القائلة بان الثورة يمكن أن تقوم بها مجموعة صغيرة ولكن عازمة من الفدائيين الريفيين، دون انتظـار نضـج الطبقـة العاملة. ولكن بعد نجاحها الهائل الأولى فى كوبا، فشلت استراتيجية حرب العصابات فى تحقيـق تقـدم فـى أمريكا اللاتينية وتحطمت فى النهاية أدغال بوليفيا مع مصرع شى جيفارا فى ١٩٦٧. كما أن محاولة الحفاظ على الوسيلة نفسها مع نقلها إلى المدن، والتى مثلها ال " توباماروس " فى اروجواى، لم تلاق سـوى نجـاح مؤقت. أما العفوية – رفض التنظيم، والسلطة، وقبل كل شىء الحزب السياسى – فقد كانت إلى حـد كبيـر نتاجا للثورة الطلابية التى انتشرت على امتداد العالم فى الستينات. إلا أن اكبر إنجازات هـذه الفتـرة مـن الحركة أحداث مايو١٩٦٨ فى فرنسا، كانت أيضا اكثر الأدلة إقناعا على عدم ملائمـة هـذه الاسـتراتيجية. فبالتحديد بسبب غياب حزب عمالى ثورى جماهيرى، كان الحزب الشيوعى الفرنسى قـادر علـى تخفيـف نضالية العام العظيم، وتدبير تسوية ضعيفة مع ديجول، وبذلك بدد الأزمة الاجتماعية الحادة بـنفس السـرعة تقريبا التى ظهرت بها. وأخيرا، فان استراتيجية الجبهة الشعبية والانتقال السلمى إلى الاشتراكية تم اختبارهما مرة أخرى فى شكل حكومة الوحدة الشعبية لسلفادور الليندى فى شيلى، وهواختبار كانت له نتائج مأسـاوية يعرفها الجميع.أن هذا التدليل على إفلاس تلك البدائل (والحالات المذكورة هنا ليست سوى الأوضح بين أمثلة كثيرة) مضافا إلى الزيادة السريعة فى عمق أزمة الرأسمالية العالمية والصعود الناتج عن ذلك فـى صـراع الطبقة العاملة خلال العقد الأخير قد أدى إلى إعادة توجيه الأنظار إلى النظرية الماركسـية حـول الحـزب.

كانت النتيجة، من ناحية، ظهور عدد من الدراسات المخصصة لنبش التراث الماركسى حول مسالة الحـزب وتحديد أفاقة بالنسبة للحاضر، ومن ناحية أخرى، ظهرت فى بلاد عديدة منظمات كبيرة نوعـا مـا (ليسـت أحزاب جماهيرية وإنما منظمات كبيرة بما يكفى لتشكيل بداية جادة) تستهدف بناء الحزب الثورى. وقد جـاء هذا الكتاب كاستمرار ومنهجه للمشروع الأول وكمساعد للثانى ما يتبقى، إذا، هوتلخيص المبـادئ للنظريـة الماركسية حول الحزب، وتحديد النقاط الأساسية الخاصة بتطبيقها اليوم.

السمات والملهم الرئيسية للحزب الثورى أن دور الحزب ومهامه وأشكاله التنظيمية ليست ثابتة لكل زمان ومكان، ولابد من اشتقاقها من الوضع الملموس الذى يعمل الحزب فى إطاره. وتكيفها مع هذا الوضع. ومـع ذلك، فعلى أساس اكثر من قرن وربع من الصراع، نستطيع أن نخرج بالتعميمات التالية :

الطبيعة الطبقة للحزب:

لابد أن يكون الحزب الثورى حزبا عماليا. يحتاج هذا المبدأ الأولى والجوهرى، الذى وضعه مـاركس : إلى التكرار مرة أخرى لأنه اكثر ما تعرض للنسيان أوالتجاهل فى السنوات الأخيرة. ينبغى أن يكون الحزب بروليتاريا، ليس فقط بمعنى أن برنامجه هوتعبير عن الطموحات الاشتراكية للطبقة العاملة، وإنما ينبغى أيضا أن يكون بروليتاريا فى تكوينه الاجتماعى وفى حقل نشاطاته اليومية. لا يمكن لعصابة الفـدائيين، أوحركـة فلاحية، أوحركة طلابية، أومجموعة مثقفين، مهما كان برنامجها ممتازا، أن تكون بديلا لحزب جـذوره فـى البروليتاريا الصناعية. أن المنظمة الشابة التى تجد نفسها، كما يحدث كثيرا، برجوازية صغيرة بالأساس فـى تكوينها الاجتماعى، عليها أن تقوم بجهد مضنى من النقد الذاتى والتحول الذاتى لكى تحقق الانتقال إلى حزب عمالى.

الحزب كطليعة:

تأتى الحاجة للحزب من التطور اللا متكافىء للطبقة العاملة، ولا يستهدف الحزب أن يشمل الطبقة كلهـا (التى تسيطر عليها الأيديولوجيا البرجوازية فى الأوقات العادية) وإنما طليعتها ذات الوعى الطبقى. كثيرا ما تعرض هذا المبدأ، الذى وضعه لينين، للتشويه وإساءة التفسير، ولذا فهويحتاج إلى التوضيح التالى : الحـزب طليعة، ولكن الطليعة ليست نخبة صغيرة تقف خارج الجسم الأساسي للطبقة، إنها مئات الآلاف مـن العمـال الذين يقودون فعلا الطبقة فى معاركها اليومية فى المصانع والمناجم والعقارات السكنية والشوارع. الحـزب يقود الطبقة ولا يتذيلها، ولكنه من الداخل وليس من الخارج.

الحزب منظمة قتالية:

هذا له جانبان أولا : لا يدعى الحزب قيادته للطبقة كحق مكفول له، وإنما عليه أن يقاتـل لكسـبها عـن طريق إصدار اقتراحات ملموسة للعمل حول كل قضية تواجه الطبقة العاملة، من اصغر مسـائل الأوضـاع المصنعية إلى اكبر مسائل السياسة الدولية. لابد أن يثبت الحزب عمليا، خلال الصراع، انه افضل مدافع عن مصالح الطبقة العاملة وجميع المستغلين. ثانيا، لابد أن يكيف الحزب نفسه فى آخر المطاف، مـع الصـراع الطبقى فى اكثر أشكاله حدة، الانتفاضة الجماهيرية المسلحة. لا يعنى ذلك اتخاذ بنية عسـكرية قبـل الأوان بطريقة تهدد شرعية الحزب فى البلاد التى بها ديموقراطية برجوازية وتمنعه من القيام بمهامه الأساسية اكثر فى الصراع اليومى، ولكنه يعنى عند نقطة معينه، القيام باستعدادت جادة وبناء تلك المنظمة التى تسـتطيع أن تتحول سريعا إلى وضع مسلح. لان الحزب بهذيين المعنيين منظمة قتالية، فلا مكان فيه لشريحة من حملـة بطاقات العضوية السلبيين، أوالبيروقراطيين المتميزين الآمنين. لابد أن تكون عضـويته نشـطة وأن تتسـم بالتضحية بالذات. ويغلب بالتالى أن تكون شابة.

المركزية الديمقراطية:

لا يمكن التوصل إلى تعميمات نافعة بخصوص بنى تنظيمية محددة – فينبغى لهذه البنى أن تكون شـديدة المرونة – ولكن جمع النظام الحزبى بين الديمقراطية والمركزية ليس مجرد صيغة تنظيمية، بل ينبع مباشرة من مهام الحزب وطبيعة الصراع الطبقى. الديمقراطية ضرورية لان الحزب ليس سيد الطبقة العاملة، وإنمـا هوأداة لتحررها الذاتى. بدون ديموقراطية ومناقشة حرة، لا يمكن للحزب أن لا يصيغ سياسات تتفق فعلا مع حاجات الطبقة العاملة وتلائم الوضع الملموس. والمركزية ضرورية لان الحزب عليه يشن صراعا مريـرا ضد عدوشديد المركزية –الدولة الرأسمالية. بدون وحدة فى العمل، كما يعرف كل نقـابى، تكـون الهزيمـة حتمية.

فيما يتعلق بالمركزية الديموقراطية، هناك فخان من الممكن أن تقع فيهما بشكل خاص المنظمات الجديـدة والصغيرة من ذلك النوع الذى على الأغلب داخل اليسار الثوري على امتداد عالم اليوم الأول وهوخطر اتخاذ مجموعة صغيرة. فى أفضل الأحوال نواة لحزب. الدرع بل من البنى الإدارية الملائمة لحزب جمـاهيري. وبذلك تصبح المجموعة ثقيلة الرأس بشكل يدعوللاستهزاء.

والثاني، خاصة عند انتقال المنظمة من الدعاية إلى التحريض. هوالتطرف فـى الديموقراطيـة ومناقشـة جميع المسائل بلا نهاية. الحزب جمعية للمناقشة – أنه يناقش لكى يصل إلى قرار. ثم ينفذ بعد ذلـك القـرار بطريقة متحدة.

استقلالية الحزب:

يتخذ الحزب موقفه المبدأ الماركسى بوصفه ممثل المصالح التاريخية للطبقة العاملة – وعليه ألا يتنـازل عن استقلاله لصالح أى قوة أخرى، سواء كانت برجوازية بوضوح أوإصلاحية أووسطية. لا يسـتبعد ذلـك على الإطلاق أى عدد من التحالفات أوالتسويات، أوالمؤقتة، الخ، مع منظمات أخرى، ولكنه يستبعد التنـازل عن الحق فى النقد الحر، والخط السياسى المنفصل، والمنظمة المنفصلة. ينطبق الآتى على الحالة القصـوى المتمثلة فى الانضمام إلى حزب أكبر أوالالتحاق به (حزب العمال البريطانى، على سبيل المثال). وينبغى أن التبعية ليست بالضرورة مسألة اتفاقات أوقيود رسمية. فالحزب الشيوعى البريطانى، علـى سـبيل المثـال، منظمة مستقلة من الناحية، ولكنه مرتبط سياسيا بالقادة النقابيين اليساريين لحـزب العمـال. علـى الحـزب الماركسى ألا يسمح لنفسه أبدا بالارتباط بشكل غير بأى ديماجوجى شعبوى أواصلاحى يسارى بارز، مهمـا كان راديكاليا.

الحزب ووحدة الطبقة العاملة:

هوطليعة الطبقة ويجب أن يحتفظ باستقلاليته، ولكن هدفه هوالطبقة العاملة. تنبع من ذلك ثلاثـة أمـور : أولا، يجب أن يصارع بلا هوادة وبمبدأية صارمة ضد جميع تلك الانقسامات داخل الطبقـة العاملـة التـى ترعاها الطبقة الحاكمة بمثابرة وتحافظ بواسطتها سلطتها (مثل انقسامات العنصر، والجنسية، والانقسامات بين الرجال والنساء، والعمال المهرة وغير المهرة، والمشتغلين، الخ). ثانيا، لا ينبغى أن يسمح الحـزب لوجـوده كمنظمة مستقلة أن يخل بالوحدة التى تحتاجها الطبقة فى صراعها اليومى ضد العمل والدولة. من هنا تـأتى استراتيجية الجبهة المتحدة مع المنظمات الإصلاحية. ألا أن هذه الاستراتيجية (القابلة للتطبيق فـى ظـروف ولكن ليس فى كل الظروف) ليست سوى تعبير واحد عن المبدأ العام الذى يحكـم علاقـة الحـزب بجميـع التيارات السياسية الأخرى داخل العاملة – نسير منفصلين، ونضرب معا. وثالثا، رغم أن علـى الحـزب أن يحمى نفسه من تميع برنامجه أوسياساته تحت ضغط العمال، فلا ينبغى له على الإطلاق أن يعزل نفسه عـن هؤلاء العمال، وعليه أن يستغل كل طريق للوصول إليهم. هكذا، فحيث يظل ملايين فى نقابات رجعية، يكون على الحزب أن يعمل فى هذه النقابات مهما كانت قياداتها خائنة وفاسدة. وحيث تحتفظ جماهير العمال حـول الأحزاب الاشتراكية الديموقراطية، يكون على الحزب أن يدعولتأييد هذه الأحزاب ضد الأحزاب البرجوازية الواضحة، بحيث هذه الأوهام من خلال الخبرة. وحيث تضع غالبيـة الطبقـة أيمانهـا فـى الديموقراطيـة البرلمانية، يكون على الحزب أن يشارك فى الانتخابات، وأن يستخدمها فى القيام بدعاية ثورية وفى أضعاف النظام البرلمانى من الداخل.

المهام التعليمية للحزب:

على الحزب أن يقوم بعمل تعليمى دائم ومركب. عليه أن يعد قادة ثوريين منغمسين فى التراث الماركسى، ولكن قادرين فى الوقت على أجراء تحليلات ملموسة وإصدار أحكام مستقلة. عليه أن يخرج شريحة واسـعة من المثقفين العضويين. إذا ما استخدمنا تعبير، وهم عمال لديهم فهم واضح للطبيعة الكلية للصراع ولوسـائل شنه. عليه أن يعمل على تحقيق أوسع انتشار ممكن للمبادئ. الماركسية والاشتراكية الأساسية بين صـفوف الطبقة العاملة عن طريق الترجمة التى لا تتوقف لنظريته إلى أمثلة وعروض ملموسة الفهم فى صحافته وفى كل دعايته. فيما يتعلق بالتعليم، هناك نقطتان يجب أن نضعهما نصب أعيننا: أولا، لابـد لعمليـة التعلـيم أن تكون بالأساس ذات طابع عمل وليس أكاديمى (حيث أن الطابع الأكاديمى يؤدى بالضـرورة، إلـى سـيادة العناصر البرجوازية الصغيرة). ثانيا، وكما أكدت روزا لوكسمبرج، على الحزب أن يكون قادرا على الـتعلم من العمال وتعليمهم فى الوقت نفسه. الحزب هوالذاكرة والعقل الجماعيان للطبقة العاملة، ولكنه عقل يحتـاج للتجديد المستمر.

الصراع على الهيمنة:

على الحزب أن يعمل على جمع جميع القوى المضطهدة فى صراع مشترك ضد الرأسمالية، تحت قيـادة البروليتارية. تاريخيا وعلى النطاق العالمى، فان ذلك كان يعنى بالأساس تحقيق تحـالف بـين البروليتاريـا والفلاحين، وعلى كل حزب عمالى أن يتأكد من تضمن برنامجه الدفاع عـن مصـالح الفلاحـين الفقـراء. بالإضافة إلى ذلك، فقد شهد العقد الأخير ظهور سلسلة من القوى الجديدة – أهمها حركة السـود والحركـة النسائية والحركة الطلابية – التى تمتلك إمكانية ثورية عظيمة ولكنها تطرح على الحزب بعـض المشـاكل الاستراتيجية. فمن ناحية، وينطبق هذا بصفة خاصة على المنظمات الصغيرة التـى ليسـت لـديها قاعـدة بروليتارية قوية، يمكن للحزب أن يلقى بنفسه فى أحضان هذه الحركات بلا نقد وبحماسـة بحيـث يخضـع لطابعها المفكك بالضرورة ويهمل عمله الأساسى داخل الطبقة العاملة الصناعية. ومن ناحية أخـرى، يمكـن للحزب أن يطرح جانبا برجماتية المشاكل والدعاوى الخاصة لمختلف الشرائح المضطهدة، ويتقدم لحركاتهـا بإنذار طالبا أن تقبل مسبقا بقيادة الحزب البروليتارى، مما يؤدى لا إلى الوحدة وإنما إلى الاغتراب. أن مـا نحتاجه، أذن هوالتأييد غير المشروط للمطالب المبررة للشرائح المضـطهدة، مصـحوبا بالإصـرار المبـدأ والصبور فى نفس الوقت على الحاجة للوحدة فى الصراع ضد العدوالمشترك، وعلى الطابع الطبقـى لـذلك الصراع، وعلى الدور القيادى للطبقة العاملة. وقبل كل شئ، فان الصراع الشامل على الهيمنة، والذى يتضمن تحقيق سيادة الثقافة الثورية فى جميع مجالات الحياة الاجتماعية للشعب، لا يمكن القيام به ألا بواسطة حـزب حقق بالفعل قاعدة كبيرة داخل الطبقة العاملة.

الأممية:

البروليتاريا طبقة عالمية والثورة الاشتراكية عملية عالمية. وبالتالي فان جميع سمات الحزب الثورى التى عرضناها هنا، لابد أن تحقق على نطاق عالمى فى حزب عالمى واحد. فى الوقت الحالى لا توجد مثل هـذه الأممية، كما أن بنائها لا يمكن أن يتم فى يوم. أن الحزب العالمى الذى يتكون، مثل الأممية الرابعة، من حفنة من الطوائف المتماثلة فى الفكر، هوأسطورة لا يمكن أن تنتج قيادة عالمية لها أية سلطة حقيقية. ومن ناحيـة أخرى، فان اتحاد فيدراليا لمنظمات غير متجانسة بالأساس، مثل الأممية الأولى، سينهار فى اللحظة الحاسمة. لقد تم تكوين الأممية الثالثة على أساس مكانة الثورة الروسية المنتصرة، ولكننا لا نستطيع أن ننتظر بسـلبية تكرار هذا التسلسل للأحداث. كيف أذن يمكن بناء الأممية؟ في الوقت الحاضر، المسار الوحيد الواقعى هوأن تشرع المنظمات العمالية الثورية القائمة فى التعاون العملى متى كان ذلك ممكنا وفى التبادل المستمر للمواقف النظرية، بحيث يصبح من الممكن- تدريجيا، وعلى أساس هذا العمل المشترك، وتحـت تـأثير الأحـداث – تحقيق روابط أوثق وتجانس سياسى أكبر. ولكن هذا العمل ينبغى القيام به مع وجود أفق بأن هدفه هوخلـق أممية عمالية ثورية جديدة. فبناء الأحزاب الثورية وتوحيدها الأممى هوالآن المهمة الاستراتيجية الأساسـية والأكثر إلحاحا التى تواجه الثوريين على امتداد العالم. فما لم يتحقق ذلك، ستكون الطبقة العاملة غير قـادرة أن تحسم لصالحها أزمة الرأسمالية التى تزداد حدتها كل يوم.

وأخيرا، فان الخيط الذى يربط جميع السمات والمهام الرئيسـية للحـزب هوالسـعى لتوحيـد النظريـة والممارسة. يوجد الحزب لكي يترجم الأهداف العامة للاشتراكية إلى أنشطة عملية ملموسة ولكى يربط كـل صراع مباشر بالهدف النهائى المتمثل فى الاشتراكية من خلال الحزب. فإن النظريـة – التفسـير المـادى للتاريخ، وتحليل الرأسمالية وتناقضاتها، وفهم الدور التاريخى للطبقة العاملة – ترشد الممارسة، ومن خـلال الحزب، فان الممارسة – الصراع من أجل تغيير العالم – تحفز وتوجه وتختبر وفى النهاية تحقق النظريـة. عندما تكون الرأسمالية مستقرة وعندما لا تمثل الطبقة العاملة تحديا صريحا للنظام، فان النظرية والممارسـة تنلان بالضرورة. فى ظروف كهذه، يمكن الأعداد للحزب الثورى ولكن ليس بنائه. انه يظل ضرورة مجردة. أما عندما تضنى الأزمة النظام، كما هوالحال الآن، فان النظرية والممارسة تسيران معـا، ولا يظـل بنـاء الحزب أمنية مجردة، بل يصبح ضرورة عملية وإمكانية حقيقية فى نفس الوقت.